

سيدنا الشيخ عبد الوهاب الشريف

فيض الملك الحميد وفتح القدوس المجيد
بشرح بلغة المريد ومشتهى الموفق السعيد لسيدى مصطفى البكرى
للشيخ سليمان بن يونس بن على الجهينى الخلوتى

***

* الحمد لله نحمده * والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وتابعيه إلى يوم الدين *٠
فيقول العبد الفقير ذو الباع القصير، راجى رحمة مولاه العلى، سليمان بن يونس بن على، الجهينى قبيلة، الشافعى مذهبًا، الخلوتى طريقة٠
(أما بعد)
إنى لما رأيت الهمم كلت * وسيوف العزم فلت * والأضاليل بين المتصوفين عمت * وخطوب تلك العيوب طمت * ولم يدر طالب الإرشاد من يؤم رحابه * ولا لمن يشكو ما أصابه وأنابه * ولا عند أى طبيب يطلب الدواء * ولا أى دليل يقوده فى تلك البيداء * إذ قد تصدى لذلك الخطب الأهم * والشأو البعيد الأشم * جهلاء أوغاد * أغبياء حساد * قطاع طريق * فجار زناديق * صاروا لأهل الحق حجابًا يمنع الطالب * فلم يدر أين العذب * بين تلك المشارب * وإن ساعدته العناية الربانية * وأدركته ألطاف ربه الإحسانية * وظفر بهذا الأستاذ الحقيقى المحمدى * وأدرك ذلك الكنز الجوهرى الخفى * لم يدر كيف الوقوف بين يديه * ولا أى حال يلقى قياده إليه * فاحتاج فى الأول إلى معرفة أحوال الأستاذ المرشد * وضده ذلك المدعى المقلد * ليفرق بين الغث والسمين * والمخادع والأمين * وفى الثانى إلى أدب نفسه الأبية * ليقوم بالحقوق الأبوية * ثم انه متى عرف ذلك * وتحقق فيما هنالك * فقد صار بين إخوان * وخلان وأخذان * لكل منهم حق مطلوب * وأدب مرغوب * وعليه حقوق لبقية الخلق قاطبة * وصفات صدق عن قلوب راغبة * ولا يصفو له شراب أهل التحقيق * ولا يظفر بوصل المحبوب عن تصديق * إلا بجملة آداب هذا الشأن * والتحلي بحلى أهل العرفان * وإن أحسن كتاب لأجمل موضوع صنف * نظم صاغته فكرة الهمام التقى * وعالم علماء الأعلام * وتاج فخار الأولياء الكرام * سيدى مصطفى بن كمال الدين * الصديقي نسبًا * الحنفى مذهبا * الخلوتى طريقة * المسمى ب " بلغة المريد ومشتهى الموفق السعيد * قد بادرت متوسلا بجاه النبي العربى * الهاشمى القرشى * إلى الله العلى * فى و ضع ما جادت به الهمة الباردة * والفكرة الشاردة * تعليقًا عزيزًا * سميته فيض الملك الحميد وفتح القدوس المجيد * بشرح بلغة المريد ومشتهى الموفق السعيد * والله أرجو أن يشمله بالقبول التام٠

ولابد من تقديم جملة لطيفة للموضوع قبل الخوض فيه لتكون كالتنبيه على ما سيذكره المصنف فنقول :

مقدمة

***

المراد بسلوك الطريق عند القوم : تتبع أخلاق النبى - صلى الله عليه وسلم-٠
والمريد الواصل إلى الله تعالى : هو الذى تخلى عن الأوصاف الذميمة، وتحلى بالأوصاف الحميدة٠

فالأوصاف الذميمة :
كالجهل والغضب والحقد والتعاظم والتكبر والعجب والغرور والرياء ، وحب الجاه والرئاسة ، وكثرة المزاح والتزين للناس ، والتفاخر والضحك والخيلاء ، والتقاطع والتهاجر ، والأمل والحرص وسوء الخلق ، وكل ما نهى عنه الشارع٠

والأوصاف الحميدة :
كالعلم والحلم وصفاء الباطن ، والكرم والتذلل والرفق ، والتواضع والصبر والشكر ، والزهد والتوكل والمحبة ، والحياء والتفكر والشفة والرحمة للخلق ، والحب فى الله تعالى والبغض فى الله ، والتأنى فى الأمور ، والبكاء والحزن وحب الخمول ، والعزلة وسلامة الصدر ، والنصح وقلة الكلام ، والخشوع والخضوع وانكسار القلب ، وحسن الخلق ، والتخلق بما ورد به الشرع من الصفات المحمودات٠

فإذا اتصف المريد بأوصاف الكمال ، وخلص من قبيح الفعال ، فهو التقى وقد وصل إلى الملك المتعال ، وصار من أصحاب الأحوال الذين قطعوا المنازل والأهوال ، وترقوا مقامات الرجال٠

قال القطب الكامل الهمام الواصل حجة الإسلام - أبو حامد الغزالى - قدس الله سره - :
اعلم أن أول ما يتنبه العبد للعبادة ، ويتجرد لسلوك طريقها بخطرة سماوية من الله تعالى ، وتوفيق خاص إلهى ، وهو المعنى بقوله تعالى :
{ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ } ٠

وأشار إليه صاحب الشرع الشريف - صلوات الله وسلامه عليه - ، فقال :
« إن النور إذا دخل القلب انفسح وانشرح ، فقيل : يا رسول الله هل لذلك من علامة يعرف بها ؟ ، قال : التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإستعداد للموت قبل نزول الموت »٠

فإذا خطر على قلب العبد أول كل شىء :
إنى أجدنى منعمًا بضروب من النعم علىَّ ؛ كالحياة والقدرة والعقل والنطق وسائر المعانى ، الشريفة واللذات ، مع ما ينصرف من ضروب المضار عنى الآفات.
وإن لهذه النعم ، منعم يطالبنى بشكره وخدمته ، فإن غفلت عن ذلك فيزيل عنى نعمته ، ويذيقنى بأسه ونقمته.

وقد بعث إلى رسولاً أيده بالمعجزات الخارقة للعادات، الخارجة عن مقدور البشر ، وأخبرنى بأن لى ربنا جل ذكره ، قادرًا عالمًا حيًا مريدًا متكلمًا ، يأمر وينهى ، قادرًا على أن يعاقب إن عصيته ، ويثيب إن أطعته.

عالمًا بأسرارى، وما يختلج فى أفكارى ، وقد وعد، وأوعد، وأمر بإلتزام قوانين الشرع ، فيقع فى قلبه أنه ممكن إذ لا استحالة لذلك فى العقل بأول البديهة ، فيخاف على نفسه عند ذلك ويفزع.

فهذا خاطر الفزع الذى ينبه العبد ويلزمه الحجة ، ويقطع عنه المعذرة ، ويزعجه إلى النظر والاستدلال.
فيهتاج العبد عن ذلك ويقلق ، وينظر فى طريق الخلاص ، وحصول الآمان له مما وقع بقلبه أو سمع بأذنه ، فلم يجد فيه سبيلاً ، سوى النظر بعقله فى الدلائل ، والاستدلال بالصنعة على الصانع ، ليحصل له علم اليقين بما هو مغيب ، ويعلم أن له ربًّا كلفه، وأمره، ونهاه.

فهذه أول عقبة استقبلته فى طريق العبادة.
* وهى العقبة الأولى *

فيأخذ فى قطعها من غير بد ، ويحسن النظر فى الدلائل ، ووفور التأمل والتعلم، والسؤال من علماء الآخرة، أدلاء الطريق، سراج الأمة ، وقادة الأئمة ، والاستفادة منهم ، واستهلال الدعاء الصالح منهم للتوفيق والإعانة ، إلى أن يقطعها بتوفيق الله تعالى ، فيحصل له علم اليقين بالغيب ، وهو أنه له إلهًا واحدًا لا شريك له.

هو الذى خلقه، وأنعم عليه بكل هذه النعم ، وأنه كلَّفه شكره ، وأمره بخدمته وطاعته بظاهره وباطنه ، وحذره الكفر وضروب المعاصى ، وحكم له بالثواب الخالد إن أطاعه ، وبالعقاب الخالد إن عصاه وتولى عنه.

فعند ذلك تبعثه هذه المعرفة واليقين بالغيب ، على التشمير للخدمة، والإقبال على العبادة لهذا السيد المنعم ، الذي طلبه فوجده، وعرفه بعدما جهله.

ولكن لا يدرى كيف يعبده ، وماذا يلزمه فى خدمته بظاهره وباطنه ، فبعد حصول هذه المعرفة بالله تعالى ، جهد حتى يتعلم ما يلزمه من الفرائض الشرعية ظاهرًا وباطناً.

فلما استعمل العلم والمعرفة بالفرائض ، انبعث ليأخذ فى العبادة ويشتغل بها، فنظر فإذا هو صاحب جنايات وذنوب ، وهذا حال الأكثر من الناس ، فيقول : كيف أقبل على العبادة، وأنا مصر على المعصية متلطخ بها٠
فيجب عليَّ أولا أن أتوب إليه ، ليغفر لى ذنوبى ، ويخلصنى من أسرها ، ويطهرنى من أقذارها ، فأصلح للخدمة وبساط القرب٠
فتستقبله :
* عقبة التوبة وهى العقبة الثانية *

—

فيحتاج لا محالة إلى قطعها إلى ما هو المقصود منها ، فيأخذ فى ذلك بإقامة التوبة بحقوقها ، أو شرائطها إلى أن يقطعها٠

فلما أن حصلت له التوبة الصادقة ، وفرغ من هذه العقبة ، حن إلى العبادة ليأخذ فيها ، فنظر فإذا حوله عوائق محدقه به ، كل واحد منها يعوقه عما قصده من العبادة ، بضرب من التعويق ، فتأمل فإذ هى أربعة :
الدنيا ، والخلق، والشيطان ، والنفس٠
فإحتاج لا محالة إلى دفع هذة العوائق وازالتها عنه ، وإلا فلا يتأتى له مراده من العبادة٠

فاستقبلته ههنا :
* عقبة العوائق وهى العقبة الثالثة *

—

فيحتاج إلى قطعها بأربعة أمور :
التجرد عن الدنيا ، والتفرد عن الخلق ، والمحاربة مع الشيطان ، والقهر للنفس٠

فأما النفس فأشدها إذ لا يمكنه التجرد عنها ، ولا أن يقهرها بمرَّةٍ ويقمعها كالشيطان ، إذ هى المطية والآلة٠
ولا مطمع أيضًا فى موافقتها على ما يقصده من العبادة والإقبال عليها ، إذ هى مجبولة على ضد الخير، كاللهو واتباعها له٠

فاحتاج أن يلجمها بلجام التقوى لتبقى له فلا تنقطع ، وتنقاد له فلا تطغى ، فيستعملها فى المصالح والمراشد ، ويمنعها من المهالك والمفاسد ، فيأخذ إذًا فى قطع هذه العقبة ، ويستعين بالله جل ذكره على ذلك٠

فلما فرغ من قطعها رجع إلى قصد العبادة ، فإذا عوارض تعترضه ، فتشغله عن الإقبال على مقصوده من العبادة ، وتصده عن التفرغ لذلك كما ينبغى، فتأمل فإذا هى أربعة :

الرزق : تطالبه النفس به ، تقول لابد لى من رزق٠
والثانى الأخطار : من كل شيء يخافه أو يرجوه ، أو يريده أو يكرهه ، ولا يدرى فلاحه فى ذلك أو فساده ، فإن عواقب الأمور مبهمة فيشتغل قلبه بها ، فإنه ربما وقع فى فساد أو مهلكة٠

والثالث : الشدائد والمصائب تنصب عليه من كل جانب ، لاسيما وقد انتصب لمخالفة الخلق ، ومحاربة الشيطان ، ومضادة النفس۰
فكم من غصة يتجرعها ، وكم من شدة تستقبله ، وكم من هم وحزن يعترضه ، وكم من مصيبة تتلقاه۰
والرابع : أنواع القضاء من الله سبحانه وتعالى بالحلو والمر ، ترد عليه حالاً فحالاً ، والنفس تسارع إلى السخط ، وتبادر إلى الفتنة۰
فاستقبلته ههنا :
* عقبة العوارض الأربعة، وهى العقبة الرابعة *

فاحتاج إلى قطعها بأربعة أشياء :
١- التوكل على الله سبحانه وتعالى فى موضع الرزق۰
٢- والتفويض إليه جل شأنه فى موضع الخطر۰
٣- والصبر عند نزول الشدائد۰
٤- والرجاء عند نزول القضاء۰

فأخذ فى قطع هذه العقبة بإذن الله تعالى وحسن تأييده ، فما فرغ من قطعها وعاد إلى قصد العبادة ، نظر فإذا النفس فاترة ضعيفة كسلى لا تنشط، ولا تنبعث لخير كما يحق وينبغى، وإنما ميلها أبدًا إلى غفلة ودعة وراحة وبطالة۰

فاحتاج معها ههنا : إلى سائق يسوقها إلى الخير والطاعة وينشطها له ، وإلى زاجر يزجرها عن الشر والمعصية ويفترها عنه۰

وهما الرجاء والخوف :
فالرجاء : فى عظيم ثواب الله تعالى ، وحسن ما وعد به من أنواع الكرامة ، وتذكر ذلك سائق يسوقها فيبعثها على الطاعة، ويحركها لذلك وينشطها۰
والخوف : من أليم عقاب الله عز وجل ، وصعوبة ما أوعد من أنواع العقوبة والإهانة ، زاجر يزجرها عن المعصية، ويجنبها، ويفترها عن ذلك۰

* فهذة عقبة البواعث استقبلته ههنا، وهى العقبة الخامسة *

فاحتاج إلى قطعها بهذين المذكورين ، فأخذ فيها بحسن توفيق الله عز وجل فقطعها، ، فلما فرغ منها رجع إلى الإقبال على العبادة ، فلم ير عائقًا ولا شاغلًا ، ووجد باعثًا وداعيًا ، فنشط فى العبادة ، فأقامها وعانقها بتمام الشوق والرغبة۰

فأدامها فنظر فإذا إنه تبد ، ولهذه العبادة العظيمة التى احتمل فيها كل ذلك آفاتان عظيمتان ؛ وهما الرياء والعجب۰
تارة يرائى بطاعته الناس فيفسدها، وأخرى يمتنع عن ذلك ويلوم نفسه ، فيعجب بنفسه ، فيحبط العبادة عليه ويتلفها ويفسدها۰

* فاستقبلته ههنا عقبة الفوادح، وهى العقبة السادسة *

فاحتاج إلى قطعها بالإخلاص ، وذكر المنة ونحوها ، ليسلم له ما يعمل من خير، فأخذ فى قطع هذه العقبة بإذن الله سبحانه وتعالى ، بجد واجتهاد واحتياط وتيقظ بحسن عصمة الجبار تعالى وتأييده ٠

فلما فرغ من هذه كلها ، حصلت له العبادة كما يحق وينبغى ، وسلمت من كل آفة ، ولكنه نظر فإذا هو غريق فى بحور منن الله تعالى وآياته ، من كثرة ما أنعم الله عليه من أمداد التوفيق والعصمة ، وأنواع التأييد والحراسة والكرامة ، وخاف أن يكون منه إغفال للشكر فيقع فى الكفران ، فينحط عن تلك المرتبة الرفيعة التى هى ، مرتبة خدم الخالصين لله عز و جل ، وتزول عنه تلك النعم الكريمة من ضروب الطاف الله ، وحسن نظره إليه٠

* فاستقبلته ههنا عقبة الحمد والشكر، وهى العقبة السابعة *

فأخذ فيها فقطعها بما أمكنه، من كثرة الحمد والشكر على كثير نعمه ، فما فرغ من قطع هذه العقبة ونزل ، فإذ هو بمقصوده ومبتغاه بين يديه ، فلم يسر إلا
قليلا حتى وقع فى سهل الفضل ، وصحراء الشوق ، وعرصات المحبة٠

ثم يقع فى رياض الرضوان وبساتين الأنس ، إلى بساط الانبساط ومرتبة
التقريب ومجلس المناجات، وقبل الخلع والكرامات ، فهو يتنعم فى هذه الحالات ،
ويتقلب فى طيبها أيام بقائه أو بقية عمره بشخص فى الدنيا ، وقلب فى العقبى ،
ينتظر البريد يومًا فيوم٠

حتى يمل الخلق كلهم ، ويستقذر الدنيا ، ويحن إلى الموت ، ويستعمل الشوق إلى الملأ الأعلى٠

فإذا هو برسل رب العالمين ، يردون عليه بالروح والريحان ، والبشر والرضوان من عند رب ، راض غير غضبان ، فينقلوه فى طيب النفس ، وتمام البشر والأنس ، من هذه الدنيا الفانية المفتنة ، إلى الحضرة الإلهية ، ومستقر رياض الجنة ، فيرى لنفسه الضعيفة الفقيرة نعيمًا مقيمًا ، وملكًا كبيرًا عظيمًا٠

ويلتقى هنالك من سيده الرحيم المتفضل الكريم جل ذكره ، من اللطف به والعطف عليه ، والترحيب والتقريب والإنعام والإكرام ، ما لا يحيط وصف الواصفين ونعت الناعتين ، هو كل يوم فى زيادة إلى أبد الآبدين٠

فيالها من سعادة عظيمة ، ويالها من دولة علية ، وياله من عبد مسعود ، وامرىءٍ مغبوط ، وشأن محمود، وطوبى له وحسن مآب٠
نسأل الله البر الرحيم سبحانه وتعالى، العفو والعافية وحسن الختام٠

فقد بان لك من هذ الجملة اللطيفة أن الإنسان السالك لا يتم له الفوز بالمقصود فى هذه الطريقة * * إلا بقطع سبع عقبات :

العقبة الأولى : عقبة العلم

فيجب عليك بحكم الشرع من العلوم ثلاثة :
علم التوحيد، وعلم السر (أعنى به : كل ما يتعلق بالقلب ومساعيه) ، وعلم الشريعة.
فالذى يتعين فرضه من علم التوحيد :
مقدار ما تعرف به أصول الدين، وهو أن لك إلهًا عالمًا قادرًا مريدًا حيًّا متكلمًا سميعًا بصيرًا واحد لا شريك له ، متصفًا بصفات الكمال، منزهًا عن النقصان والزوال ودلالات الحدوث، منفردًا بالقدم عن كل محدث.
وأن سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - عبده ورسوله الصادق ، فيما جاء به، وفيما ورد على لسانه من أمور الآخرة.

والذى يتعين فرضه من علم السر :
فمعرفة مواجبه ومناهيه ، حتى يحصل لك تعظيم الله تعالى ، والإخلاص له، والنية، وسلامة العمل.

والذى يتعين من علم الشريعة :
فكل ما تعيَّن عليك فرضُ فِعلِهِ ، يتعيِّن عليك معرفته لتؤديه ، وهذا معنى الطلب المفروض فى قوله - عليه الصلاة والسلام - :
« طلب العلم فريضة على كل مسلم ».
وذلك ؛ كالطهارة، والصلاة، والصوم.
وأما الحج، والزكاة، والجهاد فإن تعيِّن عليك فرضه، تعيِّن عليك علمه لتؤديه، وإلَّا فلا، فهذا ما يلزم العبد تحصيله لا محالة، ويتعيِّن عليك فرضُهُ بحيث لا بد له من ذلك.

العقبة الثانية : عقبة التوبة

وهى سعى من مساعى القلب ، وهى عند التحصيل : " تنزيه القلب عن الذنب ".
وقال إمام الحرمين : إنها ترك اختيار ذنب عنه سَبَق مثْلُهُ منزلًا صورةً تعظيمًا لله تعالى، وحذرًا من سخطه، فلها إذً أربعة شرائط :

الأول : تركُ اختيار الذَّنبِ ، وهو أن يُوطِّن قلبَهُ، ويُجَرِّدَ عزمَهُ على أن لا يعودُ إلى الذنبِ البتَّة.
فأمَّا إن تَرَكَ الذَّنب وفى نفسه أنَّه رُبَّما يعُودُ إليه، أو لا يعزمُ على ذلك بل يتردَّدُ، فإنَّه رُبَّما يقعُ له العودُ، فإنَّه مُمتَنعٌ عن الذنب غيرُ تائبٍ منهُ.

الثانى : أن يتوب من ذنب قد سبِق عنهُ مثْلُهُ إذ لو لم يسبِق عنه مثله لم يكن تائبًا ، بل كان متقيًّا ، كما يقال لسيدنا عمر بن الخطاب " تائب عن الكفر "، ولا يقال ذلك للنبى - صلى الله عليه وسلم - بل مُتَّقِيًا له.

الثالث : أن الذى سَبَقَ عَنهُ يَكُونُ مِثلُ الذى يترك اختياره فى المنزلة والدرجة، لا فى الصورة.
ألا ترى أن الشيخ الهرم الفانى الذى سَبَقَ الزِّنا وقطعُ الطريق، إذا أراد أن يتُوبَ عن ذلك تُمكِنُهُ التوبة لا محالة، إذ لم يغلق عنه بابها، ولا يُمكنه ترك اختيار الزِّنا وقطعَ الطريق، إذ هُوَ لا يقدِرُ السَّاعة على فعل ذلك، فلا يقدرُ على تركِ اختيارِهِ، فلا يصِحُّ وصفُهُ بإنَّه تاركٌ له مُمتَنعٌ عنه، وهو عاجزٌ عنهُ غيرُ مُتمَكِّنٍ مِنهُ.

لكِنَّه يقدرُ على فعل ما هو مثل الزِّنا وقطع الطريق فى المنزلة والدرجة ؛ كالكذب والقذف والغيبة والنَّميمة، إذ جميع ذلك معاصٍ، وإن كانَ الإثمُ يتفاوت فى كل واحدةٍ بقدرها.

لكن جميع المعاصى الفرعية كلها بمنزلةٍ واحدةٍ، وهى دُونَ منزلة البدعة، ومنزلةُ البدعة دون منزلة الكُفر، فلذلك تصِحُّ مِنه التوبةُ عن الزِّنا، وقطعِ الطريق، وسائر ما مضى من الذنوب التى هُوَ عاجِزٌ عن أمثالها اليوم فى الصورة.

الرابع : أن يكون ترك اختياره لذلك تعظيمًا لله عز وجل ، وحذرًا من سخطه وأليم عقابه، مجردًا لا عن رغبة دنيوية ، أو رهبةٍ من الناس، أو طلب ثناءٍ أو صيتٍ أو جاهٍ ، أو ضعفٍ فى النفس، أو فقرً أو غير ذلك.

فهذه شرائط التوبة وأركانها ، فإذا حصلت واستكملت فهى توبة حقيقية صادقة.

وأما مُقدِّماتُ التَّوبَةِ فثلاث :
الأول : ذِكرُ غَايةِ قُبحِ الذُّنوبِ.
الثانى : ذِكرُ شِدَّة عقوبة الله - عزَّ وجلَّ - وأليم سَخَطِهِ وغضبه الذى لا طاقة لك به.
الثالث : ذِكرُ ضَعفِكَ وقِلَّة حيلتك فى ذلك ، فإن من لا يحتمل حر شمس ولا لطمة شرطى ، ولا قرص نملة ، كيف يحتمل حَرَّ نارِ جَهَنَّمَ ، وضربَ مقامِعَ الزَّبانِيَةِ، ولسع حَيَّاتٍ كأعناق البُختِ، نعوذ بالله من عذاب الله.

العقبة الثالثة : عقبة العوائق الأربعة.

التى هى الدنيا والخلق والشيطان والنفس، ويحتاج الإنسان فى التخلص من كل واحد منها إلى أشياء لا تخرج عن مضمون ما يأتى فى هذا المتن وشرحه.

العقبة الرابعة : عقبة العوارض الاربعة.

التى هى الرزق والأخطار والمصائب والقضاء ، يلزمه فى الخلاص منها أشياء تقدمت الإشارة إليها ، وسيأتى منها ما يسر.

العقبة الخامسة : عقبة البواعث.

التى هى السائق والزاجر ، فالأول الرجاء والثانى الخوف.

العقبة السادسة : عقبة الفوادح .

التى هى الرياء والعُجب، وقطعها بالإخلاص وذكر المنَّة .

العقبة السابعة : عقبة الحمد والشكر .

وهى الخاتمة الحسنى ، فإذا تم له ذلك فقد فاز بالمطلوب، وانكشفت له الغيوب، ولكن ضروبها ومهالكها ومعالمها وكيفية السير فيها ، تحتاج معرفتها إلى دليل يرشده إلى الإصلاح، ويحذره من السقوط فى تلك المهالك .

فاحتاج إلى آداب ذلك المرشد، وأوصافه فى حد ذاته ، وإلى آدابه مع رفاقه فى هذا السبيل ، فإنه قل أن يسير سائر بغير رفاق .

وإلى آدابه التى يجب أن يتأدب بها فى حق المرشد والرفيق، وفى نفسه ، ومع عامة الناس، وسيأتى ذلك إن شاء الله تعالى مفصلًا فى هذا المتن ، مبينًا فى هذا الشرح أحسن بيان .

فإني سأتجنب فيه عن الطول الممل، والإيجاز المخل، والأقاويل التى يكثر نقلها ، وأقتصر فيه على قدر المقصود ليكون أسهل فى التناول ، والله سبحانه وتعالى يرشدنا إلى ما فيه النجاح بجاه سيدنا محمد رسوله الأمين ، وواسطته العظمى فى كل خير مبين - صلى الله عليه وسلم - وعلى آله وصحبه أجمعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين آمين .

قال المصنف ـ قدس الله سره ورضى الله عنه ـ اقتداء بالكتاب وعملًا بسنة سيد الأحباب مستعينًا ومتوسلًا ومتبركًا :

{ بسم الله } الواجب الوجود الذى هدى من أراد إلى سلوك الطريق المستقيم٠
{ الرحمن } المنعم عليهم بعظيم الكشف والمشاهدة حتى أصبحوا فى حظيرة قدسه مخاطبون يبشرهم بجنات نعيم مقيم٠
{ الرحيم } بهم فصفت أكدارهم بخلوصهم من غم الدنيا وعيشها الذميم٠

{ الحمد لله } هو عند التحصيل من المساعي الظاهرة إذ هو من أشكال التسبيح والتهليل٠
{ على التوفيق } إلى ملازمة آثار سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ٠
{ ما سار } أى سلك { سار} أى مجد فى الطاعات وملازمة الرياضات٠
{منهج } أى طريق { التحقيق } وهى الطريق إلى الله تعالى التى من سلكها نجا من المخاوف، ومَنْ جَانَبَهَا لاشك فقد وقع فى المتالف٠

{ والشكر لله } أتى به بعد الحمد إشعارًا بالمقامين٠
إذ الحمد كما تقدم عند التحصيل : أشكال التسبيح والتهليل، فيكون من المساعى الظاهرة٠
والشكر : من أشكال الصبر والتفويض، فيكون من المساعى الباطنة٠
لأن الشكر يقابل الكفران ، والحمد يقابل اللوم٠

ولأن الحمد أعم وأكثر ، والشكر أخص وأقل، قال تعالى :
{ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ }
فثبت أنهما معنيان متميزان٠

ثم الحمد والثناء على أحد بالفعل الحسن هذا مقتضى كلام امام الحرمين٠
وأما الشكر فتكلموا فيه وأكثروا :
فعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال : الشكر هو الطاعة بجميع الجوارح لرب الخلائق فى السر والعلانية٠

وإلى نحوه ذهب بعض العارفين فقال : الشكر هو أداء الطاعات فى الظاهر والباطن ، ثم رجع إلى أنه اجتناب المعاصى ظاهرًا وباطنًا٠

وقال غيره : الشكر الاحتراس من اختيار معاصى الله ، تحترس على قلبك ولسانك ولسانك وأركانك، حتى لا تعصى الله بشىء من هذة الثلاثة بوجه من الوجوه٠

والفرق بينه وبين قول الشيخ الأول : إنه ـ رحمه الله تعال ـ جعل الاحتراس معنى مثبتًا زائدًا على الاجتناب عن المعاصى٠
أما الاجتناب : ما هو إلا أن لا يفعل المعصية عند دواعيها ، ولا يكون فى نفسه معنى محصلًا

يكون العبد به مشتغلًا ، وعن الكفران معتصمًا٠

وقال إمام الحرمين - رحمه الله تعالى - :
إن الشكر تعظيم المنعم على مقابلة نعمته على حد يمنعه عن جفاء المنعم وكفرانه.
ولو قلت تعظيم المحسن على مقابلة إحسانه، ليصح أن يكون من الله الشكر للعبد فحسن.
ولكن التحصيل : أن الشكر من العبد تعظيم يمنعه من جفاء من أحسن إليه، وذلك بتذكر إحسانه بحسن حال الشاكر فى شكره ، وقبح حال الكافر فى كفرانه.

{ على الأنعام } بما وهب لا يعد ولا يحصى { ما أذهب النهار للظلام } أى مدة دوام إذهاب النهار للظلام، والمراد : عدم الإنقطاع أبد الآبدين.

{ ثم الصلاة } لاشك أن أعلى الكمالات الحادثة كلها وأدومها، كمال الفوز برضاء مولانا عز وجل ، والسلامة من غضبه ، وقد جعل مولانا سبحانه وتعالى بفضله نبينا ومولانا محمد - صلى الله عليه وسلم - بابًا عظيما لذلك مفتوحًا فى الدنيا والآخرة ، لا يقاربه باب، ولا يستغنى عن التعلق بأذياله والإيواء إلى عتبة حرمه وبابه أحدا من الأعداء والأحباب.

وكيف ومن أجله خلق الله من الكمال الدنيوي والأخروى والعلوى والسفلي، وبشفاعته الكبري في الآخرة ، وما بعدها من شفاعته تنقشع أنواع الكُرَب، وترتفع بفضل الله تعالى أسبابها، وتتجلى شموس نعم مولانا جل وعلا على كافة المؤمنين ، وتنفتح أبوابها التى لم يتجاسر أحد من أهل الكمالات على طلب فتحها.

وتنتشر بعنايته العظمى التى تفضل بها تبارك وتعالى على أهل الإيمان به أنواع السرور ، وتنكشف عن الظواهر والبواطن أجناس الغموم وأنواع الشرور ، وببركة مبعثه الشريف وطلوع طلعته السعيدة على أهل الأرض ، انكشفت ظلمات الكفر والجهالات التى عمَّت وانتشرت، وتمكنت غاية التمكن فى جميع الآفاق والقلوب.

وتشعشعت أنوار الإيمان بالله تعالى، وبرسله وكتبه وملائكته ، وانقلعت بفضل الله تعالى سحائب رين الجهل وغمَّة السيئات والذنوب، وأفاض سبحانه رحمته على الخلق، وأخرج لهم مصطفاه - سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم - ذخائر المعارف الربانية، ونفائس الحكم والعلوم الدينية.

وحلَّاهم بجواهر الأسرار التى خبأها لهم فى خزائن الغيوب ، حتى كثرت منهم فى كل جيل الأقطاب والأوتاد والنقباء والأخيار والأبدال ، وعجَّت الأرض سهلها وجبلها، برُّها وبحرُها بتوحيد المولى تبارك وتعالى، والتنويه بأقدار رسله وملائكته، واللهج بشكره سبحانه وذكره وحمده على كل حال وبكل كمال.

وانتشرت أمة نبينا ومولانا محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وتطاولت أزمنتها إلى موافاة القيامة، وحفظ الله سبحانه عليهم الإيمان مع اختلاف الدول وانتشار المحن ، وبعد العهد عن مشاهدة أهل الحق والسنن والاستقامة، ونمّى سبحانه أنوارهم المعنوية والحسية دنيا وأخرى ، حتى كادوا كلهم من حِكَم قلوبهم وسطوع أنوارهم وامتدادها أن يكونوا أنبياء.

وأكثر الله عدَدَهم كثرةٌ عظيمةٌ تخرج عن الحصر حتى جعلهم بفضله ورحمته ثلثى جميع من يدخل الجنة من السعداء ، وقد ورد أن صفوف أهل الجنة مائة وعشرون صفًا ، ثمانون صفًا منها لهذه الأمة٠

ولعلهم إن كانوا ثلثى أهل الجنة يكون لهم من الجنة ونعيمها أكثر من الثلثين كثلاثة أرباع أو تسعة أعشار أو نحو ذلك، لما علم من تخصيص المولى تبارك وتعالى لهم بكرامة تضعيف الثواب لهم بالعمل والزمان والمكان والحال٠

وبالجملة لمَّا لم ينل غيرهم من الجنة إلا اليسير فكأنها خلقت من أجلهم ولهم ، وإذا عرفت أن منزلة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - عند مولانا - جل وعلا - بهذة المثابة، عرفت أن حمده تعالى وشكره على إنعامه به على الخلق من أوجب الواجبات، وأن التوسل إليه تعالى بحب هذا السيِّد، والتعظيم له وكثرة الصلاة والتسليم عليه ، من أعلى الوسائل للأمن من المخلوقات والفوز بأعلى الدرجات٠

ولو لم يكن للصلاة عليه من الفضل العظيم إلا ما ورد فى الصحاح :
« أنَّ من صلى علي سيدنا ومولانا محمد - صلى الله عليه وسلم - مرة واحدة صلى الله تعالى عليه بها عشرًا »٠
لكان كافيًا للعقلاء ، كيف و قد ورد فى فضلها العظيم ما ألف فيه أئمتنا على الانفراد تآليف عديدة

وقد رأيت لبعض أئمة التصوف : أن من فقد شيوخ التربية فليكثر من الصلاة على النبى - صلى الله عليه وسلم - فإنه يصل بها إلى مقصوده ، ولعله أخذ ذلك من قوله - عليه الصلاة والسلام - لأبي هريرة رضى الله عنه - عندما التزم أن يجعل جميع صلاته للنبى - صلى الله عليه وسلم - :
« إذًا تُكفى هَمَّك ويُغفر ذنبُك »٠

ولاشك أن المريد الطالب على مشايخ التربية قد اهتم بتنقية نفسه وشفائها من علائق سواه تبارك وتعالى، فإذا أكثر من الصلاة على نبينا ومولانا محمد - صلى الله عليه وسلم - كفى هذا الهم الذى اهتم به، والله تعالى أعلم٠

فذكر المصنف - رضى الله عنه - فى هذه العقيدة بعد حمد الله تعالى، والصلاة والسلام علي نبيه وأشرف خلقه - صلى الله عليه وسلم - مناسِبٌ من أوجه :

الأول : أنه شبه حمد خاص بعد حمد عام ؛ لأنه لما حمد المولى تبارك وتعالى حمدًا مطلقًا على جميع الفضائل والفواضل، حمده بعد ذلك حمدًا خاصًا ، وهو امتثال أمره سبحانه وتعالى فيما أمر به من الصلاة والتسليم على نبيه - صلى الله عليه وسلم - على نعمةٍ خاصة، وهى : نعمة بعثت نبينا ومولانا محمدًا - صلى الله عليه وسلم - ، ورحمته به سبحانه الخلق دنيا وأخرى٠
وخَصَّ هذه النعمة بالذكر ؛ لأنها أكبر النعم، وأعمها، وأدومها٠

الثانى : أنه لما حمد المولى - جل وعلا - ، وشكره على جميع نعمه التى تفضل بها - سبحانه وتعالى - وأوجدها وحده، شكر بعد ذلك من أظهر سبحانه على يده تلك النعم العامة ، وأفاضها ببركته على الخلق دنيا وأخرى ، وهو نبينا ومولانا محمد مولانا محمد - صلى الله عليه وسلم - لقوله صلى الله عليه وسلم - :
« من لم يشكُرِ النَّاسَ لم يشكُرِ اللهَ »٠

ولمَّا كنا عاجزين عن مكافأته - صلى الله عليه وسلم - من قبل أنفسنا وجب أن نرجع فى ذلك إلى مولانا الكريم القادر الذى بيده خزائن النعم ، فنطلب منه أن يصلى على هذا النبى الشريف - صلى الله عليه وسلم - ، وأن ينعم عليه بنعم يصحبها تكريم وتعظيم على ما يليق بمنزلة هذا السيِّد عنده٠ وأن يسلم عليه ؛ أى : يعظمه بأن يُسمعه من كلامه الذى لا مثل له، ما تَقَرَّ به عينه، وتبتهج به نفسه، ويتسع به جاهه٠

الثالث : أنه لما صدر عنه الحمد لله، وكان ذلك مقتضيًا لمعرفة توحيد مولانا - جل وعلا - ، ومعرفة ما يليق به من أوصاف الألوهية على حَسب ما مضى تقريره ، شكر بعده من أوصل سبحانه على يده هذه النعمة العظيمة ، إذ الناس قبل بعثته كانوا يمدحون غير الله تعالى من الأصنام وغيرها، ويضيفون على سبيل الحقيقة - فى زعمهم - نعمه تبارك وتعالى، وأنواع تربيته إلى غيره من الأسباب العادية وغيرها٠

فلما بعث نبينا ومولانا محمد - صلى الله عليه وسلم - عرفهم أن الحمد لا يستحقه على يستحقه على الحقيقة إلا الله تعالى إذ لا كمال قديمًا ولا حادثًا إلا له ، وأنه رب العالمين وحده، وبلَّغهم بقوله تعالى :
{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم } ، ونحو ذلك مما هو كثير فى القرآن، وقد اختُصر ذلك كله فى الفاتحة، ولهذا كانت أمَّ القرآن٠

الرابع : أن حمد الله تعالى وشكره الذى دخل تحت عمومه دعاء وطلب من المولى الكريم تبارك وتعالى لمزيد نعمه بطريق وعده الصادق فى قوله تعالى :
{ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ }
٠
ولهذا ورد فى الخبر :
« أفضَلُ الذِّكْرِ لا إله إلا الله، وأفضَلُ الدُّعَاءِ الحمدُ لِله »٠
ولما كانت أدعيتنا موقوفه على صلاتنا على نبينا ومولانا - محمد صلى الله عليه وسلم - ، أتى بالصلاة والتسليم عليه - صلى الله عليه وسلم - بعد جملة الحمد والشكر، المتضمنتين طلب المزيد من نعم الله تعالى ، تكميلًا لهذا الطلب وتتميمًا لغرض الحامد٠

وبالجملة فقد جاء بالحديث القدسى :
[عبدى لم تشكرنى إذا لم تشكر من أجريت النعمة على يديه] ٠
ولاشك أنه - صلى الله عليه وسلم - الواسطة العظمى لكل أحد فى كل نعمة ، بل هو أصل الإيجاد لكل المخلوقات ، كما قال الباري جل شأنه :
[لولاك ما خلقت الأفلاك] ٠

فلذلك ثنى المصنف بالصلاة والسلام عليه، وليدخل في مضمون قوله - صلى الله عليه وسلم - :
« من صلى علىَّ فى كتاب لم تزل الملائكة تصلى عليه مادام اسمى فى ذلك الكتاب » ٠

{ والسلام } أى التعظيم بأن يُسمعه من كلامه الذى لا مثل له ما تَقَرّ به عينه، وتبتهج به نفسه، ويتسع به جاهه ، وأن يزيده من التحية والإكرام، وأن يؤمنه - صلى الله عليه وسلم - مما يخافه على أمته ، أو يخافه خوف مهابة وإجلال ، كقوله - صلى الله عليه وسلم :
« إنى لأخوفكم من الله تعالى » ٠

بأن يسكن قلبه الشريف، ويقويه على مشاهدة كبرياء الله وعظمته ، وذلك لأنه كلما اشتد قرب المرء اشتد خوفه من هذه الحيثية ، وهو لاشك أقرب الخلائق إلى الله تعالى ٠

وقوله { الأبدى } بسكون الياء نسبة إلى الأبد ، وهو : الدهر ٠
وقيل : القديم الأزلى على سيد الكائنات سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - ٠

{ النبى } بالهمز والترك من النبأ ، وهو : الخبر ٠
أو من النبوة : وهى الرفعة، اسم فاعل، أو اسم مفعول ٠
وهو إنسان حرٌّ ذكرٌ من بنى آدم ، سليم عن منفِّر طبعًا، وعن دناءة أب وخنا أمّ ، بلغ أربعين سنة وأوحى إليه بشرع يعمل به، وإن لم يؤمر بتبليغه ٠ فإن أُمر بتبليغه فنبىٌّ ورسولٌ ٠
وخنا الأم : فحشها ٠

{ المصطفى } أى : المختار من خلقه المُصفى من مُصاص عبد المطلب بن عبد مناف ٠
قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
« إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم ، فأنا خيار من خيار من خيار » ٠

{ ذى } أى : صاحب { المدد } الفياض الذى عمّ جميع المخلوقات علويها وسفليها، إذ لولا إمداده لاضمحل العالم وزال بالكلية ، فبتدفق حياض أنوار ذاته المصطفوية - صلى الله عليه و سلم - على العوالم قامت ، فكل من امداده مكتسب ٠

{و} على { الآل } وهم : كل مؤمن ولو كان عاصيًا ٠
وإن كانوا فى مقام الزكاة : مؤمنى ب هاشم ، و بني عبد المطلب ، إذ المقام مقام دعاء، والتعميم أرجى للإجابة ٠

{و} على { الصحب } اسم جمع لصاحب ، بمعنى : الصحابى.
وهو : من اجتمع مؤمنًا بنبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - بعد رسالته اجتماعًا متعارفًا بالأبدان فى عالم الدنيا ، فيشمل الإنس والجن والملائكة، وعيسى - عليه السلام - ؛ لأنه اجتمع عليه مرات فى الأرض، وليلة الإسراء، وهو حى، وكذا الخضر وإلياس - عليهما السلام -.
وأما بقية الأنبياء فغير داخلين إذ الاجتماع بهم بعد موتهم سواء كانوا بأرواحهم أو بأجسمهم، وهو الأظهر.
وعطف الصحب على الآل الشامل لبعضهم لتشمل الصلاة والسلام باقيهم، وتنبيهًا على رفعة قدرهم.

{ ذوى } أى أصحاب { الإحسان } أى : العطاء الخالص عن المن والأذى والرياء والسمعة ، إذ لا يحمد عليه إلا بذلك.
{ ما صاح } أى : غرد وغنى { طير} تنوينه للتعظيم { فوق غصن } أى شجر { البان } الشجر المعروف الطيب الرائحة ، أى : مدة ذلك، والمراد : التأييد.

{ وبعد } أصلها أما بعد، والأصل هو السنة النبوية ، ويؤتى بها انتقالًا من أسلوب إلى آخر، أى وبعد الصلاة والسلام على من ذكر.
{ فاعلم } أن المراد بالخطاب المريدون الصادقون الذين يتأتى منهم علم ما سيذكره من الآداب.

{ قد حباك الله } أى :أعطاك هذه الدرجة العظيمة { فى جنة الإحسان } أى : العطاء الذى لا نظير له.
وهى { أن تراه } أى : رؤيته التى لا نظير لها من غير كيف ولا حصر ولا جهة، معمول لحباك، وجملة قد حباك .. ألخ، معترضة بين اعلم، ومعموله هو :
{ أن السلوك } أى : السير.
{ فى طريق القوم } الخواص أهل الجد والإخلاص، أضافها إليهم ؛ لأنهم هم العاملون بها القائمون بأعبائها.

والمراد بالطريق : سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - التى هى أقواله، وأفعاله.
أى : ما جاء به من عند الله - عز وجل - من الأحكام الاعتقادية والعملية.
وبالسلوك : حبس النفس على ملازمة تلك الأحكام مع الجد والاجتهاد، والمحافظة على الآداب، والتخلى عن الرذائل، والتحلى بالفضائل.

{ صعب } أى : مشق لكثرة العقبات، ولكن { على نفوس أهل النوم } الكسالى الذين يأكلون كثيرًا، وينامون كثيرًا ، قد تمكنت منهم الغفلة حتى استصعبوها.

{ لكنه } أى : السلوك فى تلك العقبات { سهل } أى : لا مشقة فيه.
ولكن { على من قد مشى فيه } متوكلًا على الله - سبحانه وتعالى - مع ملازمة الآداب الآتية.
إذ ورد : لكل مجتهد نصيب مما اقترف.
وقد قيل : مَنْ جَدَّ وَجَدَ.

قال ابن الوردى :
لا تقل ذهبت أيامه * كل من سار على الدرب وصل

وقال ابن الفارض - قدس سره - :
وجُدَّ بسيفِ العزمِ سوفَ فإن تَجِدْ * نفسًا فالنَّفسُ إن جُدتَ جَدَّتِ

وتأمل ربك لم يزل كريمًا، وحاشاه أن يمنع الراجى مكارمه إن أخلص٠

{ وعن عينيه قد زال الغشا } بأن سَرَت فى فؤاده أنوار الهداية حتى قام لدى الأبواب يبغى لقاء الأحباب٠
وَإِذَا حَـلَّـتِ الْـهِـدَايَـةُ قَـلْـبـاً * نَـشِـطَـتْ لِـلْـعِـبَـادَةِ الأَعْـضَـاءُ٠

ثم لما كان أخذ العهد، والدخول فى هذه الطريقة من غير محافظة على الشروط، والآداب لم يفد شيئا٠

قال - رضى الله عنه - :
{ وليس كل من يكون أخذا عهدًا } عن أحد المشايخ المتصدرين للإرشاد٠
{ وللشروط أضحى نابذًا } أى : تاركًا وهاجرًا كما يُفعل، أه لهذا الزمان من الاتكال على مجرد النسبة٠

فإن هذا الشخص ليس { بسالك فى هذه المسالك } أى التى أثنى الله تعالى على أهلها، واختصهم بالمعارف واللطائف والأسرار والأنوار، حتى وصلتهم السعادة الأبدية، والفوز بالديار الجنانية٠

{و} ليس الشخص أيضًا { سائر } أى : متباعد { عن سائر } أى : عامة٠
{ المهالك } أى : الأمور المهلكة التى تلقى بصاحبها إلى النار، وتصيره إلى البوار بمخالفة الشريعة الغرا٠

{ ولا ينال } أى : لا يفوز ابدًا ولا يجرعه { من شراب اللاهج } وهو : المديم الجد والاجتهاد آناء الليل وأطراف النهار٠
والشرب : عبارة عن فيض المعارف والانوار والكشوفات عن غوامض الأسرار٠

قال سيدي عمر الشبراوى - رضى الله عنه - :
وأنواع الشراب الإلهية كثيرة لا حصر لها ، لإن لكل مقام درجات، ولكل درجة أهل، ولكل واحد منهم شرب معلوم٠

فشراب مقام المحبة مثًلا : ينوع لكل مُحب بحسب إنائه :
فمنهم من شرب شربة عن ظمأ، ومنهم من شرب شربة عن تلذذ، ومنهم من شرب نقطة سكر بها إلى الأبد، ومنهم من يكفيه القليل وإذا زيد عليه هلك، ومنهم من لا يرتوى بل يزيده الشرب التهابًا و ظمأ إلا إذا أدركت المُحب العناية الإلهية٠

وأما قول الحلاج : المحب لا يروى ، لا يعول عليه لأنه قاله فى حال دهشته٠

{ إلا فتى } وهو من آثر أمر ربه على هوى نفسه ، وقد سمى أصحاب الكهف فتية ؛ لأنهم آمنوا بالله بلا واسطة، وآثروا عبادة مولاهم على هواهم٠

{ سار } أى : مشى { بذي المناهج } أى : فيها٠
والمناهج : جمع منهج، وهو الطريق الواضحة المسلوكة٠
{ وإنما } ينال هذا الشراب نوعان من الأحباب٠

الأول : { من بالشروط قام } أى : حافظ عليها بألف الإطلاق، وهذا وصف المصنف به صاحب هذا الشراب٠

{و} الثانى : أن يكون { فى هوى حبيبه } وهو : الله تعالى { قد هام } كناية عن القيام بأداء العبودية له تعالى ، مع شدة الملازمة وعدم التهاون طرفة عين٠
والهوى خامس مقامات الإرادة٠

وذلك لأن للإرادة تسع مقامات :

المقام الأول " الميل " : وهو انجذاب القلب إلى مطلوبه٠
فإذا قوى ودام سمى " ولعًا " : وهو المظهر الثانى للإرادة٠

ثم إذا اشتد ودام سمى " صبابة " : وذلك إذا أخذ القلب فى الاسترسال فيمن يحب، فكأنه انصب الماء إذا أفرغ لا يجد بدًا من الإنصباب، وهو المظهر الثالث للإرادة٠

ثم إذا تفرغ له بالكلية وتمكن منه سمى " شغفًا " : وهو المظهر الرابع للإرادة٠
ثم إذا استحكم فى الفؤاد وأخذه عن الأشياء سمى " هوى " : وهو المظهر الخامس للإرادة٠

ثم إذا استولى على الجسد سمى " غرامًا " : وهو المظهر السادس للإرادة ٠

ثم إذا تمكن وزالت العلل الموجبة للميل سمى " حبًا " : وهو المظهر السابع للإرادة٠

ثم إذا هاج حتى كاد المحب يفنى عن نفسه سمى " ودًا " : وهو المظهر الثامن للارادة٠

ثم إذا طفح حتى أفنى المحب عن المحبوب سمى "عشقًا " : وفى هذا المقام يرى العاشق معشوقه فلا يعرفه ولا يصغى إليه٠
قيل عن مجنون ليلى إنها مرت عليه ذات يوم فدعته إليها لتحدثه، فقال لها إنى مشغول بليلى عنك٠

وهذا آخر مقامات الوصول والقرب ، وفيه ينكر معشوقه، ولا يبقى إلا العشق، حتى إن صاحبه ليشبه المجنون فهو فى أعلى المراتب المتقدمة ، ولذالك خص بشرب الشراب ومواصلة الأحباب٠

{و} الثالث : أن يكون قد { جاء } أى : أتى بالآداب الآتى بيانها.
{ والكمال } أى : أتى بها كاملة من دون ترك شىء منها أو إخلال به حال كونه.
{ يرجو } أى : يطلب مع الأخذ فى الأسباب { الرضا } أى : عدم السخط الصادر ذلك { من حضرة } أى : قرب ذى { الجمال } الذى هو وصف إلهى ينشأ عنه فى القلب بسط وأنس.

كناية عن تجلى المولى على العبد بهذه الصفة ؛ لأن المولى سبحانه وتعالي قريب مع رفعة شأنه وعظيم سلطانه ، فقربه تعالى ليس قرب مسافة، ولا مساحة لاستحالة ذلك عليه.

قال الأستاذ الشعرانى - قدس سره - فى " اليواقيت والجواهر " :
سألت شيخنا الخواص - رضى الله عنه - عن فلان قريب من الله أو بعيد عنه تعالى ، وهو تعالى أقرب إلى كل إنسان من حبل الوريد ؟
فقال - رضى الله عنه - :
القرب والعبد راجعان إلى شهود العبد فى نفسه، لا إلى الحق تعالى، فهو أمر إضافى لله تعالى ، فانظر بنظر الإيمان تجد الله فى كل شىء ، وعند كل شىء ، وقبل كل شىء ، وبعد كل شىء ، وفوق كل شى ء، وقريبًا من كل شىء ، ومحيطًا بكل شىء ، بقرب هو وصفه، بمحيطة هى نعته ، فهو منزه عن الظرفية والحدود.

وقال فى " شرح الدلائل " :
اعلم أن ما وقع فى كلامه تعالى من الظرفية ليست بزمانية ولا مكانية ، لأنها ليست من جهة الأكوان ، وإنما هى أمور ذوقية.

قال بعض العارفين : قرب العبد من الله تعالى كرامته له ، وبعده طرده وإهانته له ، لأن تدانى الذوات محال عليه تعالى ، وكذلك يستحيل عليه الحجاب.

وقال سيدي عمر الشبراوى - رضى الله تعالى عنه - :
واعلم أن الحق تعالى ليس محجوبًا ، وإنما المحجوب هو العبد عن النظر إلى الله تعالى، لأن المحجوب اسم مفعول، ولابد أن يكون الحجاب أعظم من المحجوب، ولا أعظم من الله تعالى ، بل ولا عظيم معه - سبحانه وتعالى - ، فعلم أن الحق لا يحجب، وإنما المحجوب هو العبد، فمن رق حجابه وطهرت نفسه من الغير كشف له الغيب.

{و} الرابع : أن يكون { جاد } أى : تكرم {ب} الشىء { الموجود } لشخص { الموجود} .
أى : لا يمنع ما فى يده كثر أو قل من أحد غنيًا أو فقيرًا ، قريبًا أو بعيدًا ، مادحًا أو قادحًا.
لأنه حيث كان المعطى من الله، والعطاء لله خالصًا من رياء وسمعة وغرض دنيوى ، فلا منع حينئذ.

والمراد : أن المريد الحقيقى وصفه الكرم بكل ما وجد معه إلى كل شخص من الخلائق، والإيثار على نفسه كذلك ، ومن كان بهذه المثابة فلا تشوف له إلى ما فى أيدى الناس قطعًا، ومن تخلص من رق الأغيار فقد اسعفته الأقدار.

{و} الخامس : أن يكون { ما تعدى قط } أى : تجاوز أبدا { للحدود } الشرعية فى الكرم وغيره ، إذ كل من حل نفسه من عقال الشرع هلك٠
والمراد : كونه ملازمًا للحدود الشرعية فى كل أمر من أموره، وفى كل وقت من أوقاته٠

{و} السادس : أن يكون قد { خاف ربه } فلا يرتكب أمرًا مما لا يحل، لأن المريد الخائف أقرب فى الترقى من غيره ، إذ الخوف يحمله على تحمل مشاق العبادة ، وترك فظائع المعاصى٠

{و} السابع أن يكون قد { جافى } أى: باعد { جنبيه عن المضاجع } ٠
أى : لم ينم عن طلب الوصال فى داجى الليال ، بل ترك مواطن الراحة، وقام على قدميه فى الأسحار ، يجد فى الطاعات ليلتحق بمن سار فى ركب السعادة٠

ينشد الحادي :
رفقًا على رمقى، وما أبقيت لى من جسمى المضنى، وقلبى المدنف٠

قال سبحانه وتعالى :
{ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ } ٠
{ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }

{و} الثامن : أن يكون قد { أَمَّ } أى : قصد { قربه } ٠
أى : المولى، بأن لم يكن مجتهدًا لرياء ، وسمعة ، وإقبال عليه ، أو جلب منفعة دنيوية أو أخروية، بل يكون خالصًا لوجه المولى - سبحانه وتعالى - لا غرض له إلَّا قربه٠

{و} التاسع : أن يكون قد ترك { الخلق } أى : المخلوقات، أى : الأكوان جميعها٠
{ وراء ظهره } فم ينظر إليها، لا يركن إلى مال ، ولا جاه ، ولا إلى طاعات، ولا إلى عبادات، ولا إلى كرامات ومكاشفات، بل يطلب حبيبه لذاته٠

{و} العاشر : أن يكون { ما التوى } أى : مال فى سيره { عن } قصده { حبه فى } مدة { دهره } : أى زمنه، إلى قصد شىء من الأكوان، فإنه متى مال إلى شىء فقد حرم الوقوف فى تلك الساحات القدسية٠

وإذا تأملت بفكرك ما تقدم من الشروط العشرة ، رأيت المصنف - قدس سره - قد رتب فى ذلك حسنًا، فإن من قام بالشروط تخلف فى قلبه الهيام بالمحبوب ، فيتأدب فى حضرته رجاء رضائه٠

ومتى كان فى درجة رجاء الرضاء منه ، هان عليه بذلك كل شىء فى طلبه، مع المحافظة على حدود المحبة خائفًا من هجره وبعاده ، المعقب ذلك طول المسير فيقصد القرب، وترك الخلق من أصدقاء وعذال ، ولم يلتفت لقيل وقال ، إذ مبنى هذه الطريقة على صحة العزم وشدة الحزم ، بل كل الأمور المرغوبة دنيوية وأخروية تتم بذلك٠

وهو المعبر عنه " بالهمَّة الصادقة " ولها علامتان :
الأولى حالية : وهى قطع اليقين بحصول المطلوب على التعيين.
الثانية فعلية : وهى أن تكون حركة صاحبها وسكناته جميعها مما يصلح لذلك الأمر الذى يقصده بهمته.

فإن لم يكن كذلك فلا يسمى صاحب همة ، بل هو صاحب آمال كاذبة ، وأماني خائبة ، فهو كمن يروم المملكة ولا يفارق المزبلة، وهذا لا يقع على مطلوبه ، ولا يظفر بمحبوبه ، لأنه كمن يطلب أن يكتب بلا قلم ولا مداد ولا معرفة بوضع الخط، فالمدار بمثابة قصد الهمَّة لشيء ، والقلم بمثابة اليقين بحصوله، ومعرفة وضع الخط بمثابة الأعمال الصالحة للأمر المقصود.

فمن لم يكن على هذا الوصف لايعرف ما هى الهمَّة ، إذ ليس لديه منها أثر، بخلاف من كانت أعماله مما يلائم ما يطلبه ، وخصوصًا إذا أخذ فيها بالجد والاجتهاد، فاسرع ما يكون لديه نيل المراد.

ولذا قال المصنف - رضى الله عنه - :
{ فذا } المريد الموصوف بالأوصاف العشرة المتقدمة { ينال } أى : يظفر ويحصل { للمنى } الذى يتمناه.
ويحصل { وللأمل } كحيل الرجاء، أى : ما يتمناه من لقاء الأحباب ولذيذ الخطاب وسعادة الأبد، واتساع المدد.

{و} حينئذ { علمه } الذى اكتسبه من تلك الفيوضات الربانية والتجليات الإحسانية. { يصلح } من أصلح ضد أفسد، أى : يصحح ويقوم ويسدد.
{ منه للعمل } أى : العمل الصادر منه.
ومتى كان بهذه المثابة فقد صفى من الباطن، وتنور وصلح ما كان منه تكدر، ففاز بمقام العارفين، ودرجات الواصلين، وسود بالسداد ، وبلغ المراد.

بدليل قوله زيادة في التوضيح على ما تقدم :
{ ومن يكن بهذة المثابة } وهى مبلغ جموم ماء البئر، ومجتمع الناس بعد تفرقهم.

والمصنف استعملها معنى الصفة الملازمة.
ومن يكن ملازمًا لهذه الصفات المتقدمة بحيث لا يبرح عنها { حقق } أى أوجب.
{ مولانا } جل ذكره، وتقدست أسماؤه، ولا إله غيره ، له { الاجابة } فى كل ما سأل فضلًا منه لا وجوبًا عليه ، إذ لا يضيع أجر عامل ، ولا يخيب قاصدًا ، ولا يرد سائلًا ، كيف وهو تعالى المتفضل على عباده.

ثم شرع المصنف - رضى الله عنه - فى بيان السبب الداعى له على تأليف هذا المتن الشريف، فقال :
{ ومذ رأيت } أى : علمت وأبصرت { السالكين } فى الطريق مع المحافظة على الآداب، والشوق إلى لقاء الأحباب بجد واجتهاد، و طول سهاد قد { قَلُّوا } ٠

حتى صاروا عند التحقيق في حكم المعدومين كما سيشير إلى ذلك، بل ولا يوجد إلا مُتَكِّل على مجرد النسبة ، وأن له أستاذ أو إنه منسوب إلى أحد أئمة هذا الشأن٠

{و} رأيت كذلك { المرشدين } للطلاب الساقين لهم من صفوة الشراب، الدالين على الله بالحجة البيضاء حُفَّاظ الشريعة الغراء { فى الخفا } الذى هو ضد العلانية٠

{ قد حلوا } أى : نزلوا ، كناية عن تسترهم عن رؤية الناس لهم ، وذلك ناشىء عن فساد عقائد أهل الزمان، والتهاون منهم بأهل العرفان ، فلا ترى معتقدًا أبدًا، ولا ترى إلا منتقدًا إن رأى حسنة دفنها ، وإن رأى سيئة أذاعها، وترك صاحبها سدى كأنه كان يدعى النبوة فزلَّ٠

وهذا من جهلهم بأحوال العارفين بالله تعالى، فصرت لا ترى فى هذا الزمان سوى الذين نبذوا الشرع وراء ظهورهم، يعظمون الغنى لغناه طمعًا فيما لديه من المال والجاه، لا يدرون من آداب الطريق شيئًا ، وإنما يظنون أنها رقص وصياح ونغمات طرب واهتزاز وتمايل من عجب٠

ولا يدرون أن الطريق جد واجتهاد وملازمة آداب وأوراد إلى غير ذلك، ولكن لا يحملنك ما تراه من كثرتهم، وتكالبهم على شهوتهم إلى الإياس من التحصيل على أهل الحقيقة والتحقيق والصفاء والتصديق٠

فإن الامة المحمدية لا تزال فى خير، وفيهم طائفة طاهرون لا يمسهم ضير ، وفيهم من إلى المعالى سبق وفى معاملة الله صدق٠

لما قال - عليه الصلاة و السلام - :
« فى كل قرن من أمتى سابقون »٠
فعليك بأهل الكتاب والسنة، وإياك وأهل البدع الذئاب، فإن كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله - صلى الله عليه وسلم - هما الباب لمن أراد الدخول فى حظائر القدس٠

ولم ينل أحد شيئًا من الفيوضات الربانية إلا بقدر تمسكه بالكتاب والسُنَّة ، ومن زاغ عنهما فقد ضل سبيل الهدى، ومال إلى طريق الردى٠

وقد أخذ المصنف - رضى الله عنه - فى بيان بعض أهل هذا الزمان مرتبًا على ما تقدم، فقال :
{ وضعف الطالب } أى : كَلَّت هَمَّة الصادق منهم فى طلبه لأهل الإرشاد المحققين٠
{و} ضعف أيضًا { المطلوب } لهذا الغرض الشريف كما تقدم بيانه، فلا مريد إذًا، ولا أستاذ٠

وحيث كان الأمر كذلك فقد حق أن يقول :
{ وعزَّت } أى : قلَّت فلا تكاد توجد { السقاة } جمع ساق٠
وهم : أساتذة الطريق الذين ارتوت حياضهم وقلوبهم بمياه العرفان الذي يرتوى منه كل ظمآن، إذ قد عزَّ هؤلاء السقاة الصادقون٠

فطبعًا بلا شك قد عَّز أيضا { المشروب } أى : الشراب، وهو عبارة عن فيوضات ربانية، وأسرار رحمانية، ومعارف علمية، وأنور سنية تقذف في قلوب أهل الطريق السالكين فيها، المحافظين على آدابها ، العاملين بمقتضى أصولها، وقوانينها، وقليلٌ ما هم٠
اللهم اجعلنا ومن نحب فيك يا ربنا ممن حليتهم بأنوارك، وأتحفتهم بأسرارك٠

ثم زاد فى هذا التوضيح بقوله :
{ وضعفت من المريدين } جمع مريد : وهم الطالبون السلوك إلى ملك الملوك، والمتمسكين بالأدب الكامل، والفضل الشامل و { الهمم } جمع همة : أى : الصادقة منها التى هى عبارة عن صرف المريد جميع حركاته وسكناته فيما يلازم المطلوب ، ويظهر له أسرار الغيوب٠

ثم ترقى فى نفى المريد الصادق بقوله :
{ بلى } أى : نعم ما قلته مما تقدم فهو الحق بل { وجود الصادقين } من المريدين والأشياخ٠
{ كالعدم } اي المعدوم كناية عن عزة وجودهم الغاية، و اما الذين ملؤا السهل والوعر، وأشبهوا الجراد المنتشر ، فقد وضح حالهم بقوله :

{ وقل منهم } أى : من هؤلاء الأوباش { من } أى الذى { لآداب } من آداب الصوفية أهل الكمال { درى } أى : علم ، والمراد : وعمل، وإلا فالعالم منهم بغير عمل كان كمن لا علم له٠

{ ل } أجل { ذاك } المتقدم أى : كونهم لا يدرون آداب السلوك { كان سيرهم } وسلوكهم فى هذه الطريقة الشرعية { إلى } جهة { ورا } أى : خلف ، أى : يرجعون القهقرى لأن هذا الطريق منزه عن سلوك مدنس أو ملبس أو غير٠

{و} هكذا { كل من لم يسلكن } بنون التوكيد فى هذا الطريق القويم، وهو غير متمسك٠ { بالأدب } أى : الآداب الآتى بيانها٠
{ فسيره } أى : سلوكه { أقرب } تقدمًا وميلًا وًانعطافا { نحو } أى : جهة { العطب }٠
أى : الهلاك٠

إذ كل من سار فى درب، ولم يتوق غوائلها لاشك هلك ، وهلاك هذا السائر بلا أدب ليس مقصورًا على الدنيا فقط بل والآخرة ، فإنه ربما عارضه شيطان فوسوس له بمضرة فاعتقدها وهو لا يعلم ضررها، فيهلك والعياذ بالله تعالى٠

ثم أكد ذلك بقوله :
{ فما } يا { أُخَىّ } بالتصغير لعذوبة اللفظ { فاز } أى : ظفر بالمقصود { من قد فازوا } من هذه الأمة الشريفة فى هذه الطريقة المنيفة { إلا } قدر { بما } أى : بشىء، بيَّنه بقوله :
{ من أدب } عظيم {قد حازوا } إذ كلما زاد الأدب علت الرتب فكتسابها بغيره محال٠

وحيث كان ذلك غير ممكن لما سبقت به إرادة الله تعالى أزلًا، نَبَهَ - سيدنا ومولانا وولى نعمتنا محمد - صلى الله عليه وسلم - على كمال أدبه بقوله - صلى الله عليه وسلم- :
{ أدبنى ربى } جل ذكره ، أى : علمنى الأدب { فأحسنْ } بسكون النون للضرورة، وإلا فهى فى الحديث مفتوحة { أدبى } أى : تأديبى٠
كقوله - سبحانه وتعالى - :
{ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ } ٠
وأمثال ذلك فى القرآن كثيرة جدًا٠

{ فسر} أى : اسلك { إذًا } أى : إذ علمت أنه - صلى الله عليه وسلم - ما كان غير مؤدب، بل كان فى أعلى طبقات المتأدبين٠

فاسلك { منهاج } أى : طريق هذا { المؤدب } يجوز أن يقرأ بكسر الدال ويكون مرادًا به المولى - سبحانه وتعالى - إذ هو المؤدِّب حقيقة، أو هو النبى - صلى الله عليه وسلم - ، إذ هو مُؤدِّب الأمَّة مباشرة٠
ويجوز أن يقرأ بالفتح وهو الأنسب للتشطير، ولا يحتمل إلا النبى - صلى الله عليه وسلم -٠

ومذ رأيت ما ذكر{ ف } قد { حَرَكَ } أى : نبه الإله المعبود بحق { منى همتى } طبقًا لما قدَّره فى سابق أزليته٠
ووفقنى { لنظم } أى : جمع { شمل هذه الارجوزة } من معارفى وفتوحاتى.
وسُميت أرجوزة : لأنها من الرجز أى : الأبحر الستة عشر٠

{ جمعت } أى : أحصيت { فيها بعض ما قد يلزم } المحافظة عليه من الآداب اللازمة٠
{ لسالكى } أى : داخلى وجائزى طريق { قوم قدموا } عند الله تعالى ففازوا بأنسه على بساط قدسه٠

{ سميتها } أى : الأرجوزة { ببلغة المريد}
البلغة : ما يتبلغ به من العيش، وأى عيش أعظم وأهنا وأفخر للمريد من آداب يصحبها ليبلغ بها غاية الشرف ، وكمال التحف من معارف وأسرار ولطائف وأنوار ويقظة يقين ومشاهدة تجليات رب العالمين٠

{ ومشتهى } أى : ما تشتهى وتميل إليه نفس كل { موفق } للخيرات ونيل الدرجات بعناية الله تعالى { سعيد } فى الدنيا بالفيض الرحمانى، وفى الآخرة بالجنة العالية ذات القطوف الدانية٠

الجزء الثانى : ويتحدث عن شروط وأصول الطريق٠

ثم إنه نبه السالك الطالب تعليم الآداب، فقال :
أيها الطالب المريد الصادق الْمُجِدُّ فى طلب الأحباب ، العاكف على حب الشراب، الملازم طرق الأبواب فى الأسحار لإقتباس الأنوار٠

{ إن تسل عن الشروط } أى : عن أصول الطريق، أى : أركانها التى عليها مدار السلوك التى لا غنى للمريد عنها ، التى جمعت غيرها مما هو مبسوط فى الكتب المطولة٠

{ اللازمة } أى : التى طلبها علي سبيل الإلزام، فلا انفكاك عنها بل هى واجبة فى نصوص القوم٠

{ على } أصحاب { نفوس }
النفس واحدة، وإنما تتعدد بالاعتبار عند علماء الحقيقة إذا ما دامت { فى المسير } إلى حضرة العلى القدير٠
{ عازمة } أى : مُجِدَّة بصدق نية، وخلوص طوية، وهمة عالية، ورغبة سامية٠

فلابد لها فى كل مقام مقال، وفى كل حالة أحوال ، وفى كل ذِكر حضور، وفى كل فكر شعور، إذ الحب نيران تلظى ، وطلب الوصال محال مع الإهمال، بل لابد من سهر ليال، وحط، وترحال، ، وزاد، وعُدَد، وطول مدد، إلى غير ذلك مما سيأتى بيانه، ويتضح تبيانه٠

فأول هذه الشروط { جوع }

هو ضد الشبع، وبه يتنور قلب المريد لأنه يتفرغ القلب به إلى الخيرات التى هى سبب التنوير٠
وقد ورد فى فضل ترك الأكل غير ما يعين على الطاعة آيات وأحاديث وآثار :
قال تعالى :
{ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ } ثم قال فى آخر الآية : { وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ }
فبشرهم بجميل الثواب على الصبر على مقاساة الجوع٠
وقال تعالى :
{ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ } ٠

وعن أنس بن مالك قال : جاءت فاطمة ـ رضى الله تعالى عنها ـ بكسرة خبز إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « ما هذه الكسرة يا فاطمة ؟ »
قالت : قرصًا خبزته فلم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة٠
فقال : « أَمَا إِنَّهُ أَوَّلُ طَعَامٍ دَخَلَ فَمُ أَبِيكِ مُنْذُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ »٠
وفى بعض الروايات :
جاءت فاطمة ـ رضى الله عنها ـ بقرص شعير٠

وروى الترمذى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال :
« ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان ولا بد فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه »٠

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ :
« إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ ، فَضَيِّقُوا مَجَارِيَهُ بِالْجُوعِ والعطش »٠
فإن الأجر فى ذلك كأجر المجاهد فى سبيل الله٠

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ :
« أفْضلُكُم عند الله منزلةً عنْد الله أطْولُكُم جُوعًا وتفكُرًا، وأبغضُكُم إلى الله كُلُ أكول نوامٍ أكُولٍ شرُوبٍ »

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الأعمال بالجوع ، وذل النفس لباس الصوف »٠

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب ، فإن القلب كالزرع يموت اذا كثر عليه الماء »٠

وقال ـ صلى الله عليه وسلم- : « جوعوا تصحوا »٠

ولهذا كان الجوع من صفات القوم ، وهو أحد أركان المجاهدة ، فإن أرباب السلوك تدرجوا إلى اعتياد الجوع والإمساك عن الأكل ، ووجدوا ينابيع الحكمة فى الجوع٠

قيل : كان سهل بن عبد الله لا يأكل الطعام إلا كل خمسة عشر يومًا ، فإذا دخل رمضان لا يأكل حتى يرى الهلال، وكان يفطر كل ليلة على الماء القراح٠

وقال يحى بن معاذ : لو أن الجوع يباع فى السوق لما كان ينبغى لطلاب الآخرة أن يشتروا غيره٠

وقال سهل بن عبد الله : لما خلق الله تعالى الدنيا جعل فى الشبع المعصية والجهل ، وجعل فى الجوع العلم والحكمة٠

وقال يحيى بن معاذ : الجوع للمريدين رياضة، وللتائبين تجربة، وللزهاد سياسة، وللعارفين مكرمة٠

وقال أبو عثمان المغربى : الربانى لا يأكل فى أربعين يومًا، والصمدانى لا يأكل فى ثمانين يومًا٠

وقال أبو سليمان الدارانى : مفتاح الدنيا الشبع، ومفتاح الآخرة الجوع، لأنه دائما يحرك إلى الطاعة٠

وقال يحى بن معاذ : الجوع نور، والشبع نار، والشهوة مثل الحطب يتولد منها الإحراق، ولا تطفأ ناره حتى يحرق صاحبه.

وقال أبو سليمان : لأن أترك من عشائى لقمة أحب إلى من أن أقوم الليل إلى آخره.

وسئل سهل بن عبد الله عن الرجل يأكل فى اليوم أكلة ؟ فقال : أكل الصديقين، قال : فأكلتين ؟
قال : اكل المومنين ، قال : فثلاثة ؟ قال : قل لأهلك يبنون لك معلفًا.
شبهه بالدواب التى لا همة لها إلا فى كثرة الأكل والشرب التى هى سبب قلة الفهم.

فقد بان لك مما تقدم من الآيات الشريفة، والأحاديث المنيفة، والآثار اللطيفة :
أن الجوع بركة الله ونوره يوفق إليه من يشاء من عباده ، وأن كثرة الأكل والشبع هى أصل كل بلية، ومصيبة، وقطيعة عن الله تعالى ؛ لأنه لا تخلو كثرة الأكل عن أن تكون : إما حرام، أو مشبوه، أو من فضول الحلال.

فأما الحرام والمشبوه فيلزمك تجنبه لثلاثة أمور :

أولها : حذار نار جنهم ، قال - عليه الصلاة والسلام - :
« كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به ».

الثانى : إن آكل الحرام والمشبوه مطرود لا يوفق للعبادة ، إذ لا يصلح لخدمة الله تعالى إلا طاهر مطهر ، فإن الله تعالى منع الجنب من دخول المسجد، والمحدث من مس المصحف، والجنابة والحدث أمر مباح، فكيف بمن هو منغمس فى قذر الحرام، ونجاسة السحت والشبهة.

والثالث : إن آكل الحرام والشبهة محروم من فعل الخير ، فإن فعل فهو مردود عليه غير مقبول منه.

قال - عليه الصلاة والسلام- : « كم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر ، وكم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والظمأ ».

وأما فضول الحلال فإنه آفة العباد، وبلية أهل الاجتهاد :

قال حجة الإسلام : ولقد تأملته فوجدت فيه عشر آفات هى أصول فى هذا الشأن :
الأولى : قسوة القلب، وذهاب نوره كما تقدم فى حديث :
« لا تميتوا القلوب بكثرة الأكل و الشرب »٠

والثانية : فتنة الأعضاء، وهيجانها، وانبعاثها للفضول والفساد، والجوع يسكنها ويهدئها فلا تطيح، ولا تنشط إلى شىء من ذلك٠

الثالثة : قلة الفهم والعلم ، فان البطنة تذهب الفطنة٠

الرابعة : قلة العبادة فإنه إذا أكثر الأكل ثقل بدنه، وغلبته عيناه، وفترت أعضاؤه فصار جيفة ملقاة٠

الخامسة : فقد حلاوة الطاعة، قال الدارانى :
أحلى ما تكون الطاعة إذا التصق ظهرى ببطنى٠

السادسة : خطر الوقوع فى الحرام والشبهة، قال - عليه الصلاة والسلام - :
« الحلال لا يأتيك إلا قوتًا، والحرام يأتيك جزافاً جزافاً »٠

السابعة : شغل البدن بتحصيله أولًا ، وبتهيئته ثانيًا، ثم بأكله ثالثًا، ثم بالفراغ منه عنه، والتخلص منه رابعًا، ثم بالسلامة منه خامسًا بمعالجة آفات البدن الناشئة عنه، وعلل الدين٠

الثامنة : ما يناله من شدة سكرات الموت، روى فى الأخبار :
إن شدة سكرات الموت قدر لذات الدنيا، فمن أَكْثر من هذه، أكثر له من تلك٠

التاسعة : نُقصان الثواب فى العقبى، فإنه بقدر ما يأخذ المرء من لذات الدنيا، بقدر ما ينقص له من لذات الآخرة٠

العاشرة : الحبس، والحساب، والتعيير فى ترك الأدب بأخذ الفضول فإن الدنيا حلالها حساب، ، وحرامها عقاب، وزينها إلى تباب٠
فهذه جملة العشرة وفى إحداها كفاية لمن ينظر لنفسه٠

فعليك أيها المريد المجتهد بالاحتياط البالغ فى القوت ، ولكن لا يحملك ذلك على ترك الأكل مرة واحدة حتى تضعف قوتك عن أداء الفرائض٠

بل المطلوب تقليل الأكل إلى حد الاعتدال، وذلك بأن لا تأكل حتى تجوع، وإذا أكلت لا تشبع ، فإن المطلوب عند القوم تقليل الأكل إلى الحالة الوسطى لا تركه ، وربما تعسر على بعض المريدين انقياد نفسه إلى هذا الحد فيلزمه حينئذ ظلمها، وهضم حقها المندوب لها حتى تنقاد، وترضى بما ذكر.
ثم يترقى فى تقليل أكله شيئًا فشيئًا إلى أن يخف عليها الحال، بأن ينقص من زاده كل يوم ربع درهم.

كما قال بعضهم : أدب المريد فى الأكل أن لا ينقص منه إلا بقدر أذن السنور (أى : القط) ، وكان بعضهم يزن أكله بغصن من الجميز، وينقصه بقدر نشفانه، فإذا أتم وزنه بغصن أخضر، وينقص منه بقدر نشفانه وهكذا.

وينبغى أن يكون جوع المريد صومًا شرعيًا لأنه منير العبادات، ومفتاح الطاعات.
قال - عليه الصلاة والسلام - : « الصيام جنة وحصن حصين من النار ».

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لكل شىء زكاة وزكاة الجسد الصوم ، والصيام نصف الصبر ».

وعن أبى أمامة الباهلى قال : قلت : يا رسول الله مرنى بعمل.
قال : « عليك بالصوم فإنه لا عدل له ».
وقال : « صمت الصائم تسبيح، ونومه عبادة، وذنبه مغفور، وعمله مضاعف ».

{ الأصل الثانى : من الأصول العالية الشأن فى طريق أهل العرفان { وصمت }

أى : سكوت عن الكلام مطلقًا للمريدين المبتدئين إلا لضرورة، قال تعالى :
{ لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ } ٠

وفى الخبر : سئل النبى - صلى الله عليه وسلم - : ما النجاة ؟
فقال : « فى حفظ اللسان »٠

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت »٠

عن عقبة بن عامر الجهنى، قال : قلت يا رسول الله ما النجاة ؟ قال :
« احفظ عليك لسانك وليسعك بيتك وأبكِ على خطيئتك »٠

والصمت على قسمين : صمت باللسان ، وصمت بالجنان :
وكم بين عبد صمت تصاونًا عن الكذب والغيبة، وبين عبد صمت لاستيلاء سلطان الهيبة عليه، والمتوكل يسكت قلبه عن تقاضى الأرزاق، والعارف يسكت قلبه مقابلة للحكم بنعت الوفاق، وربما يكون سبب الصمت حيرة البديهة فإنه إذا ورد كشف على وصف البغتة خرست العبارات عند ذلك فلا بيان، ولا نطق، و طمست الشهود هنالك فلا علم هنالك، ولا حس٠

فأما إيثار أرباب المجاهدة السكوت ، فَلِما علموا ما فى الكلام من الآفات ، ثم ما فيه من حظ النفس، واظهار صفات المدح، والميل إلى أن يميز بين اشكاله بحسن النطق، وغير ذلك من الآفات، وذلك نعت أرباب المجاهدات، وهو أحد أركانهم فى حكم المنازلة وتهزيب الخُلُق٠

فقد بان لك من هذه العبارة إن تأملت : أن الصمت على خمسة أحوال :
الأول : صمت المريدين ، تحفظًا من الحرام كالكذب والغيبة٠
الثانى : صمتهم عن المباح لما فيه من الآفات٠
الثالث : صمت المتوكلين عن تقاضى الأرزاق٠
الرابع : صمت العارفين فى مقابلة الأحكام الربانية بالاستسلام٠
الخامس : صمت الحيرة عند الكشف البديهى٠

الأصل الثالث من أصول هذه الطريقة { سهر }

وهو على قسمين :
سهر القلب : وهو تيقظه من نوم الغفلة، وقربه فى منازل المشاهدة٠
والثانى سهر العين : لتعمير الوقت، ولدوام الترقى فى المنازل العلية ، لأن بنوم العين يبطل عمل القلب٠

ففائدة السهر عمل القلب ، وهو ينشأ من فراغ المعدة من فضولات الطعام والشراب ، وهو يورث معرفة النفس، وينبغى أن يكون ذلك بالتهجد الذى هو صلاة بليل بعد نوملما فى ذلك من القيام فى الأسحار بين يدى العزيز الغفار، والتردى بحلل الأنوار، والفيض بالمعارف والأسرار، وإشراق الوجه بالنهار٠

ولذلك كان ركنًا فى المجاهدة ، وأصلًا فى المكابدة ، وسببًا فى المشاهدة، وقد جاء فى فضله من كتاب الله وسنة رسول الله ما يفوق الحد ، وينبو عن العد٠

فمن ذلك قوله - عز من قائل - :
{ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا }
{ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا }
{ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا } ٠

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ، وقربة إلى الله تعالى الله، ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات، ومطردة للداء عن الجسم٠

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « عليكم بصلاة الليل و لو ركعة واحدة »٠
وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ركعتان في جوف الليل يكفران السيئات والخطايا »٠

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ركعتان يركعهما ابن آدم فى جوف الليل الأخير خير له من الدنيا وما فيها ، ولولا أشق على أمتى لفرضتها عليهم »٠

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « أفضل الصلاة نصف الليل وقليلٌ فاعله »٠
وقال - صلى الله عليه وسلم - : « أحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود ، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وأحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه »٠

ومن فوائد القيام :

-١- فيه تحسين الوجه لما جاء عن سيد الأخيار : « من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار »٠

-٢- ومنها : أنه من فاته القيام لغلبة نوم كتب الله له أجر صلاته، وكان نومه عليه صدقة٠
لقوله - صلى الله عليه وسلم - : « ما من امرىء تكون له صلاة فى الليل فيغلبه عليها نوم إلا كتب الله له أجر صلاته ، وكان نومه عليه صدقة »٠

-٣- ومنها أن تنحل عن النائم فيه عقدة الشيطان الثلاث٠
قال -صلى الله عليه وسلم- : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نائم ثلاث عقد، يضرب على مكان كل عقدة عليك ليل طويل فارقُد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقدة فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان »٠

-٤- ومنها أنه ينجو من بول الشيطان فى أذنيه٠
فقد روى ابن مسعود - رضى الله عنه - أنه قال : ذكر عند النبى - صلى الله عليه وسلم - رجل، فقيل : مازال نائما حتى أصبح ماقام إلى الصلاة ، قال : « ذلك رجل بال الشيطان فى أذنيه٠

ولكن المريد أخذه على نفسه بالرفق واللين، ولا يحملها فوق طاقتها٠
قال - صلى الله عليه وسلم - : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة ربك، فإن المنبت لا أرضًا قطع ولاظهرًا أبقى »٠

وقال-صلي الله عليه وسلم - : « لاتكابدوا هذا الليل فإنكم تطيقونه وإذا نعس أحدكم فلينم على فراشه فإنه أسلم له »٠

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « خذوا من العبادة بقدر ما تطيقون، وإياكم أن يتعود أحدكم عبادة ثم يرجع عنها ، فليس شىء أشد على الله من أن يتعود الرجل العبادة ثم
يرجع عنها »٠

وعنه - صلى الله عليه وسلم- : « عليكم أيها الناس من العمل ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا، وإن أحب الاعمال إلى الله أدومها وإن قل »٠

وفى قوله - صلى الله عليه وسلم - لأبى ذر :
« يا أبا ذر إن لجسدك عليك حقًا ولأهلك عليك حقًا ولربك عليك حقًا فأعط لكل ذى حق حقه، فصم وأفطر، وقم ونم ، وأئت أهلك »٠ كفاية لكل عاقل فى طلب طريق الاقتصاد٠

وينبغى للمريد أن يقصد بنومه التقوى على الطاعة ، وكذلك بأكله وشربه، وبإتيان أهله غض

بصره عن المحارم لتصير بذلك العادات عبادات٠

كما قال الشاذلى - قدس سره - لأتباعه :
لا توقظونى من وردى، لأنه لما كان نومه بهذه النية كان من جملة الأوراد٠

الأصل الرابع { والاعتزال }

وفى نسخه ثم اعتزال ، أى : انفراد عن الخلق، وايثار مجالسة الحق٠
وهى من صفة أرباب الصفوة وأهل الوصلة ، ولابد للمريد فى إبتداء حاله من العزلة عن أبناء جنسه لأن بها تجتمع همته على مقصوده ، وانفراده بمحبوبه ، لتكمل مجاهدته، ويترقى فى درجات قربه٠

وحقيقة الخلوة : الانقطاع من الخلق إلى الحق، لأنه سفر من النفس إلى القلب، ومن القلب إلى الروح، ومن الروح إلى السر، ومن السر إلى واهب الكل٠

ومن حقها أن يعتقد بها سلامة الناس من شره لا سلامته من شرهم، لأن فى الأول استصغار نفسه، وفى الثانى رؤية مزية نفسه على الخلق، والأول تواضع، والثانى تكبر٠

ثم يجب عليه قبل العزلة أن يحصل من علوم الشرع ما يؤدى به فرضه ليكون بناء أمره على أساس متين ، إذ العزلة فى الحقيقة : اعتزال الأوصاف الذميمة٠

قال بعضهم لبعض : فارق نفسك بخطوة وقد حصل مقصودك٠
وقال أبو يزيد : رأيت ربى فى المنام فقلت : كيف أجدك ؟ قال : فارق نفسك وتعال٠

والعزلة باب الخلوة التى هى سر الجلوة ، ومعدن الصفوة٠
وحيث كان الامر كذلك وصلنا إلى هذا المقام ، فقد آن أن نتكلم عن الخلوة بما يلزم لها تتميمًا للفائدة، بما اعتمده رجال هذا المقام من كل بطل همام وهزبر ضرغام٠

فنقول :
اعلم أيها المريد السالك، والتلميذ الناسك المجد فى الطريق الطالب التحقيق الراجى وصل صفوة الشراب، ومشاهدة الأحباب :
إن من أراد العزلة بالخلوة لابد له من تقديم التباعد عن الناس ، ليحصل له فى الخلوة الإيناس، ويألف الوحدة والانفراد، ويستعد بتقواه إلى ورود الأمداد ، وليقلل الطعام والمنام، ولينو العزلة فى الخلوة عن الخلق طلبًا لقرب من أحب، ويحقق التوبة والإنابة إلى الله بالتضرع والخشوع ، ويفرغ باطنه من الغش والحسد والمكر والخديعة والرياء، ويربط محبة أستاذه ربطًا محكمًا حتى لا يصير فيه منفس لغيره من الخلق، ولو جاء بالعجب العجاب٠
* وهذا الاعتقاد أول باب مما يفتح الله به على المريد *

وبعد ذلك يكون قد استعد للخلوة فيدخلها ، وإلا فمتى كان فى قلبه ميل إلى الأغيار ومحل للآثار، فليخرج من العزلة فإنه متى دخلها قبل تكميله فلا بد من تكبيله، فإن لم يحكم العزلة لا يدخل الخلوة، ولا يحظى بالجلوة ، فالجلوة أثر العزلة، والعزلة أثر الهمة ، والهمة أثر التوفيق٠

فيدخلها بعد تنظيفها بالغسل والكنس، وتطييبها بالبخور كالجاوى والعنبر الخام، ويكون دخوله فيها بشروطها المعلومة عندهم فإنهم اشترطوا لها اربعة وعشرين شرطًا، وهى مفصلة بأحسن بيان، وعلى الله تعالى وحده حسن الختام٠

شروط العزلة :

الأول : أن يتعود السهر والذكر وخفة الأكل والعزلة لما تقدم حتى يتعود على ذلك٠
الثانى : أن يستأذن الشيخ فى دخولها، ولا يدخلها بلا إذن البتة ما دام فى حجر التربية٠ الثالث : أن يدخلها بنية حبس نفسه عن الناس ليريحهم من شره ، ويرتاح من شرهم٠
الرابع : أن يدخلها كما يدخل المسجد مُتعوذًا مُبسملًا مخلصًا لله تعالى٠
الخامس : أن يدخلها الشيخ قبله، ويركع فيها ركعتين تحية منه لأن ذلك يقرب الفتح على المريد٠

السادس : أن يعتقد إن الله ليس كمثله شيء لا تدركه الأبصار ، وإن الله لا يأمر بالفحشاء، ولا بترك العمل الصالح فى عموم إقامته ، ثم إن لاح له شيء فى خلوته، وقال : أنا الله وأنت وليى وحبيبى، أو قد أبحتك حضرتى فارحم نفسك من العناء والمشقة والتعب فلست أغضب عليك بعد هذا اليوم٠

فليعلم أن هذا الخطاب لا يخلو إما أن يكون من جهة من الجهات الستة، أو من غير جهة : فإن كان من جهة : فهو من الشيطان قطعًا فليتعوذ بالله، وليتحصن بالذكر والإخلاص وقراءة القرآن إن كان قارئًا٠

وإن كان من غير جهة : فهو من الحق سبحانه وتعالى، لكن لا يخلو أن يكون إما من باب المكر والطرد منه تعالي ؛ كما قال تعالى :
{ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ }

وإما أن يكون من باب الرضا الدائم ، كما وقع لأهل بدر من قوله تعالى :
{ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ } ٠
فعلم بالضرورة أنهم لم يتركوا فرضًا، ولا نفلًا، ولم يخرجوا عن حكم شرعى بعد ذلك٠

وعلامة الثانى : أن يصحبه الحفظ، والأنس بالله تعالى٠
والأول : يصحبه الميل إلى الراحات، والشهوات النفسانية، فتسعيذ بالله من الله٠
كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أعوذ بك منك »٠

ويتحفظ من الأول بدليل الإعتقاد العلمى الإيمانى، كقوله تعالى :
{ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } فإن الشيطان ينصرف عنه خائبًا، وينجو منه٠

ولا بد أن يشغل نفسه بالأعمال الصالحة ؛ لأن النفس دائمة الاشتغال إن لم تشغلها بالطاعة أشغلتك بالمعصية.

السابع : أن لا يعلق نفسه بكرامات ولو عرضت عليه بأنوارها ، فإنها أعراض كونية والمطلوب أمامه، ولكن يقبلها من الله بحسن الأدب، ولا يقف معها، وليقل رب زدنى علما.

الثامن : أن لا يستند إلى جدار، ولا يتكئ على فراش، ويكون مطرقًا رأسه مغمضًا عينيه.

التاسع : أن يشتغل قلبه مراعيًا خواطره بالنفى عن قلبه، مراقبًا لربه مستحضرًا جلوسه بين يديه ، لقوله تعالى فى الحديث القدسى : [أنا جليس من ذكرنى].

العاشر : أن تكون الخلوة مظلمة لا يدخلها شعاع الشمس ، وينبغى أن يكون ارتفاعها قدر قامته، وطولها قدر سجوده، وعرضها قدر جلوسه ، ليس فيها نقب ولا كوة، وبابها جهة القبلة بعيد من أصوات الناس ، قصير وثيق الغلق، ولتكن فى دار معمورة بالناس ، وإن أمكن أن يبيت أحد عنده بحيث يكون قريبًا من باب الخلوة كان أحسن بشرط أن لا يكثر الحركة والهرج لئلا يشغل قلبه ، وكذلك لا يكثر الحركة هو بنفسه.

الحادى عشر : الصوم مع تقليل الأكل عند الفطر، وعليه تقليل الماء حسب الجهد والطاقة، فإنه مما يقلل الأجزاء الهوائية والنارية فيصفو قلبه بذلك.

الثاني عشر : دوام الوضوء فإنه نور ظاهر مع دوام استقبال القبلة .

الثالث عشر : السكوت إلا عن ذكر الله أو ما دعت إليه الضرورة الشرعية ، وما عدا ذلك محبط للعمل مذهب لنور القلب، وتقدم ما فيه.

الرابع عشر : إذا خرج من خلوته يخرج مطرقًا رأسه غير ناظر لشىء إلا لحاجة ، فإن فضول النظر كفضول الأكل فى الكراهة عندهم ، مغطيًا رأسه بشىء مستدريًا من الهواء لئلا يصيبه وأعضاؤه مخلخلة من الذكر .

الخامس عشر : المحافظة على الجمعة والجماعة، فإن المراد الاعظم من الخلوة عند القوم متابعة النبى - صلى الله عليه وسلم - ، وفى ترك ذلك خلل عظيم فى المتابعة حيث كان فى المسجد الذي يصلى فيه وتقام فيه الجماعة، أو يقتدى بشخص وهو داخل الخلوة وهو يراه، ويفتح الباب إلا أن يغلب عليه الحال ويستولى ، فإن استولى عليه الحال فالحكم له، ولا يجلس مع الناس بعد الصلاة، ويصلى الرواتب فى خلوته.

السادس عشر : المحافظة على الأمر الأوسط بين الجوع والشبع، ومما ينبغى له إذا جاء وقت الفطر، ولم يجد نفسه تائقة للأكل والشرب أن يفطر على زبيبة أو لوزة أو جرعة ماء، لأن تعجيل الفطر سنة ، وليقم إلى الصلاة فإذا أتمها بآدابها فليحضر بعد ذلك ما أعده لغذائه فيها ، وإذا كان عنده من يخدمه فليجعل ذلك شربة أرز، ولا يجعل فيها ملحًا إلا إذا كان بحيث لا تظهر ملوحته للذائق، وليكن الذى يأكله من الشعير أو البر من غير ملح فيه، هذا إن لم يحصل به مشقة بتأخير العشاء ، وإلا قدمه، وشرط بعض الشيوخ أن يكون طعام المختلى دسمًا لم ينفصل عن حيوان.

السابع عشر : أن لا ينام إلا عن غلبة نوم ، وحد الغلبة أن يتشوش عليه الذكر ، ولا ينام لراحة البدن ، بل إن قدر أن لا يضع جنبه على الأرض وينام جالسًا فعل، فإن النوم ينمى الرطوبة ، وبنمو الرطوبة تشتغل الأجزاء الترابية فيتكدر صفو القلب ، وتتكدر الروح عن الترقى فى الملكوت ، فلا يحصل له نتيجة الخلوة.

الثامن عشر : نفى الخواطر كلها خيرًا كانت أو شرًا ، لأن الخواطر تفرق القلب عن الجمعية الحاصلة بالذكر ، إلا أن يبلغ درجة التمييز فإنه عند ذلك ينف ما يجب نفيه ويبقى ما يجب بقاؤه ، وإنما المريد فى الابتداء ينفيها كلها لأنه دخيل فى الطريق ، لا تمييز له فى الخواطر ، وسيأتى ذلك تفصيلًا عند ذكر المتن له.

التاسع عشر : ربط قلبه بالشيخ المسلك الكامل الناجح الفالح الذى سلوكه على الكتاب والسنة شرعي حقيقى، وعلى المريد استفادة علم الوقائع منه على وجه التسليم، فإنه باب المريد الذى يدخل منه على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ هو خليفته ، ولذلك تجب رعايته بالظاهر والباطن على الوجه الأكمل ، وسيأتي زيادة توضيح.

العشرون : أن لا يفتح باب الخلوة لطارق يطرق عليه إلا لشيخه ، ويرد الجواب بآية من القرآن إن أمكنه ، وأن لا يكلمه إلا بكلمة ولا يزيد ويقصد بها الذكر ، ولا يتكلم إلا معه مدة الخلوة ، فإن الكلام يفسد عليه خلوته ، فإذا أقام الشيخ عليه خادمًا فلا يزيد فى الكلام علي الحاجة من أربع كَلِم إلى ثلاثة إلى اثنين إلى واحدة، فإن الكلام مفسده وتفريق للجمعية.

الحادى والعشرون : إذا رأى شيئًا فى الواقعة فلا يستحسنه ، ولا يطلب من الشيخ تأوليه، إذ ربما لا يرى الشيخ مصلحة فى التأويل ، ولا يكتم من الشيخ واقعة لحسنها أو لقبحها فإنه يكون خائنًا والله لا يحب الخائنين.
فإن قال له الشيخ هذا نفسى أو هذا شيطانى أو غير ذلك، وجب عليه اعتماده ما لم يصل إلى الذوق ، فإن وصل وذاق الخاطر وعرفه وميزه عن غيره ، وحسن الفرق بين الشهد والحنظل فلا بأس باعتماده على معرفته.

وأما معرفته لذلك بالعبارات فتصعب نوع صعوبة فلهذا نسب مبدأ هذا الأمر إلى منتهاه ، فإن مبدأه مرض ومنتهاه صحة ، فإن القلب ذو أمراض فى الابتداء فإن داواه الشيخ الحاذق اللبيب الناجح الفالح المسلك صح وصار سليمًا سالكًا، فإذا صح القلب وسلم ذوقه سلمت الأتباع من الشبهة.

الثانى والعشرون : دوام الذكر، وهو " لا إله إلا الله " كما اختاره الجنيد وجماعة، و" الله " على ما اختاره بعض المتأخرين.

وقال الشيخ دمرداش : إن الذكر فى الخلوة يكون بما يعطيه الشيخ للمريد حسب ما يراه.
وقال بعضهم : المبتدئ " لا إله إلا الله " والمنتهى " الله ".
وقال بعضهم : التحقيق إن ذلك راجع إلى الذاكر فإن وجد التأثير فى قلبه ب " لا إله إلا الله " لزمه وأكثر منه ، وإن وجد التأثر ب " الله " لزمه وأكثر منه.

الثالث و العشرون : الإخلاص وهو : حسم مادة الرياء والشرك الخفى لأن ذلك محبط للعمل.
قال تعالى :
{ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا }

الرابع والعشرون : أن لا يعين مدة الخلوة فلا يحدث نفسه بالخروج منها إلا بعد الأربعين، فإن حدث نفسه فقد خرج فى اليوم الذى دخل فيه، ولكن يحدثها بأنها قبرها إلى يوم القيامة، وهذا دقيق لا يتنبه له إلا البالغون ، ويستأنس بذكر الله - عز وجل - ثم لا يزال مستأنسًا بالخلوة والذكر حتى تنقطع عنه الأضداد ، ثم يأخذ من هنا فى بداية الخلوة الحقيقية المعنوية ، فيكون بصورته مع الأغيار، وبمعناه مع الله - عز وجل -.

فهذه الشروط مما يجب على المريد حفظها ومعرفتها ليعرف ما يطلب منه، وما يجب عليه التحرز عنه، والله أعلم.

ولنرجع إلى ما نحن بصدده فنقول :
{و} الأصل الخامس { الذكر }

هو تكرار اسم من أسمائه تعالى حالة كونه { دائما } أى مديمًا { له } أى للذكر ، لأن الله تعالى لم يقيده بزمن، بل أوجبه علينا { فى كل حال } من قيام وقعود واضطجاع (أى : استلقاء)، وسر وجهر وحضر وسفر وحل وترحال، وغير ذلك من الأحوال للإنسان٠
قال تعالى :
{ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ }
{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ }
{ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ }
{ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ }
{ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ }
{ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ }
{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }
وغير ذلك من الآيات البينات٠

قال ابن عباس : لم يفرض الله تعالى على عباده فريضة إلا جعل لها حدًا معلوماً، وعذر أهلها عند العذر، إلا الذكر فإنه لم يجعل له حدًا ينتهى إليه، ولم يعذر أهله فى تركه إلَّا مغلوبًا على عقولهم إذ أمرهم به بالليل ، والبر والبحر، والصحة والسقم، والسر والعلانية، والأمن والخوف بالقلب وباللسان، إلى غير ذلك٠

وفى الحديث القدسى : [أنا عند ظن عبدي بى وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير من ملئِهِ]
وفى رواية : يقول الله - عز وجل - : [أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه]
وفى رواية : [يا أبن آدم إن ذكرتنى فى نفسك ذكرتك فى نفسى، وإن ذكرتنى فى ملأ ذكرتك فى ملأ خير منه]٠

وفى رواية جاء أعرابى إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : « يا رسول الله ! أى الأعمال أفضل ؟ قال : أن تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله »٠

وقال -صلى اللله عليه وسلم - : « من أحب أن يرتع فى رياض الجنة فليكثر من ذكر الله»٠
وقال - صلى الله عليه وسلم - : « سبق المفردون، قالوا : وما المفردون ؟
قال : الذاكرون الله كثيرا والذاكرات »٠

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - يذكر الله على كل أحيانه٠

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم، وخير من إعطاء الذهب والورق، وأن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ، قالوا ما ذلك يا رسول الله ؟ قال : ذكر الله تعالى »٠

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض الله الله »٠

ولذلك كان الذكر ركنًا قويًا فى طريق الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بل هو العمدة فى هذا الطريق ، ولا يصل أحد إلى الله تعالى إلا بدوام الذكر ٠

والذكر على ضربين ، ذكر اللسان وذكر القلب، فذكر اللسان به يصل العبد إلى استدامة ذكر القلب، والتأثير لذكر القلب فإذا كان العبد ذاكرًا بلسانه وقلبه فهو الكامل فى وصفه فى حال سلوكه٠

قال أبو على الدقاق : الذكر منشور الولاية ، فمن أُعطى الذكر فقد أُعطى المنشور، ومن سُلِبَ الذكر فقد عُزِل٠

وقيل ذكر الله بالقلب سيف المريدين به يقاتلون به أعداءهم، وبه يدفعون الآفات التى تقصدهم، وأن البلاء إذا أظل العبد فتفرغ إلى الله بقلبه ، يحيد عنه فى الحال كل ما يكره٠

وقال أبو عثمان : من لم يذق طعم وحشة الغفلة لم يجد طعم الأنس بالذكر ٠

وقال ذو النون المصرى : من ذكر الله تعالى ذكرًا على الحقيقة نسى فى جنب ذكره كل شىء، وحفظ الله عليه كل شىء، وكان له عوضًا عن كل شىء ٠
وسيأتى إن شاء الله لطائف فى هذا المعنى٠

وحيث علمت فضل الذكر وأهله، وما ينشأ عنه، فلازم أخى عليه تنجى من الأهوال وتصير من الأبدال٠

ولكن لا ينبغى أن ترتع بلا حد، أو تجنى بلا ثمر فإن ذلك يورث الهلاك والزلل ، ويضيع ثمار العمل، بل يلازم ذلك ولكن { بما له } أى : بالذكر الذى لذلك المريد { الشيخ } المرشد المسلك الفالح الناجح { أخى لقنا } أى : أفاد وأفهم وعلَّم وأرشد٠

وسند القوم فى أخد العهد ، قوله تعالى :
{ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ }
وقد ثبت من فعله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شروط كمال الشيخ وانقياد المريد له ، ووجود التسليك٠

وسندهم في التلقين ما رواه الطبرانى والبزار وغيرهما :
أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقن أصحابه كلمة " لا إله إلا الله " جماعة وفرادى ، بعد أن سبق تكرارها منهم مُذْ أسلموا إلى ذلك الوقت٠

فأما تلقينه لأصحابه ـ صلى الله عليه وسلم ـ جماعة :
فقد قال شداد بن أوس ـ رضى الله عنه ـ : « كنا عند النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فقال : هل فيكم غريب يعنى من أهل الكتاب ؟ قلنا : لا يا رسول الله ، فأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم- بغلق الباب، وقال : ارفعوا ايديكم وقولوا : لا إله إلا الله ، فرفعنا أيدينا وقلنا : لا إله إلا الله ، ثم قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أبشروا قد غفر الله لكم »٠

وأما تلقينه ـصلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه فرادى :
فقد قال سيدنا علىٍّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنه وكرم الله وجهه ـ :
« سألت رسول الله- صلى الله عليه وسلم ـ ، فقلت : يا رسول الله دلنى على أقرب الطرق إلى الله ـ عز وجل ـ وأسهلها على عباده وأفضلها عند الله ؟
فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :
يا علىّ أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله ، ولو أن أهل السماوات والأرض السبع فى كفة ، ولا إله إلا الله فى كفة لرجحت لا إله إلا الله٠
ثم قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول : الله الله٠
ثم قال علىّ -رضى الله عنه ـ : كيف أذكر يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : غمض عينيك واسمع منى " لا إله إلا الله " ثلاث مرات، ثم قل " لا إله إلا الله " ثلاث مرات وأنا أسمع »٠

هذا أصل سند القوم فى التلقين ، وإنما أمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بغلق الباب إشارة إلى أن طريق القوم مبنية على السر وصفاء الوقت ، وأنه لا ينبغى أن يذكر شىء منه بحضرة من ليس منهم ولا يعتقد فيهم٠

واعلم أن من فوائد التلقين :
ارتباط القلوب بعضها ببعض إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ثم إلى الله ـ عز وجل ـ٠
وأقل ما يحصل للمريد الصادق إذا دخل سلسلة القوم بالتلقين أن يكون إذا حرك حلقة نفسه تجاوبه أرواح الأولياء من شيخه إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى حضرة الله عز وجل٠
فمن لم يدخل فى طريقهم بالتلقين فهو غير معدود منهم، وإذا تحرك لا يجيبه أحد فليدم على الأولى٠

{ عسى } فإنه إن دخل الطريق بهذه الكيفية، ودام على تلك الصفات السنية، وحافظ على هذه الأصول العلية، والشروط القوية٠
يرجى { من المذكور } جل شأنه فضلًا منه { أن يعطى } ذلك الذاكر { المنى } أى : ما يتمناه من مقامات الرجال، ودرجات الأبطال٠

ثم علل ذلك بقوله { فأنفع } أى : أشد { الذكر } نفعًا وتأثيرًا فى القلب، وترقيًا فى المقامات.
{ لكل } مريد داخل فى الطريق { مبتدى } أى : قريب عهد فى الدخول.
{ ما } أى : ذكر { أمر } أى : أذن { الشيخ } المتقدم ذكره ووصفه { به } من الأذكار.

{ للمقتدى } به فى سلوك هذه الطريقة، فإنه حكيم قلبه يعالج أمراضه بما يراه صالحًا لنفى كل داء مبعد عن الله تعالى ، إذ هو الأمين على القلوب الناصح للأمة الذى لا ينبغى الحياد عنه ولا بقدر شعرة ، ليكون جاذبًا قلب المريد إلى الفيض والإحسان.

الأصل السادس { نفى } أى طرد { خاطر }

عن قلبه ، والتنوين للتنويع، أى : أنواع الخواطر كلها إذ المبتدى كما تقدم ضعيف لا يفرق بينها ، والخواطر خطاب يرد على الضمائر، فقد يكون بإلقاء مَلَك، وقد يكون بإلقاء الشيطان، ويكون أحاديث النفس، ويكون من قبل الحق - سبحانه وتعالى -٠

ووفاء بسابق الوعد نقول :
إذا كان من المَلَكْ : فهو الإلهام٠
وإذا كان من قبل النفس : قيل له الهواجس٠
وإذا كان من قبل الشيطان : قيل له الوسواس٠
وإذاكان من قبل الله - سبحانه وتعالى - وإلقائه فى القلب : فهو خاطر حق٠

وجملة ذلك من قبيل الكلام :
فإذا كان من قبل المَلَك : فإنما يعلم صدقه بموافقة العلم٠
ولذا قالوا : كل خاطر لا يشهد له ظاهر فهو باطل٠
وإذا كان من قبل الشيطان ، فأكثره ما يدعو إلى المعاصى٠
وإذا كان من قبل النفس : فأكثره ما يدعو إلى اتباع شهوة ، أو استشعار كِبر ، وما هو من خصائص أوصاف النفس٠

وتوضيح ذلك أن الوارد على الضمائر من الخواطر فى اليوم والليلة اثنان وسبعون ألف خاطر ، منحصرة فى خمسة خواطر أمهات ؛ لأنها تارة بإلقاء الحق تعالى ، وتارة بإلقاء المَلَك ، وتارة بإلقاء القلب، وأخرى بإلقاء الشيطان، ويكون بإلقاء النفس٠

فإن كان من قبل الله تعالى : سمى خطابًا٠
وإن كان من قبل الملك : يسمى إلهامًا٠
وإن كان من قبل القلب : يسمى هاتفًا٠
وإن كان من قبل الشيطان : يسمى وسواسًا٠
وإن كان من قبل النفس : يسمى هاجسًا٠

فكل ما فيه قربه فهو من الثانى والثالث، وكل ما فيه مخالفة وموافقة معلولة فهو من الرابع والخامس، ولكل واحد من الأربعة علامة تميزه عن الآخر٠

فينبغى إذا خطر له الخاطر أن ينظر إلى ما يعقبه :
فإن أعقبه برد ولذة وسرور، ولم يجد له ألمًا ولا ضررًا، ولم يغير له صورة (فهو الملكى) وينزل علمًا وفهمًا.

وإن أعقبه تشويش فى الأعضاء، ووجع وألم وضيق (كان من الشيطان) وينزل تخبطًا.

وأما إذا أعقبه ألم فى القلب، وضيق فى الصدر، وفى النفس تكرار (كان من النفس) لأن النفس إذا طلبت شيئًا من شهواتها ألحت فى طلبه ، فقد شبهوها بالطفل الصغير إذا أخذت منه شيئًا فإنه لا يزال يبكى حتى ترد إليه ما أخذته، بخلاف الشيطان فإن مقصوده الإغواء بأى وجه كان.

وأما إذا كان له على القلب صولة، ولا للنفس صولة، ولا للشيطان معه بحال، ولا للملك عليه اعتراض ، ولا يرد بأمر أو نهى، ولا يندفع بالدفع (فهو الأول).
فإن له على القلب حكمًا كالسبع الضارى على الفريسة الضعيفة ، لكن هذا الفرق يحتاج إلى صفاء قلب وسريرة.

وبعضهم فرق بأن :
إذا كان الخاطر من قبل الله تعالى يكون تنبيهًا للعبد، وإيقاظًا له.
وإن كان من المَلَك يكون تحريضًا من قِبَل الله تعالى على العبادة.
وإن كان من جهة القلب وافق المَلَكْ.
وإن كان من جهة الشيطان يكون تزيينًا لمعصية ، وربما يدعوه الشيطان إلى عبادة ويحضه عليها، أو على ذكر آخر، أو على شهوة ، فيشتبه بالنفس والملك.

وإنما الفرق بينهما بأن الخاطر الملكى يتولد منه السكون ، والشيطان يعقبه الوحشة والثقالة، والنفس تلح فى الطلب وتبالغ، ولا تقبل البدل كما تقدم، فلا ينتفى هذا الخاطر إلا بنفى تام، وجَدٌّ بليغ، وأجمع الأشياخ على أن النفس لا تصدق فى إلقائها، وأن القلب لا يكذب .

ثم اعلم أن المريد فى بدء أمره لا يفرق بين الخواطر ، والتفريق بالعبارة صعب كما تقدم، وربما غلط فجره ذلك إلى الحتف المهلك ، فيلزمه حينئذ أن يذكر ذلك لشيخه، ولو تكرر ذلك منه لأنه طبيبه وقائده إلى مراشده.

كما قال المصنف { وما قد كررا } على قلبك من تلك الخواطر { فاذكره للشيخ } بدون طلب تأويل فهو المرشد لك.
{ وكن } أيها المريد فى عرض خواطرك عليه { محررًا } أى : منقحًا بحيث لا تغفل عن قليل منها ولا كثير فتغش نفسك ، فإن قصرت فلا تلومن إلا نفسك.

والأصل السابع { دوام طهر }

أى : طهارة تامة ظاهرة من الحدثين الأكبر والأصغر ، وباطنة كنفى كل ما أبى الشرع الشريف، وقد ورد الوضوء سلاح المؤمن ، وهى نور ظاهر كما تقدم ، فإن نام فهو فى حفظ الله وذمته، وإن قام فهو فى حضور قلب وتوارد أنوار وتقدم٠

الأصل الثامن { ربط قلب المقتدى بالشيخ }

فإن هذا الشرط من أهم الشروط عندهم إذ لا ترقى للمريد إلا بذلك، ولو أتى من العبادة بمثل أعمال أهل الأرض، إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط٠

ولذا علل المصنف على ذلك بقوله :
{ عله } سبب { بذاك } الربط إلى سلوك هذ الطريق العزيز أهلها { يهتدي } ٠
أى : يستدل ويُرشد٠

ثم فسر الربط بقوله :
{ والربط } المتقدم ذكره { معناه } أى : حقيقته الموضوع لها مصورة عند علماء الطريق٠
{ بأن يراقبا للشيخ } والمراقبة : الملاحظة ، وذلك فى جميع حالاته من ذكر وفكر وخلوة ونوم ويقظة وسفر وحضر وبيع وشراء وقول وفعل وليل ونهارإلى غير ذلك٠

وإنما شرطوا مراقبة الأستاذ فى الأحوال المتقدمة ل { كى للقلب } أى : قلب المريد٠
{ يغدو } يصير { جاذبًا } إلى عالم الملكوت، ثم إلى حضرة الحى الذى لا يموت٠

{ فهذه الشروط } المراد بها : الأصول التى بنى عليها السلوك { الثمانية } المتقدمة مع التوضيح التام { تنجو } أى : تخلص { بها } إن شاء الله تعالى إن دمت على العمل بها { من شر } بغى { نفس جانية } أى : جارة إلى المهالك٠

قال ـ صلى الله عليه وسلم : « أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك »٠
وكفاك فى عداوتها شهادة الصادق المصدوق الذى ما نطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى، فسبحان مَنْ مَنَّ علينا بهذا النبى الكريم سيدنا ومولانا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ٠

ثم اعلم أن عد المصنف ـ رضى الله تعالى عنه ـ لها ثمانية ، هو المذهب الصواب فإن من زاد عنها لو تأملت الزائد رأيته يرجع إليها فى المعنى ، ومن نقص فقد رأى غير هذا الرأى ، وتكرار المذاهب مع التفصيل لا يليق هنا، وفى هذا القدر كفاية لكل موفق سعيد٠

الجزء الثالث : ويتحدث عن آداب الطريق

ثم إن المصنف بعد أن عدد الشروط شرع يتكلم عن الآداب، فقال :
{ وإن ترد } أيها المريد الصادق فى إرادته، المُجِّد فى بدايته٠
{ آدابها } أى : تلك الطريقة المنيفة والمناهل الشريفة٠

والآداب : ما يتأدب به المريد فى بدايته { فإنها } أى : تلك الآداب { كثيرة } جدًا لا حصر لها فيما قالوه ونعلمه، لأن لكل مقام آداب ،ولكل حال أحوال، ولكن يدرك ذلك بالذوق وعناية الله - سبحانه وتعالى -٠
ولذا قال :
{ يعقلها } أى : يدركها { أولوا النُّهَى } أى :
أصحاب العقول الصافية من رجز الآثار والتطلع للأغيار ، ولكنهم وضحوا طرفًا من آداب المريد المبتدى ليكون على بصيرة فى سلوكه إلى أن يفتح له بما لم يعلم٠

كما قال الله تعالى : { وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ } ٠
وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم »٠

ثم إنهم قسموا تلك الآداب على ثلاثة أقسام :
قسم مع شيخه ، وقسم مع إخوانه ، وقسم فى نفسه٠
وبعضهم زاد قسمًا رابعًا وهو أدبه مع العامة ، وسنذكر إن شاء الله تعالى طرفًا من هذا الرابع بعد تتميم ما تكلم عنه المصنف، والله المستعان٠

وقد شرع المصنف - رضى الله عنه - فى التقسيم بقوله :
{ على ثلاثة ضروب } أى : أصناف تلك الآداب تعتمد على ثلاثة أشكال٠
{ أتت } أى : وصلت إلينا بطريق الرواية والأخذ { عن سادة } جمع سائد، وهم الكرماء الحلماء أهل الصفا٠
الذين { وفاؤهم } أى : إتيانهم بالأعمال الصافية التامة وفاء بالعهد القديم٠
{ لقد ثبت } فلم يقبل الطعن فيه إلا ممن عميت بصيرته وساءت سريرته٠

القسم الأول : منها ما يتأدب به المريد { مع } الأستاذ { المربى } من التربية٠
وهى التنمية شيئًا فشيئًا إلى الكمال٠

{ ثم } يتلوه القسم الثانى : {و} هو ما يتأدب المريد به مع { الإخوان أيضًا } ٠
جمع أخ ، والمراد بهم هنا :
الإخوان الداخلون تحت الأخوة الخاصة بالمواثيق والعهود ، ويلزم كل من كان داخلًا مع آخر فى عهد، أن يعينه بحاله وماله ليُنهض الأعلى منهم الأدنى الضعيف٠

وإذا آخى الشيخ بين اثنين منهم على الخصوص تأكد ذلك عليهما ، وقد ثبت أنه - صلى الله عليه وسلم - آخى بين كثير من أصحابه ؛ فآخى بين الشيخين - رضى الله تعالى عنهما - فانتفع عمر بصحبة أبى بكر .
وآخى بين سعد بن ربيع الأنصارى وعبد الرحمن بن عوف، ولما آخى بينهما عرض سعد على عبد الرحمن أن يناصفه فى أهله وماله وكان له زوجتان ، فقال له عبد الرحمن -رضى الله تعالى عنه - بارك الله فى أهلك ومالك.

وقد ورد فى فضل الأخوة فى الله تعالى أحاديث كثيرة :
قال - صلى الله عليه وسلم - : « ما تحابَّ رجلان فى الله تعالى إلا رفع الله لهما كرسيًّا فأجلسهما عليه حتى يفرغ الحساب ».

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « استكثروا من الإخوان ؛ فإن لكل مؤمن شفاعة يوم القيامة ».
وستأتى آدابها.

الثالث : ما يتأدب به فى نفسه، وذكره بقوله :
{ وفى } حق خصوص { نفس المريد العانى } المتعب نفسه فى الطاعات المتجشم اقتحام عقبات النصب فى هذه الطريقة الصعبة إلَّا على من وفقهم الله تعالى.

ثم شرع فى تفصيل آداب كل قسم بقوله :
{ أما الذى } وجب التأدب به { مع المربى وحده } أى : بخصوصه بدون إشراك غيره.

واعلم أنه ليس المراد بالمربى كل من تصدر للارشاد من مُحِّق وغيره ، فإن من لم يتأدب لا يؤدب، ومن لم يَتَرَبَّى لا يُرَبِّى، ولا تكن كجهلاء العامة الذين أشبهوا الذباب فى التساقط على السم كسقوطه على الشهد، بل يجب عليك قبل الدخول في زمرته أن تزنه بميزان الشرع، فان وجدته على القدم المحمدى، أعنى : مقتفيًا آثار المصطفى - صل الله عليه وسلم -، عاملًا بأوامر الشرع ونواهيه بحيث لا ينحرف عنه قدر نملة فذلك هو المراد، وإلا فهو ضال مُضِل مُدَّع كذاب.

<u>وإن شئت بيان صفاته فهاك طرفًا منها مفصلًا</u> :

-١- وهو أن يكون له عقل يدل به إلى الهداية ، وعلم يُرشد به المهتدين إلى أمر دينهم، وإن لم يكن متبحرًا، فليكن له اطلاع بقدر ما يزيل به الالتباس والشُبَه التى تعرض للمريد فى بدايته من أحوال التوحيد وغيره ، ليغنى مريده عن سؤال غيره.
عارفًا بكل ما يُرَقِّى المريد أو يقطعه عن الترقى من سائر الأعمال الظاهرية والباطنية، فإذا مرض مريده داواه، وإذا حنث أفتاه.

-٢- وافتقار ينفى به التدبير والاقتدار ، فيكون فى ابتدائه قدريًا، وفى انتهائه جبريًا بالمثل.

-٣- وصفاء يصفيه من الأكدار، وأدب يجلسه مع الجبار، وقناعة تورثه الغنى، وخوف يحجزه عن المعاصى، ورجاء يسارع به إلى الخيرات، وحسن خلق يدفع به الحمقى، وشفقة تورث الرفق.

وآدابه فى نفسه كثيرة :
منها الزهد فى الدنيا ، والتقليل منها ، وعدم المبالاة بها وأهلها ، والسخاء والجود والكرم، ومكارم الأخلاق، وطلاقة الوجه، واجتناب الخلاعة والضحك ، وملازمة الحلم والصبر، والورع، والخشوع، والتواضع ، والتنزه عن دنىء الإكتساب، وملازمة الوظائف التى جاءت بها السُنَّة ؛ كقص الشارب، وتقليم الأظافر، وتسريح اللحية، ونتف الإبط، وحلق العانة، والبخور، وإزالة الروائح الكريهة ، واجتناب الملابس الرثة، وترك ما نهى عنه، وترك كل بدعة ولو مباحة، ولا يعجب ولا يتكبر، ولا يحقر أحدًا من المسلمين ، ويرى لكل مسلم بركة٠
وله آداب مع مريده ستأتى فى غير هذا المحل٠

وإذ تقرر هذا، فاعلم أنه يجب على مريد الطريق أن يقصد عند إنابته، وتوبته، واستيقاظه من نوم غفلته، شيخًا من أهل زمانه ببلدته أو بإقليمه، معتقدًا فيه الخير مؤتمنًا على دينه، واصلاً إلى الله تعالى، خبيرًا بالحال والمقال للمنازل والأهوال٠

مترقى فى مقامات الرجال الكمل الأخيار شرعيًا حقيقيًا ، سلوكه على الكتاب والسنة، وذلك بعد تمام سيره إلى الله تعالى، مع مصاحبة إذن شيخ له مرشد واصل إلى تلك المقامات العلية ، أذن له كذلك واصل أيضا، مسلسلاً إلى ـ النبى ـصلى الله عليه وسلم ـ إلى الله ـ عز وجل ـ ، بالضبط والحفظ ومعرفة الكل للمقامات والترقى والإذن بالسلوك ، لا عن جهل ولا عن حظ نفس ولا شهرة أمر، بل بموت النفوس دخلوا حضرة القدوس، وبالجملة يكون آخرهم مشاهدًا محققًا مثل أولهم، فإن سألت كبيرهم عن أمر أجابك صغيرهم، فكبيرهم مثل صغيرهم وعكسه، لتحقق الجميع بالمشاهدة٠

آداب المريد مع الشيخ المربى :

ودليل القوم فى أخذ الأستاذ قوله تعالى :
{ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ }
{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } ٠
والعارفون بالله تعالى هم الوسائل إذ الشيخ الواصل وسيلة مريده إلى الله تعالى ، وبابه الذى يدخل منه على الله تعالى، فهم أبواب الحق٠

قال أبو على الدقاق - قدس سره - :
الشجرة التى تنبت بنفسها من غير صاحب لا تعيش ولا تثمر، وإن عاشت وأثمرت كان ثمرها من غير لذة ، وسُنَّة الله جارية على أنواء الأدب من النسب ، كما أن الولد والتناسل الحقيقى لا يحصل إلا بواسطة الوالد والوالدة ، كذلك التوالد والتناسل المعنوى حصوله بغير مرشد متعذر لحكمة ما جرت عليه عادة الله بها٠

ومن ذلك أن أقطاب الأرض لم يخرجوا عن الوسائل :
فكان سيدى أحمد البدوى -رضى الله عنه- مشيشيًا ، وكان سيدى الدسوقى - رضى الله عنه - شاذليًا٠

قالت الاشياخ : " من لا شيخ له مرشد فمرشده الشيطان "٠
وقال بعضهم : " لولا المربى ما عرفت ربى "٠

قال الأستاذ النابلسى فى شرح ديوان سيدى عمر بن الفارض :

اختلف العلماء المحققون من المتأخرين فى الإكتفاء بالكتب عن الأشياخ ، ثم كتبوا بالبلاد فكل أجاب على حسب فتحه ، وجملة الأجوبة دائرة على ثلاثة :

الأول : إن شيخ التعليم تكفى عنه الكتب للبيب حاذق الفهم ، وشيخ التربية تكفى عنه الصحبة لدَيِّن عاقل ناصح ، وشيخ الترقية يكفى عنه اللقاء والتبرك وأخذ كل من وجه واحد٠

الثانى : النظر إلى حال الطالب ، فالبليد لابد له من شيخ يربيه ، والفطن اللبيب تكفيه الكتب فى التربية لكنه لا يسلم من رعونة نفسه ، وإن وصل ابتلاءه برؤية نفسه٠

الثالث : النظر للمجاهدات٠
فالتقوى : لا تحتاج إلى شيخ فى تمييز الأصلح منها ، وقد يكتفى ذو الهمة بالكتب٠

ومجاهدة الكشف والترقية : لابد فيها من شيخ يرجع إليه فى فتوحاته ، كرجوعه - صلى الله عليه وسلم - للعرض على ورقة بن نوفل ، لعلمه بأخبار النبوة، ومبادئ ظهورها حين فجأه الحق، وهذه الطريقة قريبة من الأولى والسُنَّة معها٠

قال المصنف ـ قدس الله سره ـ :

{ فأولًا } أى : ففى الأول المقدم على الآداب التزم { حبًا } عظيمًا { له و } اصطحب { وده } يحتمل أن يكون اسمًا معطوفًا على حبًا عطف تفسير ، إذ الود والوداد مثلثين الحب ٠

ويحتمل أن يكون بكسر الواو ، فعل أمر أى تودد إليه ، إذ الود مجلبة الحب٠
وكما جاء فى الحديث : « توادوا تحابوا »٠
ويحتمل أن يكون بضم الواو ، اسم فاعل ، بمعنى المحب ، ويثلث أيضاً٠

وإنما بدأ بالحب ؛ لأنه أوجب الآداب والعمدة فيها فمن لم يبالغ فى محبة شيخه ، بحيث يؤثره على جميع شهواته لا يفلح فى الطريق ٠

وأجمع الأشياخ على أن شرط المحبة لشيخه :
أن يصم أذنيه عن سماع كلام كل أحد يحط فى شيخه فلا يقبل عذل عاذل ، حتى لو قام أهل مصر فى صعيد واحد لما قدروا أن ينفروه من شيخه ، ولو غاب عنه الطعام والشراب لاكتفى بالنظر إلى أستاذه لتخيله فى باله ، ونقل عن بعضهم أنه لما دخل فى هذا المقام سمن وعبل من نظره إلى أستاذه٠

قال القطب الشعرانى فى كتابه " قواعد الصوفية " :
سمعت سيدى عليًّا الخواص ـ رضى الله تعالى عنه ـ يقول :
ألطف ما فى الحب وجدته فى نفسك من الشوق المفرط ، والعشق المقلق، حتى منعك ذلك النوم ولذة الطعام ، ولا تدرى ذلك الحب فيمن ، ولا يتعين لك محبوب ، فإن من ذلك تترقى إلى محبة الله تعالى المطلقة٠

قالوا : من أصعب ما فى الحب أن يصير المريد يحب الهجر من يحث كونه محبوبًا لشيخه لا من حيثية أخرى، لأن الحب للشيخ عمدة الوصلة لا الهجر٠

{ والصدق } معه فى جميع معاملاته ، لأن مبنى هذه الطريقة على الصدق بالظاهر والباطن، إذ هى طاهرة تأبى التلون والنفاق٠

{ ثم الاعتقاد فيه } أنه على شريعة من ربه فلا يزن أفعاله على ميزان الشرع، فقد تصدر منه صورة مذمومة فى الظاهر محمودة فى الباطن فيجب التسليم٠

وهذا الأدب هو محل زلة أقدام المريدين فى هذا الزمان :
فإنك ترى المريد بمجرد ما نظر شذرة من أفعال شيخه تخالف ظاهر الشريعة ظاهرًا نَدَّ عنه كأوابد (أى : وحوش) الصيد ، وقد يكون مخطئًا فى القياس الشرعى فينفر عن الشرع بإبائه إياه ، وينفر عن الشيخ تبعًا لشيطان جهله ، كذلك فقد يدخل فى خدمة من لا يصلح للتربية لعدم تأمله الحق ، وبالجملة فإنهم لا معلول عليهم فى زماننا إلا المؤمن منهم وقليلٌ ما هم٠

{ وعنه } أى : الشيخ متعلق بتخفيه { ما كان } أى : وجد من الخواطر والأحوال والوقائع.
{ فلا تخفيه } أى : تكتمه، تلق بنفسك إلى الدمار ، بل يجب عليك أن لا تكتم عنه شيئًا مما خطر لك من مذموم أو ممدوح ، لكن لا يذكر من الخواطر إلا ما تكرر ودام، ولا يذكره بحضرة الناس.

{ وسلم } أيها المريد { الأمر له } فى جميع ما يقوله لك ، فلا تعترض عليه قطعًا، ولو بالقلب فإن الشيخ ربما يكون أرى المريد شيئًا لا حقيقة له ، مكرًا لسوء أدب وقع منه وهو لا يشعر.

ثم فسر ذلك بقوله { لا تعترض } لأن الاعتراض باب الطرد عن حضرة الله تعالى ، لأن من عرف الله تعالى وأذاب نفسه ، لا يكون له اعتراض على الله تعالى فى فعله ابدًا، خصوصاً مع الأشياخ فيكون معهم كالنعال ، ومع غيرهم كالتراب لا قيمة له فى حياته ولا جاهًا.

ثم بالغ فى نفى الاعتراض بقوله { ولو بعصيان } أى معصية { أتى } لأن العصمة لا تكون إلا للأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -.

سئل الجنيد - رضى الله عنه : أيزنى الولى ؟ فقال : { وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا }

وتأمل قول تلميذ سيدى يوسف العجمى له ن لم ينفر عنه مما رآه :
ما اتخذتك معصومًا من الوقوع فى أقدار الله تعالى ، إن سيئاتكم حسناتنا، فلا تضر الاساءة مع الحب ، ولا تنفع الحسنة مع البغض ، وإنما صحبتك لأنك عارف بالله ، لتدلنى على الله تعالى ، والطريق الموصل إليه ، لأنك أعرف منى ، فقال له :
اذهب بارك الله فيك.

وقال الامام القشيرى : فإن قيل فهل يكون الولى معصومًا ؟
قيل : أما وجوبا كما يقال فى الانبياء فلا، وأما أن يكون محفوظًا حتى لا يصر على الذنوب إن حصلت هنات أو آفات أو زلات ، فلا يمتنع ذلك فى وصفهم ، وساق حكاية الجنيد المتقدمة.

وللإشارة بحفظهم من المعاصى كما تقدم، قال المصنف قدس سره :
{ إذا فرض } الوقوع منه لأن الولى من توالت طاعاته من غير تخلل معصية ، ولكن لا على وجه الاستحالة لما تقدم عن سيد الطائفة الجنيد.

{ وأقبل } بتسهيل الهمزة من الإقبال ضدالإدبار { عليه } أى الأستاذ { دائماً بالكل }.
أى بكل أعضائك قلبًا وقالبًا ، فإن أمداد المريدين فى السير على قدر تعلقهم بالمشايخ، فمن قوى تعلقه بأستاذه ترقى فى العرفان ترقيًا بليغًا لا يدركه غيره ممن لا تعلق لهم بالمشايخ مثله ، ولو أتى بأضعاف عبادته.

{ والذل } الواو بمعنى مع، والمراد به : الإنكسار { والفقر } المراد به المسكنة القلبية .
أى ويلزمه أن يكون محافظاً على الذل ، محافظا على الفقر.

{ كذا } الذل { والكلّ } بالفتح : العالة، بمعنى الاحتياج الدائم كأنك لا أب لك ولا أم ولا ولد إلا هو.
فهو كل مقصدك وكل بغيتك وكل أهلك وكل ولدك ، تتطفل على موائد كرم معارف قلبه فى كل لمحة ولحظة وطرفة عين.

{ ولا تكن توليه } أيها المريد { ظهرًا أبدا } أى : دائما.
فإن من الأدب أن لا تتقدم عليه بل إن كنت عنده، وأردت القيام بعد الإذن والمصافحة فلا توله ظهرك، بل تقوم متوجهًا إليه حتى تتوارى بجدار أو غيره.

فإن المريد لا يترقى إلا إن لزم حرمة الشيخ ، فإن تأدبه مع شيخه يرقيه إلى الأدب مع الله تعالى، فمن لم يتأدب مع شيخه فهو فى زمرة الدواب.

{ والروح } معمول لقوله { صيره } أى : اجعله { ب } سبب { حبه فدا } بالقصر، فإنك مهما بذلت نفسك فى طاعته فقد بارك الله فيك، وجعل النجاة عاقبتك ، ولو فرض أنك مت فى هذا الفداء، فقد مت بانقضاء الأجل فى طاعة الله تعالى ، ونعمت الموتة الصالحة إذ حللت برضوان الله الأكبر فإن الهجرة لله ورسوله ، والأعمال بالنيات.

{ وكل ما } معمول مقدم لقوله { ملكت } من مال وغيره { مَلِّكْهُ } أيها المريد { له } فإنك أنت ومالك لأبيك، كيف وهو أبو الروح المفيض عليها أنواع الفتوح، فكن فى مالك بالنسبة إليه كالوكيل الذى يفعل ما يأمره موكله، فإن فعلت فقد أفلحت، وإن خالفت هلكت، والمال ذاهب.

{ وكن } أيها المريد الصادق { كمن } أى : الذين { بحبه تولهوا } أى : تواجدوا.
حتى كادت عقولهم تذهب من شدة الحب، فيه حض على حبه، وبالغ لأنه لا نفع للمريد إلا بها، إذ بها تتصور الطاعة، والطاعة فروع المطلوب.

{ وكن } أيها المريد { لديه } أى : عنده { مثل ميت } بسكون الياء لغة { فانى } أى معدوم الحياة { لدى مغسل } يغسله فيقلبه كيف شاء ، بغير اختيار منه وهو معه ، فحيث ما حركه تحرك وهو منقطع الحركة ، فإن ذلك يثمر النجاح والفوز والفلاح.
كما قال معللًا :
{ لتمسى } بسكون الياء { دانى } بسكون الياء أيضًا ، أى : قريبا من حضرة القدس وصفاء الأنس.

{ أمامه } الأستاذ { لا تمش } أى لا يجوز لك المشى أمامه فإن ذلك مخالف للآداب، إذ الأمام مرتبة الإمام ، ولا إمامة لك.

ثم بين اللازم فقال { واقتف } تتبع { الأثر } بأن تمشى خلفه.
ثم استثنى من ذلك قوله { إلا بليل } مظلم ليكون مشيك أمامه صونًا له.
{ ولتكن على حذر } أى : حرص شديد من مصادمة ضرر.

وكما يمتنع المشى أمامه تمتنع كذلك المساواة فى المشى.
{و} كذلك { فى الصلاة لا تساويه } فضلاً عن أن تتقدمه ، بل قف فى الصف الذى خلفه ، وذلك { سوى فى الفرض } أى فى غير الفرض فإنه لايجوز لكن مع عدم وجود من يقوم مقامك فى التصاف.

{ واستعمل } يا { أُخَىّ } بالتصغير، فى جميع أمراضك القلبية { ذا الدوا } بالقصر النافع لك ، فإنه لا دواء أنفع من الأدب مع الأشياخ.

{ ولا تزغ } أى تنحرف فى جميع أحوالك ، وأذكارك وأورادك وخلواتك وجلواتك فى الظاهر والباطن { عن أمره } أى : ما أمرك به من ذكر أو صلاة أو غير ذلك، فإنه طبيب مرض قلبك يعالجه بما يصلحه من كل دواء نافع.

{ وما نها } ك {عنه} أستاذك { اجتنبه } أيها المريد.
لأنه مأخوذ عليه العهد من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالنصح للأمة ، لأنك إن لم تفعل ما أمرك أو تنته عما نهاك لاسيما بحضرة من ليس من القوم ، لم تشم رائحة الفقر، فلا تقنع بمجرد اعتقادك فيه ، وتتساهل فيما أمر به أو نهى عنه، وتقول نظر سيدى يكفى فإن ذلك من الجهل فى الطريق.

قال بعض الصحابة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أسألك مرافقتك فى الجنة.
فقال -صلى الله عليه وسلم - : « أعنى على نفسك بكثرة السجود ».
فلم يجبه - صلى الله عليه وسلم - إلا بالعمل ، لا بالاتكال على ما دونه.

فلازم أخى على اتباع أوامره واجتناب نواهيه { ترقى } أى : ترفع فى الدرجة حتى تصل { إلى السها } بالضم ، وهو كوكب فى السماء خفى من بنات نعش الصغرى.
والمراد : الدرجة المبالغ فى علوها وارتفاعها ، لأن السها فى السماء ولا شىء أرفع منها من الأجرام التى نشاهدها.

{ والحب } للأستاذ { والخدمة } له { ذا شرطان } أى : أمران ملتزمان ضروريان لا نجاح بدونهما { لطالب التقريب } أى القرب من حضرة الحبيب.
{ والأمان } من القطيعة والبعد والحجاب عن مشاهدة الأنوار.

وقد بان لك من تكرار شرط المحبة أنه لا سلوك لمريد بدونها ، وأنها هى العمدة فى الآداب ، وفتوح أبواب الفيض الربانى ، فإن هذه الطريقة تربية بالقلوب ، ولا يتم سلوكها إلا بتمام الأرتباط القلوب ، ولا يتم الارتباط إلا بتمام المحبة.

والثانى : الخدمة له٠

حتى أنه لا يجلس بين يديه أبدًا إلا وهو مستوفز لخدمته كجلوس العبد بين يدى سيده٠
وفى السفر فإنهم قالوا :
يجب علي المريد أن يتجرد بالكلية إلى خدمة شيخه إذا سافر معه ، ولا يفارقه طرفة عين إلا لضرورة ، ويتعفف عن أطعمة الناس الذين يعزمون على الشيخ ، ولا يأكل إلا بقدر سد الرمق لأن ذلك نافع له من وجوه منها :

عدم كثرة الحاجة إلى الخلاء لاسيما فى المركب والطريق القليل الماء ، وإذا نام الفقراء فليكن سهران إن كان نقيبًا، وإن تناوب السهر فلا بأس ، ولو أمشاه شيخه طول الطريق، وأركب غيره فلا يتضرر بل يفرح، ومشى فى ركابه ويفوز بخدمته٠
وكل هذه الأمور إذا فرح بها رقته إلى مراقى الكمال والله غنى حميد٠

{و} هذان الشرطان العظيمان { ينتجان } أى : يعقبان { الصحبة } ٠
أى : الملازمة فى الصفات الحميدة ، أو الاستقامة والمضى فى الأمور وعدم التلبث، أو الانقياد التام بعد الصعوبة والبلوغ إلى درجة الأستاذ٠

قال الإمام القشيرى : والصحبة على ثلاثة أقسام :
صحبة مع من فوقك : وهى فى الحقيقة خدمة٠
وصحبة مع من دونك : وهى تقضى على المتبوع بالشفقة والرحمة، وعلى التابع بالوفاق والحرمة٠
وصحبة الأكفاء والنظراء : وهى مبينة على الإيثار والفتوة٠
فمن صحب شيخًا فوقه فى الرتبة فأدبه ترك الاعتراض، وحمل ما يبدو منه على وجه جميل، وتلقى أحواله بالإيمان به٠

سمعت منصور بن خلف المغربى ، وقد سأله بعض أصحابنا : كم سنة صحبت أبا عثمان المغربى ؟
فنظر إلى شذرًا، وقال : إنى لم أصحبه بل خدمته مدة٠

وأما إن صحبك من هو دونك : فالخيانة منك فى حق صحبته أن لا تنبهه على ما فيه من نقصان فى حالته٠
كتب أبو الخير التينانى إلى جعفر بن محمد بن نصير يقول :
وزر الفقراء عليكم لأنكم اشتغلتم بنفوسكم عن تأديبهم فبقوا جهلة٠

وأما إذا صحبت من هو فى درجتك : فسبيلك التعامى عن عيوبه ، وحمل ما ترى منه على وجه من التأويل الجميل ما أمكنك ، فإن لم تجد تأويلاً عدت إلى نفسك بالتهمه وإلى إلتزام اللائمة٠

{ السَنِيَّة } نسبة إلى السنا بالقصر، وهو : الضوء الساطع أو ضوء البرق ، وإنما كانت سنية ؛ لأنها أصل ورود الأنوار ، والكشف عن الأسرار، فهى نور فى نور من نور٠

{ وتثمر الصحبة } المذكورة أى : تجود { بالأمنية } أى : ما تتمناه من مقامات علية٠ وفتوحات جلية { وشرطها } أى : الصحبة ، أى : الأصل الذى تدوم به وتثمر٠
{ حفظك } أيها المريد، أى : المحافظة وعدم التهاون فى { ما يلقيه } إليك من أقوال وأوراد فإنها أنوار وأسرار٠

وإذا علمت ذلك { فكن إذا حُظيت } أى : وقع لك منه خطاب { بالنية } أى الحاذق الفطن اللبيب، ولا تكن بليد الطبع كسلان ، فإن الفطنة باب المنة ، كما إن البلادة مفتاح الطرد والحرمان ٠

{ وسِرَّهُ } أى : ما يخفيه إليك من قول أو بشرى أو حال أو حاجة فى نفسه { عن كل شخص } من المخلوقات٠

{ صُنُه } أى : لا تبديه أيها المريد لأحد من الخلق ولو نشرت بالمناشير ، فلو أبديت منه ذره فقد خنت عهده وخرجت عن صحبته، ولزمتك التوبة والاستغفار، ولزوم التذلل حتى يصفح عنك ، فكن حرًا صدره للسر قبر، ولا تكن مبديًا سرًا تكن خائناً مبعدًا٠

{ واحفظ } أيها المريد { جميع ما أتاك عنه } من الآثار :
كالتاج والجبة والسبحة والرداء أو أى شىء ، وهذه الأشياء المسماة عند الصوفية بالخرقة٠
فيجب على المريد احترامها وتعظيمها، فإنها ربما كان فيها سر مودع٠
أو المراد : ما هو أعم من ذلك ؛ كالوصية والأمر والنهى إلى غير ذلك٠

{ أنفاسه } أى أمداده التى يمدك بها :
كالأوراد والأذكار والأدعية والصلاة والصيام ، فإنه متى أمرك بشىء من ذلك فهو عين مددك وباب فتوحك٠
ويحتمل أن المراد بالأنفاس : الأقوال إذ هى ألفاظ خارجة معها بدليل مقابلتها بالأفعال ؛ كالمواعظ، والنصائح، وغيرها٠

{ إياك } أى : احذر من { أن تضيعها } بكسر الضاد ، أى : تهملها فإنك تحرم المدد، وتعذب بالحرمان ٠

{ أفعاله } التى تصدر منه { كن سالكًا } أى : عاملاً ومتبعًا٠
{ رفيعها } أى : شريفها من أنواع العبادات ، ولكن لا من قبل نفسك لأنك لا تدرى ما تطيق وما لا تطيق ، وما لك فيه مدد مما يناسب حالك ، وما لا مدد لك فيه٠
بل افعل { من بعد أمره } لك ب { ذلك } العمل ، فإن عملت بنفسك ولم تتبع أمره استهوتك الشياطين بالوسواس فألقتك فى مهامة الخسران٠

{ فاستمع } هذا القول سماع قبول وإذعان، إن كنت ذا عقل كامل موفقًا للخيرات فإنك فى أصل الطريق مأمور باتباعه.

{ فالخير } أى : السعادة فى الدنيا بالسلامة من هذه الدار ، وفى الآخرة بالنجاة من النار، والخلود فى النعيم الأبدى.

{ فى امتثال } أى : اتباع { أمره } { جمع } أى : جمعه الله تعالى إذ هو النائب والخليفة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى إصلاح القلوب، وتطبيبها بالدواء الناجح .

{ ولا تهبه } أيها المريد من الهبة { ما } أى الذى { به التداوى } من الأمراض الباطنية.

{ واحكى له } أى : حدثه بكل { ما أنت سرًا } أى : فى السر { ناوى } فإنه أعلم بما يصلح حالك فيرشدك إلى ما هو الأصلح لك فإن لم تفعل فلا تلومن إلا نفسك.

{ فكل ما لا } أى شىء { يا فتى } ناداك أيها المريد بالفتى أى : الذي هو من آثر أمر ربه على هوى نفسه، حضًا لك على المحافظة على تلك الأداب التى إن أتيتها فقد تحققت بالفتوة.

{ يرضيه } أى لا يُقرِّك عليه { دعه } أى : اتركه واجتنبه فلا تفعل مع شيخك شيئًا يوحش قلبه منك ، فإن الله تعالى يغضب لغضب الشيخ ويرضى لرضاه ، كوالد الجسم بل أعظم ؛ لأن الشيخ لا يأمر المريد إلا بما أمر الله به ، فمن خالفه فقد خالف الشارع ، وحرم ووقع فى غضب الله بحسب تلك المعصية من كبيرة أو صغيرة ، فيا شقاوة من تغير قلب شيخه عليه وقتًا من الأوقات ، ولذلك كان غضبه أصعب من غضب والد الجسم ، وحقه مقدمًا على حقه.

{ وحقَّ حقِّه } الثابت عليك، وحقوق الشيخ على المريد كثيرة منها ما هو مذكور فى هذا المتن ، ومنها غير ذلك مما هو مذكور فى المطولات ، والعمل بالقليل يورث العلم بالكثير، وكل درجة من الدرجات التى يترقاها المريد على يد الشيخ ، تورث فى قلبه حرمة له وأدبًا فى حقِّه بقدر عظم تلك الدرجة ، ومن ذاق فهم ، وعلى الله نجاح المقاصد.

{ وفِّيه } أىَ ائت به وافيًا من غير إخلال بذرة منه.
{ ولا تقل } أيها المريد له { لِمْ } بسكون الميم مستفهمًا عن العلة { إن نهاك } عن شىء ولو مباحًا فى الشرع.

{ أو أمر } ك، ولو بشىء ظاهره مخالف للشرع الشريف فإنه ربما كان باطنه طاعة ، وقبح عندك لقصور نظرك عن السر فيه.
ومن قال فى هذا الطريق لِم لَم يفلح إذا مبناها على التسليم، بخلاف طلاب العلوم الظاهرية، فإن من قال منهم لِمَ كان الأمر كذا أفلح، فلكل طريق آداب، ولكل مقام مقال، والعاقل يتأمل ذلك.

ولذا قال :
{ من قالها ما ذاق } أى : أدرك وحصل { فى السير } أى السلوك إلى ملك الملوك لذة طعم٠
{ السمر } حديث الليل، والمراد به : مشاهدة التجليات فى هذه الاوقات سواء كانت جلالية أو جمالية أو أفعاليه أو صفاتية٠

{ ولا تطأ } أى : لا تدس أيها المريد { له على سَجَّادة } بالفتح، المراد بها : عموم ما يفرشه بل الموضع المعتاد لجلوسه، كذلك { ولا تنم له على وسادة } فإن ذلك مسقط حرمة الشيخ، ويعد استهانة منك به وكذلك لا تسبح بسبحته، ولا تتوضأ بإبريقه٠

وجملة ذلك : أن كل شىء اختص به الشيخ لا يجوز للمريد استعماله فى شىء ما بنوع من الاستعمالات٠

{ ولا تكن } أيضا { بلابس أثوابه } كذلك لما تقدم٠

قالوا : وإذا وهب له شيخه قميصًا أو نعلاً أو رداء، فليظهر توقير ذلك الشىء، وليجتهد فى نفسه أن يكون على أخلاق الشيخ من الأحوال والدين والنظافة الظاهرة والباطنة، لئلا يسىء الأدب مع ذلك الشىء الذى كان من ملبوس شيخه٠

ولا يفعل معصية وهو لابسه، ولا يعطيه أحدًا غيره ، ولو أعطاه ما أعطى فربما يكون شيخه طوى له فيه سرًا من أسرار الفقراء مما يغنيه فى الدارين، ويقربه إلى حضرة الله عز وجل٠

وربما جمع له فيه جملة من أخلاق الرجال، كما طوى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأبى هريرة ثوبًا، وضمه إليه فما أُنسى بعد ذلك شيئاً، والأشياخ ليس لهم فعل سدى لأن مقامهم يعلو عن اللعب٠

وآدابه مع آثار المشايخ :
ألا يمشى فى النعل إلا فى مواطن الفرح مثلا، والذهاب إلى رياض الجنة، وأن لا يضع الرداء مثلاً على رجله وأن يلبسه فى يوم العيد مثلًا، وهكذا٠

والمريد الناجح المفلح يضع كل شىء في محله فقد قيل :
والمريد الصادق الذى لا يتعب شيخه فيه ٠

{ واشكُ له ما القلبُ قد أصابه }
أى : الذى أصابه قلبك من الخطايا والجنايات على أحد بغير حق ، فإنه يجب عليه أن يُقِّرَ بذلك بين يدى شيخه على الفور، وأن يسلم بما يحكم به عليه من العقوبة للنفس على تلك الجناية، من سفر بكلفة أو خدمة شديدة أو هجر أو غير ذلك ، لأنهم أجمعوا على عدم قبول التجاوز عن زلات المريدين٠

{ واستأذن } أى : اطلب إذن { الخادم } الواقف على باب المكان الذى فيه الأستاذ للدخول لأن التهجم تجهم ، وربما كان الأستاذ فى حالة لا تسمح بالدخول فينفر منك، أو يحصل لك أمر مضر فى ظاهرك وباطنك٠

{ ترقى } بفضل الله تعالى ، بسبب إحترام الأستاذ { إلى منازل القبول }
من إضافة السبب الى المسبب إذ القبول سبب فى ترقى هذه المنازل العلية٠
والمراد بها : منازل التقريب التى هى عبارة عن الفيوضات الربانية، والرحمات الإحسانية٠

{ ولا تؤاكله } أى : تأكل معه { على المائدة } التى يأكل عليها، وكذلك لا تأكل وهو ينظر إليك بل تدار ، لأن ذلك استهضام لحرمته وجرأه عليه مذهبة لهيبته من قلبك، ومتى حصل أدنى من ذلك للمريد فقد حرم المدد منه٠

ولذلك علل المصنف فقال :
{ كيلا بذا تحرم للفائدة } أى : لأجل أن لا تحرم من فوائده بسبب ذلك الفعل الذى ارتكبته من استهانتك بحرمة الشيخ ، ويمتنع عليك الاتيان بشىء من تلك الأشياء المتقدمة مطلقًا قطعًا٠

{ إلا بعيد الإذن منه } لك فيه إنه حينئذ تطلب المبادرة بالمأمور به ، وأشار بتصغير بعد إلى أنه لا يجوز تأخير فعل شىء مما تقدم بعد الإذن بمسافة طويلة لأنه يشعر بالتردد والتهاون٠

{ فافهما } ألفه بدل عن نون التوكيد، أى : افهم وأعمل ، وإلا فما فائدة الفهم بدون عمل، وأتى به تنبيهًا على أنه بعد صدور الإذن لا يتأخر فهمًا منه أن ذلك أتم فى الأدب٠

ثم عمم محل الإذن فقال { فى كل ما } أى : أدب من الآداب { يا صاحبى تقدما }
من أول الكلام عليها ، والمراد الصالح للاستثناء٠

{ وزوجه } معمول مقدم محذوف التاء على الأفصح { من بعده } أى : بعد فراقه إياها بطلاق أو موت { لا تنكحا } أى : تتزوج ، لأنه تجب حرمته بعد وفاته كما تجب فى حياته فلا يؤذيه بذلك٠

{ فمن يكن } من المريدين { يفعل ذلك } المتقدم من تزويج زوجة الأستاذ { ما أفلحا } أى ظفر بسعادة فى دنياه قط ، وربما جره إلى سوء العقبى، والعياذ بالله تعالى٠
وقد شاهدنا من ساءت دنياه بسب ذلك إلى أن مات بعد أن تفصلت أعضاؤه، ونرجو الله تعالى أن يكون قد مات على الإيمان٠

{ ولا تمل } أى : تنحرف أيها المريد الصادق { عنه } أى : الأستاذ فى جميع أحوالك {ب} بقدر { رمح و } لا بقدر { قسى } بكسرتين مع تسهيل الياء ساكنة ، جمع قوس أو بضم فكسر كذلك ۰ والمراد : عدم الانحراف عنه مطلقا بقدر قوس أو أقل منه لأنه متى فعل ذلك فقد زلت به القدم، والمراد شدة الحض على شدة الملازمة۰

{ ولا تكن } بسبب هذا الانحراف وإتيان غيره { ممن عهوده نسى } بسكون الياء ، أى : غفل عنها لأنه بهذا الانحراف أو غيره ينقض عهده، وتجب عليه التوبة والذل والتواضع للأستاذ حتى يصفح أو يعاقب فيسلم۰

{ وإن يكن يومًا } يا { أُخَّى } بالتصغير { زجرك } أى منعك ونهاك۰
{ فدم على الحب له } ولا تزلزل۰

فإن من الآداب أن يصبر المريد تحت مناقشة شيخه له ومخالفته لأغراضه ، فإن ذلك دليل على أن الشيخ شم منه رائحة الصدق، ولولا أن شم منه ذلك ما ناقشه ، وكان عامله معاملة الضعفاء من الملاطفة واللين والترحيب والتأليف۰

بل يثبت على المناقشة منه فإن طريق الله تعالى لا تكون إلا بعد موت نفس مريدها كذا وكذا ألف موته لأن كل مخالفة لهواها موتة لها، وأهوائها لا تحصر فيجب عليك الانكباب على عوائد نفحاته۰

و { لو هجرك } لأن الهجر ما صدر منه إلا عن زلة وقعت منك، فمن الآداب أن لا يتساهل المريد بهجر أستاذه له ، فإن أهل الطريق قالوا :
كل مريد هجره أستاذه فلم يتأثر من ذلك ولم يشق عليه، ولم يبادر لتطييب خاطره مقته الله، ومكر به، وطرده عن بابه، والعياذ بالله من ذلك۰

فيجب إذاً دوام الحب والمصادقة له، فإن صحت النسبة إليه، وهى : الحب فيه وعدم الجفاء منه ، كان تأثيره بالأمداد فيه أعظم من أذكاره وسائر أعماله ، فإن من لم يصادق رجلًا يربيه فإنه يخرج من الدنيا ملوثًا بالذنوب، ولو عبد الله تعالى عبادة الثقلين لأنه بالشيخ يخرج من الضيق إلى السعة ، ومن الظلمة إلى النور ، ومن الجهل إلى العلم۰

{ كذا } لا ينبغى لك أن تفارقه {ب } سبب { زَجْر } بفتح فسكون ، أى : انتهار ومنع أو شدة فى الكلام { أو ب } سبب { شتم } أى سب { لا تمل عنه } بل دم على الحب تنل القرب۰

{ ومنه فوق هذا } الزجر والهجر والانتهار والسب { فاحتمل } فإن التحمل باب النجاح، ومعدن الرباح والفلاح والصلاح۰

{ ولا تكلم من } أى : أحدا { يكن لصيقك } أى : ملاصقًا لك { بحضرة } أى قرب { منه } أى : الأستاذ، فإن ذلك من قلة الأدب { ولو } كان ذلك الملاصق { شقيقك } أى أخاك من أبويك٠
والمراد : عدم الكلام مطلقًا لأنه غير مناسب عند أهل هذا الشأن، وكذلك إذا جلس بحضرته لا يتكلم ولا يلفظ بل يلزم السكوت ما لم يجد الإشارة على الإذن فى الكلام٠

ولا يجوز له أن يتكلم بعد الإذن كما تقدم { إلا على قدر } بقدر { الضرورى } أى : الذى لا يمكن تركه فى تأدية المصالح الدنيوية والاخروية، فيجتهد فى تقليل الكلام وعدم الزيادة٠

كما قال :
{ وما زاد } عن الضرورى { فدع } أى اترك٠

وهاك جملة مختصرة فى آفة اللسان لطيفة مفيدة كسابق الوعد، فأقول :

عليك يا أخى بحفظ اللسان وضبطه وتقييده ، فإنه أشد الأعضاء جماحاً وطغياناً، وأكثرها فساداً وعدواناً، فلتحتفظ عليه كل الاحتفاظ مع الجد فى ذلك، وبذل المجهود، ولتتذكر خمسة أصول :
الأول :
ما روى أبو سعيد الخدرى - رضى الله تعالى عنه - :
أن ابن آدم إذا أصبح بكرت الأعضاء كلها إلى اللسان، وقلن له نناشدك الله أن تستقيم، فإنك إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا٠
والمعنى فيه والله اعلم : أن اللسان يؤثر فى أعضاء الإنسان بالتوفيق والخذلان٠

الثانى :
حفظ وقتك فإن أكثر ما يتكلم به الإنسان من غير ذكر الله تعالى، فعلى الأقل يكون لغوًا يضيع الوقت به٠

الثالث :
حفظ الأعمال الصالحة من الضياع ، فإن من لم يصن لسانه، وأكثر الكلام يقع لا محالة في غيبة الناس لأن من كثر لغطه كثر غلطه، والغيبة هى الصاعقة المهلكة للطاعات٠
كما قيل : مثل من يغتاب الناس كمثل من نصب منجنيقًا فهو يرمى به حسناته شرقًا وغربًا ويمينًا وشمالًا٠

الرابع :
السلامة من آفات الدنيا على ما قال سفيان : لا تتكلم بلسانك ما تكسر به أسنانك٠
قال آخر : لا تبسطن لسانك فيفسد عليك شانك ٠
والمثل السائر : رُبَّ كلمة تقول لصاحبها دعنى٠

الخامس : ذكر آفات الآخرة وعواقبها ٠

وهاك نكتة وهى : أنه لا يخلو إما أن تقول قولًا محظورًا حراماً، أو قولًا مباحاً من فضول لا يعنيك :
فإن كان محظورًا حراماً : ففيه الجزاء من عذاب الله الذى لا طاقة لك به٠

قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ليلة أسرى بى رأيت فى النار قومًا يأكلون الجيف، فقلت : ياجبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس »٠

وعن أبى قلابة أنه قال : إن فى الغيبة خراب القلب من الهدى٠ نسأل الله العافية٠

هذا فى الكلام المحظور، وأما المباح ففيه أمور أربعة :
الأول : شغل الكرام الكاتبين بما لا خير فيه ولا فائدة، وحق للمرء أن يستحى منهما فلا يؤذيهما٠ قال تعالى : {مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } ٠

الثانى : إرسال كتاب إلى الله تعالى باللغو والهذر، فليحذر العبد وليخش الله عز وجل٠

الثالث : قراءته بين يدى الجبار على رؤوس الأشهاد يوم القيامة بين الشدائد والأهوال، عطشان عريان جوعان، منقطعًا عن الجنة، منحبسًا عن النعمة٠

الرابع : اللوم والتعيير بماذا قلت، وانقطاع الحجة، والحياء من رب العزة ، وقد قيل :
إياك والفضول فإن حسابه يطول٠

وكفى بهذه الأصول واعظًا لمن اتعظ فتنبه لذلك٠

{ تكف بهذا } أى ترك الكلام والمحافظة على الإحترام { الألما } أى : المرض الباطنى، والألف للإطلاق٠

{ ولا تجب } أيها المريد { لسائل } عن أى شىء دنيوى أو أخروى سواء سألك أو سأله٠
{ فى حضرته } لأن المبادرة إلى الجواب سوء أدب وعاقبته عطب ، وتركه كمال أدب ومنال إرب٠

{ وللجدال } أى اللدد فى الخصومة فى الكلام { دع } أى : اترك { ولو فى غيبته } أى : غيابه فإن الجدال باب الشر٠

قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ذروا المراء فإنه لا تفهم حكمته ولا تؤمن فتنته »٠
وقال ـ عليه الصلاة والسلام- : « ما ضل قوم بعد أن هداهم الله إلا أوتوا الجدل »٠

وقال بلال بن سعد : إذا رأيت الرجل لجوجًا مماريًا معجبًا برأيه فقد تمت خسارته٠

ومراد المصنف بالجدال ما يشمل المراء٠
وحد المراء على ما ذكره حجة الإسلام الغزالى :
هو الاعتراض على كلام الغير باظهار خلل فيه إما فى اللفظ، وإما فى المعنى، وإما فى قصد المتكلم٠
فأما فى اللفظ :
كأن يقول فيه خلل من جهة النحو، أو من جهة اللغة، أو من جهة العربية، أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير، وذلك تارة يكون من قصور المعرفة، وتارة بطغيان اللسان، و كيفما كان فلا وجه لإظهار خلله٠

وأما فى المعنى : كأن يقول ليس كما تقول اخطأت فيه من وجه كذا وكذا٠

وأما في القصد : كأن يقول الكلام حق، ولكن ليس قصدك الح ، بل أنت فيه ذو غرض، و كل ذلك مذموم والواجب السكوت، أو السؤال فى معرض الاستفادة لا على وجه العناد والنكاد، أو التلطف فى التعريض٠

والجدال : عبارة عن قصد افحام الغير، وتعجيزه وتنقيصه بالقدح فى كلامه، ونسبته إلى القصور والجهل فيه ولا نجاة من هذا إلَّا بالسكوت عن كل ما لا يأثم به لو سكت عنه، والباعث على ذلك طلب الترفع باظهار العلم والفضل، والتهجم على الغير بإظهار نقصه، وهما شهوتان للنفس٠

أما اظهار الفضل : فهو من قبيل تزكية النفس٠
وأما تنقيص الغير: فهو من طبع السبعية، فإنه يقتضى أن يمزق غيره ويقصمه ويصدمه ويؤذيه، وهما صفتان مذمومتان، وقوتهما المراء والجدال٠

{ ولتعتقده } أيها المريد { أكمل أهل العصر }
أى : الزمن الذى أنت فيه لأنه يجب على المريد أن لا يقدم على شيخ بقصد الدخول فى صحبته، حتى يعتقد أنه من أهل التربية ، وأنه الأحق بها فى زمانه٠

وإنما وجب عليه ذلك، لأن المرشد الذى يجد الإلتفات من مريده إلي غيره يقطع المدد عنه، والمريد الذى يدخل فى صحبة شيخ ، وهو يرى أن فى الوجود شيخًا مثله أو أعلى منه، فيراه شيخه متشوقًا إليه فيقطع عنه المادة٠

{ ولتتركن لديه } أى : عنده { قول الجُهْر } بضم فسكون ، الفحش من الكلام، وهذا معلوم مما تقدم بالأولى ، ونبه عليه إطنابًا منه فى إفادة مبتدئى المريدين، فجزاه الله خيرا٠

{ وعِصمةً } بكسر العين، أى : منعًا عظيمًا مستحيلاً وقوعه كما للأنبياء٠
{ لا تعتقدها فيه } أيها المريد لأن ذلك يؤدى إلى سقوطه من عينك عند وقوعه فى أى ذنب فتُحرم٠

{ بل } الواجب فى حقك أن تعتقد { حفظه } من الله تعالى، فلا يستحيل عليه ذلك الحفظ٠

{ عن كل ما } أى ذنب عظيم { يرديه } أى يهلكه.

قال شيخ الإسلام في شرح الرسالة القشيرية :
ولا ينبغي للمريد أن يعتقد فى المشايخ العصمة وإن كانوا محفوظين ، لأن ذلك يخالف الواقع ، ولأنه يؤدى إلى نفرته منهم، وعدم انتفاعه بهم إذا صدر منهم ذنب.

والفرق بين العصمة والحفظ :
أن العصمة تمنع من جواز وقوع الذنب ، والحفظ لا يمنع منه ، لأن الله تعالى يحفظ من يشاء ويترك من يشاء، لأن الأولياء لا يقدح زللهم فى قواعد الدين ، بخلاف الأنبياء فإن المعجزة دلت على عصمتهم فيما يخبرونه به عن الله تعالى ، وفيما يفعلونه بيانًا للناس تكاليفهم.

فعلم أنه ليس للمريد أن يعتقد العصمة فى المشايخ ، بل الواجب أن يذرهم وأحوالهم فيحسن الظن بهم، ويراعى مع الله تعالى حده فيما يتوجه عليه من الأمر والنهى ، والعلم كافيه فى التفرقة بين ما هو محمود وما هو معلول.

{ ولا تكن تصحبه } أيها المريد { لعِلَّة } أى غرض من أغراض الدنيا ؛ كالجاه والاعتقاد فيه، وأكل زاده، أو غير ذلك من العلل.

{ فمثل ذا } الإشارة به إما للأستاذ، لأن من تكون صحبته كذلك فإنه مداهن مغتر مخادع كذاب، وإما للفعل المتقدم وهو صحبتك إياه للعلة المتقدمة.

{ يزيد فيك العلة } الأصلية وهى أمراضك القلبية ؛ كالعجب والرياء والسمعة والجاه الجاه، وحب المحمدة والشهرة إلى غير ذلك.

{و} إذا كنت { عنده لا تشطحن مع خاطر } .
والشطح : كل كلمة خرجت وعليها شبه رعونة، كقول الحلاج أنا الله، وقول غيره أنا اللوح أنا العرش، مما يخالف بظاهره الشرع الشريف.

والخاطر :
ما يرد على الضمائر لأنك إن فعلت ذلك بحفظك نفسك وإمساكها من متابعة ذلك الخاطر .
{ تسق } أى : تروى { الحشا } وهو ما انضمت عليه الضلوع ، والمراد هنا : القلب فقط. { من الشراب العاطر } المراد : الفائح الشذا، وإن كان العاطِرُ مُحِّب العطر .

قال ابن الفارض متتيمًا فى هوى هذا الشراب :
فلو عبقت فى الشرق أنفاس طيبها * وفى الغرب مزكوم لعاد له الشم.

والمراد به : العلم اللدنى، والكشف والأسرار التى لا يعلمها إلا الذائقون.

{ والضحك } أى : القهقهة والتبسم فى غير محله { والخصام } أى : المخاصمة والمغالبة۰
{ والمسابقة لقوله } عند إرادة التكلم { دعها } أى : اتركها عنده ، أى : الصفات الثلاث المتقدمة۰

{ وبالمسارقة أنظر إليه } قال فى القاموس :
وهو يسارق النظر إليه : أى : يطلب غفلة لينظر إليه فإن من كمال الأدب أن لا يفتتح عينيه فى أستاذه إذا نظر إليه بل يغض الطرف حياء، ومتى أراد أن ينظر إليه، ترقب إعراضه، وغفلته عنه فينظر اليه۰

{ واجلس } أيها المريد { فى حضرته } جلوسًا { مثل } جلوس { مُصَلٍّ } ۰
أى : فلتكن { جالسًا فى هيئته } أى : المصلى بأن تقعد مفترشًا فإن حضرة الشيخ من حضرة الله سبحانه وتعالى۰

{ وهذه } الآداب المتقدمة فى هذه المنظومة من أول قوله : أما الذى مع المربى إلى هنا۰ { بعض الذى قد وجبا على المريد } السالك الصادق { للذى يدعى } ويسمى { أبا } أى : أبا الروح۰

وإنما قال بعض لأنه لم يستقص الآداب كلها كما تقدم، ولا الإطالة لأريناك منها أشياء كثيرة ، ولكن حيث اقتصر المصنف على ذلك ، فقد تابعناه وفى هذا القدر الكافى لأولى الألباب۰

ثم شرع في بيان ما هو كالعلة لتسميته ‘‘ أبا ‘‘ فقال :
{ وإن ذا } الأستاذ المربى المسمى أبا { نَسَبُهُ حقًّا علا } وشرف وكرم وارتفع۰
{ على أبى الصلب } أى : الجسم سمى الكل باسم الجزء { أيا من جَهَلا } قدره تأمل۰

قال الشاعر :
أقدم أستاذى على حق والدى * وإن نالنى من والدى العز والشرف
فذاك مربى الروح والروح جوهر * وهذا مربى الجسم والجسم كالصدف

إذا علمت ذلك، وعلمت أن له حقوقًا من جملتها هذه الآداب { فقم } أى : ائت { بها } كاملة من غير ترك منها أو إخلال به۰

ثم دعا له فقال { وفقت للمزيد } وإنما دعا له بالتوفيق إلى ما به المزيد إشارة إلى الحديث الشريف، وهو قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :
« من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم »۰

ثم دعا له أيضا فقال { ونلت } أى : أُعطيت { تقريبًا } أى : قربًا إلى المحبوب وبلوغ المطلوب { من } فضل وكرم { الحميد } وهو الله سبحانه وتعالى ، وهو من الأسماء الحسنى، ومعناه :
المحمود المستحق للثناء لاتصافه بالصفات الكمالية التى لا يصح الحمد معها حقيقة لغيره تعالى۰

ولذا قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا أحصى ثناء عليك أنت كما اثنيت على نفسك »۰
فهو الحامد والمحمود والحميد۰

ثم أخذ فى الاستدلال على وجوب جملة الآداب مع الاستاذ فقال :
{ وإن فى قصة موسى } بن عمران نبى الله ورسوله وكليمه - صلى الله عليه وسلم -٠
{ والخضر } - عليه السلام - ، وإنما سمى به لأنه كما قيل كان لا يقف فى مكان إلّا اخضر، وهو مختلف فى نبوته فضلًا عن رسالته ، ومع ذلك فقد أدى سيدنا موسى فى حقه أدبًا جميلًا جليلًا فى طلب ذلك العلم اللدنى، وشتان بين مقاميهما - عليهما السلام -٠

{ كفاية } تكفى وتغنى { لكل صب } أى : محب سلى جسمه بكثرة بكائه على فراق أحبته فكأنه صبه٠

{ معتبر } أى : ناظر بعين الاعتبار، وإنما اختار الصب لأنه أرق المحبين ذوقًا، وأحلاهم كلامًا، وأعلاهم تبصرًا فى الحال، وما زاد على درجته فى الحب فقد لا يعى، ومن تدانى فقد لا يفى، فهو الوسط قطع درجات الجهل بالمحبة، ولم يرتق إلى الوله وغيره٠

ووجه كون هذه القصة كافية فى ذلك ماحوته من عظيم أدب موسى مع الخضر - عليهما السلام - حالة اتخاذه له أستاذًا يعلمه العلم اللدنى إذ قد اشتملت على اثنى عشر أدبًا، وهاكها بالتمام كما قال فخر الراذى - رضى الله عنه - :

أحدها : أنه جعل نفسه تبعًا له لأنه قال : هل أتبعك ؟٠
ثانيها : أنه استأذن فى إثبات هذه التبعية فإنه قال : هل تأذن لى أن أجعل نفسى تبعًا لك، وهذه مبالغة عظيمة فى التواضع٠

ثالثها : أنه قال له : على أن تعلمنى، وهذا إقرار منه على نفسه بالجهل، وعلى أستاذه بالعلم٠

رابعها : أنه قال : مما علمت، وصيغة من للتبعيض ، فطلب منه تعلم بعض ما علمه الله تعالى، وهذا أيضًا مُشعر بالتواضع كأنه يقول له : لا أطلب منك أن تجعلنى مساويًا لك فى العلم ، بل أطلب منك أن تعطينى جزء من أجزاء علمك، كما يطلب الفقير من الغنى أن يدفع له جزء من أجزاء ماله٠

خامسها : أن قوله : مما عُلِّمت، اعتراف بأن الله علمه ذلك العلم٠
سادسها : أن قوله رشدًا، طلب منه الإرشاد والهداية، والإرشاد هو الأمر الذى لو لم يحصل لحصلت الغواية و الضلال٠

سابعها : أن قوله تعلمنى مما عُلِّمت، معناه : أنه طلب منه أن يعامله بمثل ما عامله الله به، وفيه إشعار بأنه يكون إنعامك علىَّ عند هذا التعليم شبيهًا بإنعام الله تعالى عليك فى هذا التعليم٠
ولهذا المعنى قيل : أنا عبد من تعلمت منه حرفًا٠

ثامنها : أن المتابعة هى الإتيان بمثل فعل الغير لكون ذلك فعلًا للغير كإتياننا بالصلوات الخمس لكون النبى - صلى الله عليه وسلم - أتى بها ، فيكون قوله هل أتبعك يدل على أنه يأتى بمثل أفعال ذلك الأستاذ لمجرد كون هذا الاستاذ آتيًا بها، وهذا يدل على أن المتعلم يجب عليه فى أول الأمر التسليم، وترك المنازعة والاعترض٠

تاسعها : أن قوله : أتبعك، يدل على طلب متابعته مطلقًا فى جميع الأمور غير مقيد بشىء دون شىء٠

عاشرها : أنه ثبت بالأخبار أن الخضر عرف أولا أنه نبى بنى إسرائيل ، وأنه هو موسى صاحب التوارة، وهو الرجل الذى كلمه الله - عز وجل - من غير واسطة وخصه بالمعجزات الباهرة ٠

ثم أنه - عليه السلام - مع هذه المناصب الرفيعة، والدرجات العالية الشريفة ، أتى بهذه الأنواع الكثيرة من التواضع ، وذلك يدل على كونه - عليه السلام - آتيًا فى طلب العلم بأعظم أنواع المبالغة، وهذا هو اللائق به لأن كل من كانت إحاطته بالعلوم أكثر كان علمه بما فيها من البهجة والسعادة أكثر فكان طلبه لها أشد، وكان تعظيمه لأرباب العلم أكمل وأشد٠

الحادى عشر : أنه قال : هل أتبعك على أن تعلمنى، فأثبت كونه تبعًا له أولًا ، ثم طلب ثانيًا أن يعلمه، وهذا منه ابتداء بالخدمة ثم فى المرتبة الثانية طلب منه التعليم٠

الثانى عشر : أنه قال : هل أتبعك على أن تعلمنى، فلم يطلب على تلك المتابعة على التعليم شيئًا، كأنه قال : لا أطلب منك على هذه المتابعة المال أو الجاه، ولا غرض لى إلا طلب العلم٠

قال السنوسى - قدس سره - :
ولينظر العاقل إلى ما فعله كليم الله تعالى - صلوات الله وسلامه عليه - مع الخضر عليه السلام عندما سمع من المولى - تبارك و تعالى - أنه خصه بعلم من لدنه، من إتعاب نفسه الشريفة بالسفر إليه حتى لقيه ، ثم تواضع له فى الكلام، والتمس منه أن يعلمه بصيغة الاستفهام لا بصيغة الأمر المستعملة فى الايجاب والاستعلاء٠

فقال - عليه الصلاة والسلام - : { هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا } ٠
فالتمس منه بطريق الأدب فى العبارة أن يكون تابعًا له متعلمًا منه٠

ثم لما قابله الخضر - عليه السلام - بأن أغلظ له فى القول إذ وصفه بعدم استطاعته الصبر معه، حاول - عليه الصلاة والسلام - بتواضع ولين والتزام له أن يطيعه فى كل ما يأمره به، كما هو شأن العبد مع سيده، فقال - عليه الصلاة والسلام - :
{ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا } ٠

فهذا التواضع وقع من هذا السيد فى علم لم يضطر إليه فى ظاهره ولا فى باطنه، وله الفضل العظيم والرتبة الفائقة من اصطفاء مولانا - جل وعلا - له على الناس برسالته، ومناجاته له بلا واسطة بكلامه القديم الذى لا مثيل له، وبالمعجزات الباهرة، والآيات العظيمة القاهرة٠

وقد ثبت أن له مع الله تعالى ألف مجلس فى المناجاه، وكل مجلس يمنح له فيه من العلوم ما يخرج عن حد الحصر، وقد ثبت أنه عند المناجاة يرفعه ويقربه حتى يسمع صريف الأقلام يكتب بها فى اللوح المحفوظ٠

وإلى هذا أشار القرآن بقوله تعالى :
{ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا } وقد نص بعض الأئمة على أن رتبته فى الفضل تلى رتبة أشرف الخلق وأكرمهم على الله - سيدنا ومولانا ونبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ٠

وهذا هو الذى يدل عليه حديث مسلم فى الشفاعة فى اعتذار سيدنا إبراهيم - عليه السلام - عندما تطلب منه الشفاعة فى الآخرة لأهل الموقف، بقوله :
إنما كنت خليلًا من وراء وراء ٠
قيل معناه : كنت خليلًا من وراء موسى كليم الله الذى هو وراء سيدنا ومولانا محمد - صلى الله عليه وسلم -٠

أنظر يا أخى بعين الاعتبارإلى هؤلاء الكرام وعظيم تواضعهم لله تعالى، ومحاسن آدابهم مع من لا يضطرون إليه من ذوى الفضل، ولا منة لهم عليهم، وعدم زهوهم وإعجابهم بما خصوا به من الفضل العظيم٠

ثم أنظر إلى أخلاقنا على ما نحن عليه من الجهل، نسأل الله العظيم بجاه نبيه الكريم أن يصلح فساد قلوبنا، وأن يوفقنا الى القيام بحقوق علمائنا، والتأدب بآدابهم، وبين أيديهم ، إنه جواد كريم رؤوف رحيم٠

أدب المريد مع إخوانه :

اعلم أن المريد لا يجب عليه التخلق بجميع آدابه مع إخوانه، لأنه مشغول بحق الله عن حقوقهم، فلا يقدر على الجمع بين حق الله تعالى وحق عباده، وإنما يؤمر ببعض أخلاق منها فى طريق الخلطة والمجاورة، ثم إذا انتهى سيره وبلغ مبلغ الرجال فهنا يطالب بالتخلق بأخلاق الكُمَّل كلها٠

وإيضاح ذلك أن الأخلاق المحمدية لا تخلع على أحد إلا إذا دخل حضرة الله تعالى الخاصة، التى يدخلها السالك عند كمال سلوكه فى العبادة، وتلك الحضرة يحرم دخولها على من بقيت فيه بقية من رعونات النفس، بدليل عدم صحة الوضوء لمَن ترك لمعة من أعضاء الطهارة لم يصبها ماء، ثم إذا استقر فى تلك الحضرة خلع عليه من الأخلاق المحمدية ما قسم له، فيرجع متخلقًا بها من غير تكلفة عليه فى ذلك٠

وأمر أن يعطى كل ذى حق حقه على الكمال ؛ من والد وزوجة وولد وصاحب وجار، ولو أمر فى بدايته بذلك لما قدر على السير فى الطريق، لضعفه عن الجمع بين حق الله تعالى، وحق عباده، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله٠

ولذا قال المصنف :
{ وما مع الإخوان يحتاج له فلا تكن عنه كقوم التهوا }
ولو أى شخص من الإخوان فى الله تعالى الذين هم أعرف منك بالسلوك، ومن قدمهم المشايخ احرص على متابعته والتمسك بأذياله وبخدمته، ولا تكن عنه أيها المريد السالك المحافظ النشط كقوم متقاعدين عن درجات النباهة جبنًا، التهوا عن اقتباس أنواره بأن سولت لهم أنفسهم بأنهم خير منه، ولم يصغوا إلى مشوراته ونصائحه، ولم يتذكروا أن الأستاذ الأكبر ما قدمه إلا لعلمه بأنه أقرب الإخوان إلى درجات الكمال، وأنه ذاق شيئًا مما سمعوا به ولا شموا شذاه فيحرمون، وما جزاؤهم إلا القطيعة والعياذ بالله تعالى٠

وقد بدأ المصنف ـ قدس سره ـ آداب الإخوان بحق أعظمهم ومقدمهم لأن رتبته فى تبعية المريد له كرتبة أستاذه، إذ هو القائم مقامه عند عدم وجوده٠
والمراد بالإخوان هنا : الداخلون تحت الأخوة الخاصة الحاصلة بالمواثيق والعهود، ويلزم كل من كان داخلًا مع آخر فى عهد أن يعينه بحاله وماله لينهض الأعلى منهم الضعيف٠

وإذا آخى الشيخ بين اثنين منهما على الخصوص تأكد ذلك عليهما، وقد ثبت أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ آخى بين كثير من أصحابه، وآخى بين سعد بن ربيع الأنصارى، وعبد الرحمن بن عوف، ولما آخى بينهما عرض سعد على عبد الرحمن أن يناصفه فى أهله وماله، وكان له زوجتان، فقال عبد الرحمن ـ رضى الله عنه ـ : بارك الله لك فى أهلك ومالك٠

وقد ورد فى فضل الأخوة فى الله تعالى أحاديث كثيرة :

قال - صلى الله عليه وسلم - : « ما تحابَّ رجلان فى الله تعالى إلا رفع الله لهما كرسيًّا فأجلسهما عليه حتى يفرغ الحساب »٠

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « استكثروا من الإخوان ؛ فإن لكل مؤمن شفاعة يوم القيامة »٠

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إذا آخيت رجلًا فاسأله عن اسمه واسم أبيه، فإن كان غائبًا حفظته، وإن كان مريضًا عدته، وإن مات شهدته »٠

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إذا أَحَبَّ أحدكم أخاه فى الله تعالى فليُعلمهُ فإنه أبقى فى الألفة، وأثبت فى المودة »٠

وقد حث عليها الشارع بقوله - صلى الله عليه وسلم - :
« رأسُ العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس، وإن أهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة، وإن أهل المنكر فى الدنيا هم أهل المنكر فى الآخرة، وإن صنائع المعروف تقى مصارع السوء »٠

وفى الحديث أيضًا : « إن من موجبات المغفرة إدخال السرور على أخيك المسلم »٠
وهذا صادق بزيارته، وتودده، وصنع المعروف معه، وإعانته على قضاء مصالحه، ورد غيبته لقوله - صلى الله عليه وسلم - :
« من ردَّ عن عرضِ أخيه بالغيب، ردَّ الله عن وجهه النار يوم القيامة »٠
أخرجه الترمذى وحسنه٠

فينبغى للمسلم أن يشتغل بعيب نفسه عن عيب أخيه، وأسرار العبيد يعلمها الله تعالى فربما يكون ظاهره لنا غير مرضى، وباطنه بينه وبين الله مرضى٠

وعن الحافظ ابن حجر، عن أنس - رضى الله تعالى عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « طوبى لمن شغلته عيوبه عن عيوب الناس »٠
قال : أخرجه البزار بإسناد حسن٠

قال العارف الشعرانى - رضى الله تعالى عنه - فى كتابه المسمى ب " الأنوار القدسية " :
وفى الحديث : « من نظر إلى أخيه نظرة ود غفر له »٠

ولا يسنح بك الحال عند سماع التشديد فى الوصية على المحافظة على ولاء المقدم من الإخوان فقط بل يتعداه إلى جميعهم٠

{ وكن أخى محبهم جميعًا } أى : من غير استثناء٠

بل يلزم الصادق أن ينزل الأكبر منهم منزلة الوالد، والمساوى منزلة الشقيق، والصغير منزلة الولد فى الرحمة به، والحنو عليه٠

{ وفى المراضى كن لهم مطيعًا }
المراضى : جمع مرضاة ضد المساخط، أى : الأمور التى ترضيهم مما لا معصية فيه، أو من الأمور التى ترضى الله تعالى، إذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق تعالى٠

فإن ذلك يوجب للمريد سرعة الترقى فى المقامات، فإنهم يكونون دائمًا له أعواناً دائمًا بالدعاء، لاسيما إذ كان منهم من هو من أصحاب المدد الذين سقوا من شراب الطريق، وانتهلوا من معارف التحقيق٠

{ وقدمن حاجاتهم على الذى تحتاجه تهدى الروض الشذى }
لتدخل فى مضمون قوله تعالى :
{ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } ٠

ولو على عبادته من سائر النوافل، لأن الخير المتعدى نفعه أفضل من القاصر على فاعله٠
ويؤنس أخاه المستوحش، ويؤمنه إن كان خائفًا، وقد ضمنت الآية للمؤثرين على أنفسهم الثواب٠

و{ إن خدمت } أيها المريد الصادق إخوانك فى حاجة من الحوائج كبيرة أو صغيرة٠
{ فاشهد } أى : أقر بقلبك، واعترف بلسانك أن { الفضل } أى : الكمال فى هذه الخدمة المتقدمة { لهم } لا لك٠

{ حيث لها ارتضوك تقضى ما لهم } فاختيارهم إياك لهذه الوظيفة من بين الإخوان، والتسبب لك فى نيل الثواب الجزيل المترتب على ذلك، سيما ما فيها من أسرار الطريق المسهلة لقطع العقبات٠

ومن أعظم المنن عليك التى يجب عليك شكرها، وشكر من وصلتك على يديه، فيجب على المريد أن يهتم بعد هذا الشاهد فيما أقاموه فيه من الخدمة بنفس خاضعة، وقلب صبور بلا غفلة عن أحد لاسيما من مرض منهم، وخصوصًا فى الليل حين ينام الناس، ويتركونه وليس له أهل ولا أولاد ولا أصحاب، فإنه يتعين عليك خدمته٠

وقد ورد : أن العبد يسئل يوم القيامة عن حقوق جميع إخوانه وأصحابه٠
ثم إن كان الفقير المريض ليس معه شىء ينفقه فى المرض، فينبغى لإخوانه أن ينفقوا عليه من مالهم، أو يقترضوا لذلك إن لم يكن لهم مال، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه٠

{ واجلس مع الكبار والصغار بأدب تنجو من الصَغَارِ } أى : الذل٠
فإذا رأيت صغيرًا فاحكم بأنه خيرًا منك باعتبار أنه أقَل منك ذنبًا، وإذا رأيت من هو أكبر منك سنًا فاحكم بأنه خير منك باعتبار أنه أقدم منك هجرة فى الإسلام، حتى لو رأيت كافرًا فلا تقطع له

بالنار لاحتمال أن يسلم ويموت على الإسلام، لأن الأمر غيب محض مفوض علمه إلى الله تعالى٠

{ وأن ترى خدمتهم هى الشرف، وبذلك الموجود ليس بالسرف }
وقد روى أن سيد القوم خادمهم، والسرف : هو ضد القصد، أى : الاقتصاد.
لأن حقيقة المسرف الذى يذهب بماله إلى المحظورات المنكرات شرعًا، وأما من ينفق ماله فى الطاعات فليس بمسرف، ولو جاد بمثل جبل أحد من الأموال، بل وبذل النفس التى هى أغلى من المال والبنين، وأعلى ليس بإسراف سيما فى أوقات المجاهدة.

قال تعالى : { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ } .

وقد ورد : أن خزانة الرزق معلقة على الإنفاق.
وكما قال سلطان العاشقين ابن الفارض - رحمه الله تعالى - :
ما لى سوى روحى وباذل نفسه * فى حب من يهواه ليس بمسرف.

{ ولا تكن معترضًا عليهم } أى : لا تعترض عليهم فيما يأتونه فإن الاعتراض أصل الطرد والحرمان، وطريق القوم مبنى على التسليم.

{ وفى الملمات افزعن إليهم } أى : الخطب المفزع المخيف.
ومن دهمه أمر بين إخوانه فزع إليهم، لأنه بالفزع إليهم يستوجب المساعدة بالقلب والقالب.
وفى بعض الروايات القدسية : [ادعونى بلسان الغير أستجب لكم].

{ وإن سئلت عنهم فأثنى كما قد اعتقدت }
أى : وإذا سألك أحدًا أيها المريد المحب لإخوانه عنهم أو أحدهم بالخصوص، عَدِّدْ صفاتهم الجميلة بأن تتكلم وقلبك شاهد بما ينطق به لسانك، فإن اللسان إذا خالف القلب كان نفاقاً.
ومتى كان اعتقاده فيهم غير الكمال فقد حرم بركة صحبتهم، بل يجب أن يثنى مع عقد القلب وربطه على ذلك ليكون فى كلامه حنيفيًا غير منافق، ولينتفع بصحبة الإخوان.

{ ولا تكن متهمًا وذب عن أعراضهم ما أمكنا } فإن ذلك يعتبر من سوء الظن بالناس.
قال تعالى : { إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ } .
وادفع كل سوء بغاية الجهد فلا تقبل طعنًا فيهم من طاعن، وحافظ على ذلك بغاية الإمكان فإن من لم يبذل جهده فى الذَّبْ عن أعراض إخوانه فهو فى زمرة المقصرين.

{ وصافهم سرًا كذا وعلنا }
وأخلص لهم الود فى السر وفى العلن، أى : يكون مخلصًا بالقلب واللسان.

{ وعند أهل الفقر جاء اتخذوا } { أياديا فيا أحبائى خذوا }

ثم أتى بما هو كالتعليل، فقال :
{ وكل من تلقاه } أيها المريد من إخوانك { سل } أى : اطلب { منه الدعاء }
والدعاء : هو الرغبة فيما عند الله تعالى.
قال تعالى : { ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً }
وقال تعالى : { وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا }

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « الدعاء مخ العبادة ».

وقال الإمام القشيرى - رحمه الله - : الدعاء مفتاح الحاجة، وهو مستروح أهل الفاقات، وملجأ المضطرين، ومتنفس ذوى المآرب.

واختلف القوم من أصحاب المقامات فى أنه : هل من الأفضل الدعاء، أم السكوت والرضا ؟

فمنهم من قال : الدعاء فى نفسه عبادة، كما قال النبى - صلى الله عليه وسلم - :
« الدعاء مخ العبادة » أى : خالصها.
فالإتيان بما هو عبادة فضل أفضل من تركه، ثم هو حق الحق سبحانه وتعالى فإن لم يستجب للعبد، ولم يصل إلى حظ نفسه فقد قام بحق ربه بإظهار فاقة العبودية.

وطائفة منهم : فضلوا السكوت، وقالوا : أن الخمول تحت جريان الحكم أتم، والرضا بما سبق من اختيار الحق سبحانه وتعالى أولى.
ولهذا قال الواسطى :
اختيار ما جرى لك فى الأزل خير لك من معارضة الوقت.

وقال - صلى الله عليه وسلم - مخبرًا عن الله تعالى :
« من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ».

وقال قوم : يجب أن يكون العبد صاحب دعاء بلسانه، وصاحب رضا بقلبه ليأتى بالأمرين جميعًا.
والأولى من ذلك كله أن يقال : أن الأوقات مختلفة ففى بعض الأحوال يكون الدعاء أفضل من السكوت، وهو الأدب.
وفى بعض الأحوال يكون السكوت أفضل من الدعاء، وهو الأدب.
وإنما يعرف ذلك فى الوقت لأن علم الوقت إنما يحصل فى الوقت، فإذا وجد بقلبه إشارة إلى الدعاء فالدعاء له أولى، وإذا وجد إشارة إلى السكوت فالسكوت له أتم.

وينبغى للعبد أن لا يكون ساهيًا عن شهود ربه سبحانه وتعالى فى حال دعائه.

ثم يجب عليه أن يراعى حاله :
فإن وجد أن الدعاء زيادة فى بسطه فى وقته، فالدعاء له أولى.
وإن عاد إلى قلبه فى وقت الدعاء شبه زجر ومثل قبض، فالأولى له ترك الدعاء فى ذلك الوقت.
وإن لم يجد فى قلبه زيادة بسط، ولا حصول زجر، فالدعاء وتركه ههنا سيان.

فإن كان الغالب عليه فى هذا الوقت العلم، فالدعاء أولى لكونه عبادة.
وإن كان الغالب عليه فى هذا الوقت المعرفة والحال أو السكوت، فالسكوت أولى.

أو يصح أن يقال : ما كان للمسلمين فيه نصيب أو للحق - سبحانه وتعالى - فيه حق، فالدعاء أولى، وما كان للنفس فيه حظ فالسكوت أولى.

وقد تقدم لك فضل الدعاء، وأنه خالص العبادة، فإذا كان بلسان غيرك فهو أفضل، أى : أقرب للإجابة، وأرجى للقبول لما ورد فى الحديث القدسى : « ادعونى بلسان الغير أستجب لكم ».
سيما إذا كان هذا عن ظهر الغيب، وخصوصًا إذا كان الداعى من الإخوان فإن إخلاصه فى محبة المدعو له، وكون طالب الدعاء محقًا فى الطلب معتقدًا فى الداعى، فإن جميع هذه الأسباب تستوجب القبول عند الله تعالى، والله تعالى أكرم من أن يرد دعاء قوم هذا حالهم مع سابق وعده بالإجابة لمثلهم، والله تعالى لا يخلف الميعاد.

ولذلك كان طلب الدعاء من الإخوان أدبًا من آداب الطريق عند القوم بل هو أهمها، إذ المقصود من الإخوة التعاضد فى الوصول إلى الله تعالى.

{ وفيهم قول الوَشا لا تسمعا }
بفتح الواو أصله الوشى قلب الياء ألفاً للتخفيف، وهو مصدر وشى الحديث أى : كذب فيه ونم، والواشى هو النمام.

وعلى كل فلا يجوز للمريد أن يسمع فى حق إخوانه ممن نقل إليه من النمامين شيئًا، بل يجب عليه أن يكذبه فيما نقله، ويقول له : يا فلان أنا من محبة إخوانى على يقين، وكلامك هذا ظن، وأنا لا أترك اليقين بالظن، وإن وقع فى قلبه أنه صادق، لأن من نقل إليك نقل عنك، وهى شهادة يؤديها إليه فى حق الإخوان من غير وجه شرعى، وإن كل نمام مسقوط العدالة شرعًا، والحق لا يخفى على ذى بصيرة.

ولما كان الإنكار على النمام حتمًا، أكد المصنف صيغة النهى، فقال :
{ لا تسمعا } أى : لا تسمعه سماع قبول، ولا تعمل بمقتضاه فإن ذلك خلاف الشرع الشريف.

{ وكل من آذاك } من الإخوان { فاصفح عنه } تكرمًا فإن ذلك أقرب لجلب المودة، وأجمل فى خفض الجناح، ولأن رأسمال المريد مسامحة إخوانه فى كل شىء آذوه به ؛ من فعل أو قول أو سوء ظن.

{ ولا تطالب } أيها المريد الصادق { مثل ذلك } الذى فرط { منه } نصرة للنفس، واسترسال فى شهواتها، وللمريد الصادق حرب مع نفسه لا يفتر عن ذلك لمحة، وإلا فهو فى بيت القطيعة ما ينفك عن الشهوات٠

ولذلك أكد المصنف بقوله :
{ والنفس } الأمارة بالسوء { لا تنصر إذا } أى : إذا حصل شىء مما تقدم منهم لك٠
{ عليهم } بل يجب أن ترجع إلى نفسك باللوم، وتقول لها : لقد صدق هذا فيما قال إذا تكلم بما تحقق، ونصح بما فيك٠

كما قال :
{ لو لم يكن حقًا بدا } أى ظهر وثبت { لديهم } لما تفوهوا بهذا الكلام ولا ادعوه عليك٠

{ ولا تقل } أيها المريد { هذا ثوبى ولا } هذا { متاعى }٠
كناية عن طلب إيثارهم على نفسك، فإنه يجب على المريد أن لا يعود نفسه التخصيص بما فتح الله به عليه من الحلال، ولو شيئًا كخيارة٠

فإن من آثر نفسه على إخوانه فى الشهوات لم يفلح أبدًا، وما صار الناس رؤساء فى الطريق إلا لكرمهم، وإيثارهم، وسلامة صدورهم من الحقد، والحسد والضغائن٠
وأن المريد متى أدخر نصفًا واحدًا على اسم حوائجه المستقبلة، مع حاجة أحد من إخوانه إليه خرج من وظيفة الفقراء، والكلام فى الحلال٠

أما ما فيه شبهة فلا يمسكه بحل، ومتى ترخص فى الإدخار تربى عنده الحرص والبخل، فيحتاج بعد ذلك إلى علاج شديد، ومن شك فليجرب٠

فاسمع واحرص على العمل بما تقدم فإنك إن فعلت { تفز } أى : تظفر بالمقصود٠

وإذا علمت ذلك :
{ فكن نحو المراضى ساعى } أى : قاصدًا وعاملًا٠

{ واستر عليهم ما ترى من زلة }
وهى الخطيئة، إذ يجب على المريد من جهة إخوانه أن لا ينظر إلى عورة، ولا زلة سبقت، إذ هو لا يأمن من الوقوع فى مثلها، فإذا وقع فى مثلها يحب من إخوانه أن يرحموه، ويعتذروا عنه، ويقولوا : بأن إبليس هو الذى أوقعه فى ذلك بإرادة الله تعالى، وأنه أوقع من هو أعظم منه فلذلك ينبغى له أن يعاملهم بعدم الإزدراء، وبإقامة العذر٠

وقد أجمعوا على أن كل فقير اطلع على شيء من عيوب الناس، ولو عن طريق الكشف فهو فى حضرة الشيطان لا فى حضرة الرحمن، ولا فى حضرة ملائكته، وكل كشف اطلع صاحبه على الشيء من عيوب الناس فهو كشف شيطانى يجب عليه التوبة منه.

فالواجب عليه أن لا يتعدى النظر إلى عورة نفسه لسترها، وأما عورة غيره فإن قدر على سترها سترها، وإلا غض عنها، فلا يطلع على عورات المسلمين إلا الشياطين.

{ ولا تعير واحدًا } أى : تلزمه العيب {ب} بسبب { علة } أى : مرض.
وهو على قسمين : مرض جسمى، ومرض قلبى.
فالتعيير بالأول يكاد يكون جنونًا محضًا، وليس الكلام فيه.

والتعيير بالثانى : وهو المرض القلبى الناشيء عن المعاصى ممنوع أيضًا سيما فى هذا الطريق.
وقد قال أهله : يجب على المريد عدم التعيير بالمعصية لأحد من إخوانه، وإن من تعرض للوقوع فى ذلك فقد تعرض للوقوع فى حق شيخه، فإن شيخه ربما كان له صبوة قبل دخوله الطريق كما هو الغالب فى أكابر أهل الطريق.
فقد كان الفضيل بن عياض من أكابر قطاع الطريق، وكان الشبلى واليًا بالبصرة.

وفى الحديث : « من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته فقد فضحه، ولو كان فى جوف رحله ».

فمن لم يستر إخوانه فى جميع ما يراه من عوراتهم مُنِعَ مددهم، والواجب على كل مريد أن يفر من مواطن التهم، فقد ورد : « من سلك مسالك التهم اتهم ولا أجر له ».
فيجب عليه أن يفر من صحبة الأحداث، والنساء، ودخول الحانات، إلى غير ذلك.

ولكن لا يجب السكوت، وعدم ابداء العيوب مطلقًا، بل إن ذلك لا يكون إلا فى مواطن مخصوصة، ويستثنى مواطن يجب فيها الزجر على رؤوس الأشهاد.
أشار إليها بقوله :

{ إذا كان بها مجاهرًا } أى : إلا إذا كان هذا الشخص مظهرًا لها بين الناس.
فإن ذلك يعد عدم مبالاة بأحكام الشريعة ونبذًا لها، وفيه من انتهاك حرمات الله تعالى، وخرق الشريعة، والتهاون بالمحرمات ما لا يخفى على العقلاء.

ومتى فعلت ذلك، وأمنت منه على النفس والمال والعرض { فكن له } أيها المريد المدافع عن حرمة الشرع الشريف { بين البرايا } أى : العوالم { شاهرًا } أى : مظهرًا، ولا لوم عليك.

فإن الجزاء من جنس العمل فمتى خرق المريد الإجماع، وشهر المعصية، ولم يبال بحقوق الخالق سبحانه وتعالى، ولا المخلوقين فقد أهدر الله حرمته، وأباح هتك ستره بين الناس، وكما يدين الفتى يدان.

وإنما أمر الشارع بزجره جهرًا { لعله يؤب } أى : يرجع عن التظاهر بالمحرمات٠
{ أو يتوب } عن ارتكابها أيًا كانت صغيرة أو كبيرة٠

ولا يحملنك ما تقدم على أن تبالغ فى الزجر فهمًا منك أن ذلك يؤدى إلى توبته، فإنك مهما بالغت فى الزجر والنهى فلا يثمر إلا { بعد إنقضاء ما } أى : الذنب٠
{ مكتوب } فى الأزل المسجل فى أم الكتاب، فإنا وإن نهينا عن ارتكاب المعاصى فليس لنا قدرة على العمل بالأمر والنهى إلا بتوفيق إلهى، ولا يكون إلا بعد تنفيذ ما حتم قدما٠

إنما لا ينبغى الارتكان على ذلك لأننا لا ندرى أكتب عليها شىء من ذلك وحتم أم لا، وغاية علمنا له بعد وقوعه منا، فيجب علينا أن نجاهد النفس عن الوقوع فى مثل تلك الموبقات، وما وقع بغير الاختيار يجب علينا منه المتاب فى الحال صغيرًا كان أو كبيرًا، والله تعالى يقبل التائبين قطعًا إذا خلصت ضمائرهم، ولا ترى آية من كتاب الله تعالى تدل على وعيد إلا ومستثنى فيها التائبون٠

{ وادع لهم خلوة } أى : عزلة عن الناس {و} فى { جلوة } عبارة عن أوقات الصفاء التى تنشرح فيها الصدور٠

إذ من آداب المريد أن لا ينسى إخوانه من الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة والعفو، كلما وجد الوقت صافيًا مع ربه عز وجل سواء كان فى ليل أو نهار، أو بسجود أو غيره، لأن من فوائده الوفاء بحقوقهم، ولقول الملك الموكل بالدعاء : ولك مثل ذلك، ودعاء الملك لا يرد٠

وقال سيدى علىِّ الخواص - رحمه الله تعالى - :
إذا وجد أحدكم الوقت رائقًا من الكدورات فليسأل الله تعالى المغفرة لجميع المسلمين من أهل عصره، وهذا من أعظم حقوق المسلمين٠

وفى الحديث : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »٠
وقال تعالى : { رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ } ٠
ويقاس عليه من تأخروا عنا بالإيمان أو ساوونا٠

ثم أن طلب المغفرة يكون على نوعين :
إما أن يحول بينهم وبين الوقوع فيما لا ينبغى٠
وإما أن لا يؤاخذهم إذا عصوا٠

{ وأخلص لهم } أى : الإخوان { فى الحب والمودة } بأن تكون محبتك فيهم، ومودتكم لهم لله تعالى لا لغرض دنيوى، ولا يكون ذلك منك ظاهرًا فقط، وقلبك يخالف ذلك فإن هذا هو النفاق المحض، نعوذ بالله منه٠

{ وإن نصحت } أيها المريد واحدًا من الإخوان { فانصحن برفق لهم } أى : لطف ولين، فاللين يجذب قلوب السامعين، والفظاظة تستوجب النفرة٠

قال تعالى لنبيه وحبيبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ :
{ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ } ٠
فليكن لنا برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسوة حسنة٠

والرفق محمود وهو يضاد العنف والحدة، والعنف نتيجة الغضب والفظاظة، واللين نتيجة حسن الخلق والسلاسة٠
ولذلك أثنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الرفق وبالغ فيه، فقال :
« يا عائشة إنه من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من خيرى الدنيا والآخرة »٠

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « تدرون من يحرم على النار يوم القيامة ؟ كل هين لين سهل قريب »٠
وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الرفق يمن والخرق شؤم »٠

وعن عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ : أنها كانت مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى سفر على بعير صعب، فجعلت تصرفه يمينًا وشمالًا، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يا عائشة عليك بالرفق فإنه لا يدخل فى شىء إلا زانه، ولا ينزع من شىء إلا شانه »٠

ولا يحملنك ما تقدم من الأحاديث على أن تفهم أن كل موضع يحمد فيه الرفق واللين، فإن ذلك من قصور العقل، ولكن كن كما قال سفيان لأصحابه : تدرون ما الرفق ؟
قالوا : قل يا أبا محمد٠
قال : أن تضع الأمور فى مواضعها، الشدة فى موضعها، واللين فى موضعه، والسيف فى موضعه، والسوط فى موضعه، فالمحمود وسط بين العنف واللين كما فى سائر الأخلاق٠

{ ولا تحسد } أحدًا منهم ولا غيرهم { على الترقى } فى مقامات القرب فإن فضل الله يؤتيه من يشاء٠
قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب »٠

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى النهى عن الحسد، وأسبابه، وثمراته :
« لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا »٠

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن لنعم الله أعداء، فقيل : ومن هم ؟
فقال : الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله »٠

وقال بعضهم : الحسد جرح لا يبرأ، وحسب الحسود ما يلقى٠
وقال أعرابى : ما رأيت ظالمًا أشبه بمظلوم من حاسد، إنه ليرى النعمة عليك نقمه عليه٠

وقال بعضهم : الحسود لا ينال من المجالس إلا مذمة وذلًا، ولا ينال من الملائكة إلا لعنة وبغضًا، ولا ينال من الخلق إلا جزعًا وغمًا، ولا ينال عند النزع إلا شدة وهولًا، ولا ينال عند الموقف إلا فضيحة ونكالًا٠

{ وكل من يقصد } من المريدين { أذى } أى : ضرر أحد من { إخوانه } الذين هم تحت إرادة شيخ واحد، أو غيرهم من المسلمين.

{ فإن ذا } أى : قصد الضرر بأحدهم { داع } أى : مؤدى { إلى هوانه } وذله، لأن من حفر حفرة لأخيه وقع فيها.

وقد شاهدنا من قصد أذى المسلمين فساءت حالته فى الدنيا، ولم يتحصل على شىء من قصده، وقد حيل بينه وبين ما يشتهيه، والحمد لله، ونرجو الله تعالى أن يصلح حالنا وحاله فى الآخرة إنه جواد كريم.

ولا يخفى أن كل فضيلة تقابلها رذيلة، وكل ثواب يقابله عقاب، وبضدهما تتميز الأشياء، وأنت تعرف فضل محبة الإخوان، ومحبة الخير لهم، وعظيم ثواب ذلك، كما وعدنا صاحب الشرع الشريف - صلى الله عليه وسلم -.

فلتنظر إلى مقابله من بغض الإخوان، وبغض الخير لهم، فضلًا عن السعى فى وصول الضرر إليهم، وما يترتب على ذلك من العقاب المبين فى وعيد الله تعالى، نسأله سبحانه وتعالى التوفيق لما يحبه ويرضاه.
وقصد الضرر دليل بغض الإخوان، وبغض الإخوان دليل على بغض الأستاذ.

كما قال المصنف :
{ ودل ذا منه على بغض أستاذه } وبغض الأستاذ هو علامة سوء الحال فى الدنيا، وربما سوء الخاتمة، وذهاب نور الإيمان منه، والعياذ بالله تعالى.

كما قال :
{ وبدر } أى : نور { ذا } المريد الذى خسر دنياه وآخرته، وبغض إخوانه وأستاذه.
{ قد أفلا } أى : غاب بعد السطوع، وأظلم بعد الإشراق، وخسف بعد النور.

ورب قائل يقول : إن هذا المسكين لم يتجرأ على الأستاذ وإنما بغض إخوانه، وأين الأخ من الوالد إذ ذلك بعيد فقد يتباغض الإخوان، والكل مصر على محبة والده.

فقد رد المصنف على ذلك بقوله : إن هذا الكلام لا حقيقة له إلا بحسب الظاهر فقط فدعواك محبة الوالد مع بغض الأخ يخالف إرادة أبيك، ولا يرضيه بل يغضبه فقد خالف فعلك قولك.

{ فإن من حب أبا حب الولد } إذ هذه القضية المسلمة بدون تردد، وقد أمر الله تعالى بها، ونهى عن غيرها.

{ ولا التفات } عند العاقل الناظر بعين قلبه، المطلع على أسرار أحكام الشريعة الغراء إلا.
{ لمن لهذا } القول الحق المؤيد بالبرهان { قد جحد } أى : أنكر.
فإن جحوده عناد بلا دليل أو سخافة عقل، نسأل الله أن يلهمنا حب الإخوان، وأن يحببهم فينا.

{ ولا يعود نفسه التخصيصا } فإن ذلك منشأ الحرص، لأن من آداب المريدين أن لا يروا لأنفسهم ملكًا يختصون به.
قال إبراهيم ابن شيبان : كنا لا نصحب من يقول نعلى.

وكان ابن أدهم إذا صحب إنساناً شارطه على ثلاثة أشياء :
أن تكون الخدمة والآذان له، وأن تكون يده فى جميع ما يفتح الله به عليهم من الدنيا ليده.
فقال رجل من أصحابه : أنا لا أقدر على ذلك.
فقال : أعجبنى صدقك.

{ إلا إذا لم يلتقِ } أن يرى من ذلك { محيصًا } أى : مخلصا، بأن اضطر إلى ذلك بإشارة باطنية، أو من أستاذ لحكمة فى السلوك رآها.

ثم علل ما تقدم بقوله :
{ فكل من تميزا من بينهم } بألف الإطلاق، أى : اعتزل وانفرد أو فضل نفسه عليهم.
{ شيطانه } المسلط عليه { به هَزَا } أى : سار، عبارة عن إغواءه إياه.

فكأنه دل به فى السير إلى مهمة الفساد ليلقيه فى بلايا حب النفس، وهذا من أعظم بلايا المريدين، وقل من يتنبه إليه.

وانظر أخى إلى من حاله التخصيص لنفسه بما فتح له من الدنيا، وبخل على إخوانه مع ما يرجوه من شفاعتهم له يوم القيامة، كما تقدم فى حديث : « فإن لكل مؤمن شفاعة » المتقدم.

وانظر إلى أى درك انحطت همته الفاترة، ثم انظر إلى من لا يلتفت إلى سىء الإشارة الشيطانية، بل آثر على نفسه وإن كان فى خصاصة من الجوع وقلة ذات اليد، كل ذلك فى محبة الإخوان، ولم يكترث بما تشوفت له نفوسهم من حطام الدنيا، بل لم يزل مسرورًا إذا رأى أحد الإخوان أخذ منه شيئًا كأنه يعطيه هذا الشىء مهما كان.

كما وصفه المصنف بقوله :
{ ولو يشاطره أخ } من إخوان التربية { فيما ملك } من المال كثيرًا أو قليلًا، حقيرًا أو جليلًا.
{ فلينشرح } صدره لذلك، ويفرح إذ هيأ الله له من دعاه إلى الثواب من الأحباء الأخصاء، ويرى الفضل لأخيه لأنه اختاره لهذه المكرمة، ولا يرى لنفسه عليه فضلًا أبدًا.

{ إن كان } ذلك المريد المعطى { ممن قد سلك } الطريق حقيقة.
فإن الكرم من شيم الواصلين، إذ قد أخذت عليهم العهود بذلك كما ذكره الشعرانى - قدس الله سره - فى عهوده.

{ ولا يوافق } أى : يطابق فى الكلام أو يعتقد { من عليهم حطا } أى : وضع بألف الإطلاق، عبارة عن رميهم بما لا يجوز مما يكرهونه، ولو أفضى ذلك إلى معاداة المتكلم.

إذ من آداب المريد الواجبة أن يعادى من عادى إخوانه بغير حق قيامًا بواجب حقوقهم، ولا يجوز له عداوته باطنًا إلا إن كان من أهل الكشف، وكشف له عن شقاوته والعياذ بالله تعالى.
لأن العداوة بالباطن أو للذات لا تجوز، بل المبغوض حقًا باطنًا وظاهرًا هى الصفات المذمومة، إلا للكافرين فإنهم علي ضد ذلك، فتجوز معاملتهم، ومجاملتهم باللسان لا غير، والميل إليهم قلبيًا ممنوع.

وحيث أنك أيها المريد الصادق مأمور فى هذا الطريق بحب الإخوان، والإخلاص فى ذلك ظاهرًا وباطنًا مع الغض عن عيوبهم إن ظهرت لك، لأنك لست مؤاخذًا بها فى الشرع الشريف عند الله تعالى، بموجب قوله تعالى : { وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } .
فيجب علك أيها المريد عدم تصديق من يحط على إخوانك.

{ وإن يكن } فى حقيقة الأمر أنه { فى حطه ما أخطأ } أى : مال عن الواقع.
فإن صدقه فى ذلك الوقت على يوجب على المريد موافقته، بل يجب عليه زجره ولو كان من أقرب الناس إليه.

كما نبه على ذلك المصنف مترقيًا فى النفى بقوله :
{ بل لو يكن } ذلك الحاط { واحد من إخواته } فى نسب الصلب الحقيقى.
{ فليزجرنه } عن التمادى فى الهجر من الكلام فى حق إخوانه.
{ وليفق } أى : يصحو { من سكرته } التى أغفلته عن حقوق إخوانه حتى صبر على سماع القبيح فى حقهم، وليتق الله تعالى، وفقنا الله تعالى لصالح الأعمال.

{ وليؤثرنهم } أى : يقدمنهم على نفسه { بالذى هو المُنى } لأن الإيثار على النفس خصلة العارفين، وقد أثنى الله تعالي على أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - بهذا الوصف فقال تعالى : { وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ } .

ثم عمم سبحانه وتعالى المدح لكل كريم خالف شح نفسه، وآثر رضاء ربه.
فقال عز من قائل : { وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } أى : الفائزون.

{ وليشهد } أى : يعتقد الفعل { القبيح } ظاهره الواقع { منهم حسنا } فى الباطن.
فإنه ما نظر منهم قبيحًا إلا أنه لم ينظر إليهم بعين الرضا، ولو نظر بعين الرضا لكان كل شىء منهم حسنا فى نظره.

والحاصل أن أدب المريد مع إخوانه فى صحبتهم، أن يكون كل شىء رآه منهم حسنا، فإن ذلك علامة الحب، فقد قالوا :
ومن الأدب أن ينبه إخوانه فى الأسحار، ويكون ذلك برفق، ويرى أن نومهم خير من عبادته لئلا يغتر بحاله، ولأن من رأى نفسه مساويًا لجليسه فمدده واقف لا يجرى عليه، أو أعلى من جليسه فلا يصعد إليه ذرة من مدده فلا يغتر بحاله٠
ولأن كل جليس رأى نفسه خيرًا من أصحابه فقد فسق فى طريق القوم، ولعن كما لعن إبليس بسبب قوله : أنا خير منه٠

وقال بعضهم : لا يصير الفقير فقيرًا حتى تصير نفسه دون كل جليس من المسلمين٠

{ ولا يعامل الأخ الصغير } من الإخوان { إلا كما يفعل بالكبير } من التعظيم، والإحترام، والتوسع فى المجلس، وأن يراه خيرًا منه باعتبار أنه أقل منه ذنوبًا، كما يرى أن الكبير خير منه باعتبار أنه عرف الله تعالى قبله٠

فإن المريد عليه واجب أن ينزل الكبير من إخوانه منزلة الوالد، والصغير منزلة الولد، والمساوى منزلة الشقيق، والأول أكمل فإنه إن فعل ذلك صار الوجود كله يمده، كما أن الذى يرى نفسه خيرًا منهم يصير الوجود كله يلعنه٠

ومن وصية سيدى أحمد الرفاعى - قدس الله سره - وهو محتضر :
من تمشيخ عليكم فتتلمذوا له، فإن مد لكم يده لتقبلوها فقبلوا رجليه، وكونوا آخر شعرة فى الذنب، ولا تكونوا رؤوسا فإن أول ضربة تقع فى الرأس٠

وقال له سيدى يعقوب الخادم : يا سيدى أوصنى٠
فقال له : كن خادمًا لإخوانك، مؤثرًا على نفسك، متحملًا أذاهم بعد ذلك، واحذر أن ترى نفسك أعلى منهم فتقع فى حفرة لا يساعدك منهم أحد٠

ثم قال : يا يعقوب انظر إلى النخلة لما قامت بصدرها وتعالت على جيرانها، جعل الله حملها فوق رأسها، ولو حملت مهما حملت لم يساعدها أحد، وانظر إلى شجرة اليقطين لما وضعت خدها فى التراب وتواضعت، جعل الله حملها على غيرها، ولو حملت مهما حملت لا تحس بثقله٠

قال - صلى الله عليه وسلم - : « من تواضع لله رفعه، ومن تكبر وضعه »٠

وقال ابن عطاء الله فى الحكم : ادفن وجودك فى أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه٠

{ وإن يَغِب أحدهم } عن الحضور إلى المجتمع لهم يجب { عليه } بحكم الطريق، وحكم الأخوة { أن يسأل عنه } من كل من له إلمام به من الناس سؤالًا متواصلًا إلى أن يعلم السبب فى انقطاعه ليداويه لا لمطلق سؤال٠

كما قال : { جهده } أى : غاية مبلغ همته، وهو المراد بقوله :
{ ما أمكنن } بنون التوكيل، أى : بغاية الإمكان.
والمراد : أن لا يتهاون فإن ذلك تقصير فى حق إخوانه، لأنه ربما وجد فى السؤال عنه وعلم العلة كان فى إمكانه متداواتها، فيثاب بما لا مزيد عليه فى الدنيا والآخرة.

كما قال :
{ وإن يكن قد علم احتياجه } إلى شىء من أمور الدنيا أوجب انقطاعه.
{ أسعفه } بما يسد به أوده { وقوم اعواجاجه } أى : يجب عليه ذلك.

ثم أتى بما هو كالتفصيل لمعنى الاحتياج، فقال :
{ وإن يكن من دينه قد حبسا } أى : بسبب ما عليه من المال للناس، منع من الحضور لاشتغاله بوفائه، وليس المراد الحبس المعلوم فقط.

{ سعى } بغاية جهده { فى الإطلاق } من هذا الحبس بأن يقضى عنه دينه إلى دائنيه.
{ بحب } أى : بسبب حب بالتنوين للتعظيم، أى : حب عظيم خالص فى الله تعالى.
أى : لا يكون لرياء ولا لسمعة بين الناس، ولا لأن يستذل به أخاه ويفتخر به عليه، ولا لأن يمن به عليه فإن ذلك محبط للثواب، وجالب للعتاب، وربما العذاب.
وقوله { أسسا } أى : وضع أساسه على تقوى من الله تعالى ورضوانه.

{ ثم يبش } دائمًا فى وجهه أو يتطلف فى المسئلة، ويقبل على أخيه ويضحك له، ويفرح بهم جميعًا إذ هم أصدقاؤه.
{ دائمًا } أى : فى كل مرة، وفى كل وقت لاقهم { فى وجوههم } فإن ذلك علامة حسن الخلق.
وقد قيل فى المثل : البشاشة خير من القرَىَ، والإنقباض عن رؤية الإخوان من غلاظة الطبع، وفظاظة القلب منشؤه غالبًا الحسد أو الكبر.

{ ومن يكن لهم } أى : للإخوان { بشىء يمتحن } أى : يختبر.
{ آذاهم } أى : فعل بهم المكروه، لأن الإمتحان تجسس فى المعنى على عيوب الإخوان، فكأنه سعى فى فضيحتهم.
وقد قال تعالى : { وَلَا تَجَسَّسُواْ }.

وليتأمل إن كان من ذوى الإنصاف أنه يكره أن يمتحن أم لا، فإن كان يكره هو ذلك فلأى شىء يؤذى إخوانه به، ومتى رأيت من الإخوان من يفعل ذلك ويتجسس ساعيًا فى أذى الإخوان، فناد عليه بالويل والثبور، واحكم عليه بخيبته وشقائه.

كما قال المصنف :
{ والمؤذى } للإخوان { بالقهر } أى : شدة الغضب من الله تعالى.
{ طحن } أى : هلك بأن خسر دنياه وآخرته، فإن بغض الإخوان من مورثات سوء الخاتمة، نعوذ بالله من ذلك.

{ ومن له إمامه } أى : شيخه الذى يقتدى به { قد قدما } بألف الإطلاق على إخوانه من المريدين، فقد صار { حقًا عليه } أى : على ذلك المريد الذى لم يتقدم.

{ أن لذاك } المتقدم الذى قدمه الأستاذ { يخدما } من الخدمة، وهى : السعى فى قضاء مصالح المخدوم، فإنه ما قدمه الأستاذ عليه إلا لعلمه أنه أفضل منه.

وربما وقع فى ذهنه أنه أفضل من ذلك المقدم فإن هذا قصور فى الفهم، فإن الأستاذ مأخوذ عليه عهد من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ينصح للأمة، وليس من النصح أن يقدم من لا أهلية فيه للتقدم.
ومتى ثبت أنه أولى بالتقدم كما هو نظر الأستاذ، فقد صار له حقوق غير ما تقدم ذكرها.

ذكرها المصنف بقوله :
{ وإن يكن } ذلك المريد { فى كل حال } من الأحوال ؛ كالجلوس فى الصدر، والتكلم على الإخوان { دونه } أى : أقل منه، فلا يتقدم عليه بشىء ما، ولا يساويه فإن ذلك من رؤية النفس، وهو نقص فى حق مريدى السلوك يجب تنزيههم عنه كما يحق وينبغى.

{ وليفتحن فى وجهه عيونه } فإن ذلك دليل على البشاشة، وحسن الخلق، وخلوص المحبة، وأما غض الطرف، والإطراق بالرأس فإنهما يدلان غالبًا على البغض، وربما كان للحياء، فإذا أخلص المريد فى الحب صفا وجهه عند رؤية إخوانه، والمقدم بالأخص.

ومن كلام أعراب البوادى عند القدوم على المضيف :
انظروا إلى حاجبه فإن كان مرفوعًا فقد وقفتم بساحة كريم، وإلا فانصرفوا فقد آذيتم الرجل. وعلى كل حال فهذا أمر معلوم مشهور، ولا يمكن إنكاره.

{ ومن له } من الإخوان { يؤذن } بسكون الميم، من قبل الأستاذ المربى.
{ ببدء } ذكر، و { ختما } بفتح التاء ضرورة، ومد الميم للقافية، أى : بافتتاحه واختتامه.

{ فما إلى أحدهم ذا } أبدًا، ومن منهم تقدم فقد تقيأ الد، فإن ذلك سوء أدب فى حق الأستاذ بعدم الاكتراث بأوامره.

وأدب المريد أن لا يتقدم إخوانه فى سوء الأدب مع الشيخ فإن حضرته من حضرة الله تعالى، ولا يليق سوء الأدب فى تلك الحضرة فإنه خروج عن حد المريدين، وخير له من ذلك أن لا يدخل هذا الطريق، أو أن يخرج منه كفافًا، وهيهات فليلزم حمية الوقوف على الحد مع مراعاة شروط الأدب.

فقد { ختما } أى : أوجب عليه ذلك وجوبًا محتمًا، أى : مقضيًا به قضاء باتًا لا محيص عنه.
{ وواجب عليهم } أى : عموم الإخوان { أن يقتدوا } بهذا المقدم الاقتداء التام فى جميع الأحوال.

{ كما على أستاذهم } الأكبر { لم يبتدوا } أى : لم يأتوا بشىء من قبل أنفسهم قبل أن يأمرهم به، فما وجب مما تقدم فى حق الأستاذ وجب لهذا المقدم بدون إخلال بشىء، فإن التهاون به تهاون فى حق أستاذهم، إذ هو الذى قدمه وأمرهم بالانقياد إليه فلا يبدؤن فى ذكر، ولا ورد بدون إشارته.

{ إلا إذا غاب } عنهم بحيث لا يمكنهم انتظاره بدون فوات الوقت.
فحينئذ { يجوز ذاك } أى : مجموع البدء والختم { لواحد } منهم { مقدم } فى العلم والعمل.
{ هناك } أى : فى جمعهم كترتيب إمامة الأفضل فالأفضل، والأحق فالأحق، ولا التفات إلى ذوى الأغراض.

{ ولا يوبخ مذنبًا } أى : على ما { مضى من ذنبه } بعد أن تاب وأقلع، فإنه ليس مأمونًا من الوقوع فى أخطر منه فيعود يكره ذلك منهم له، فلا يليق ذلك أبدًا.

قال تعالى :
{ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ }
وقال تعالى :
{ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جمِيعًا }
وقال تعالى فى عدة مواضع : { إِلَّا مَنْ تَابَ } .

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له ».
وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إذا تاب العبد أنسى الله الحفظة ذنوبه، وأنسى ذلك جوارحه، ومعالمه من الأرض حتى يلقى الله وليس عليه شاهد من الله بذنب ».

{ حيث جرى } به { حكم القضا } بالقصر، من الله تعالى، وهل للمحتم غير تنفيذه، فليرجع إلى نفسه باللوم فهى أحق لأن المؤمن مرآة المؤمن، ولا يرى الشخص فى المرآة غير صورته.

{ وليعتقد فى نفسه بأنه أقلهم } إن كان يريد الكمال { عسى } أى : إنه إن فعل ذلك يرجى له من فيض فضل الله تعالى بواسطة رضاء إخوانه أن { يفيض } أى : يمتلئ امتلاء زائد حتى يسيل كالوادى.

{ دَنه } بالفتح، أصله الراقود العظيم، والمراد به هنا القلب، والمراد بفيضانه امتلاؤه بالمعارف، والأسرار، واللطائف، والأنوار، وأنواع العلوم النقلية والعقلية والظاهرة والباطنة، من غير تعب، ولا أدوات تعليم بل بفضل الله تعالى، وسبب رؤية نفسه أقل إخوانه.

{ ولا يبح } أى : يبوح ويكاشف { بما له أسر أستاذه } من السر { لهم } جميعًا أو لأحدهم { فهذا ضره } كما تقدم إذ لا يجوز له ذلك، ولو نشروه بالمناشير فإن مبنى هذا الطريق على كتمان الأسرار٠

{ وهذه } الآداب المتقدمة من قوله : { وما من الإخوان يحتاج له } إلى هنا جزء صغير٠
{ من بعض أداب الأخ } الداخل معك أيها المريد تحت تربية شيخ واحد٠

{ فاحفظ } للعمل بها، والقيام بما فرضته، والترك لما نهيت عنه٠
{ وكن } أيها العاشق الوامق { بالروح } التى هى أعز وأنفس شىء فيك٠

{ فى الوصل } أى : القرب من المحبوب٠
{ سخى } بسكون الياء للقافية، أى : كريمًا باذلًا، فإن من بذل نفسه فى حب من يهواه لا يعد مسرفًا فى مذهب العشاق، بل لا يرون أنهم وفوا فيها حق الحب، وقبولها من المحبوب كرم وسعادة للمحب٠

آداب المريد فى نفسه :

شرع المصنف فى تعداد آداب المريد فى نفسه، فقال :

{ وإن ترد } أيها السالك { آدابه فى } ذاته من غير نظر إلى غيره { بها } أى : بسببها
{ التى ينال } أى : يفوز ويظفر ويصيب.
{ فيض } أى : امتلاء { قدسه } أى : قلبه المقدس المطهر عن الصفات الذميمة، امتلاء يزيد عن الحد حتى يتدفق على الأعضاء فيصير كله شخصًا ملكيًا، وباطنًا ملوكتيًا.

فهى آداب كثيرة جدًا لأنه كلما ترقى إلى مقام وجبت عليه آداب كثيرة بالنسبة إلى نفسه، وشيخه، ووقته، وربه - سبحانه وتعالى -، ونبيه - صلى الله عليه وسلم - ، وإخوانه، والمسلمين.

وقد ذكر المصنف - قدس سره - منها هنا ما يتعلق بالمريد فى حال بدايته إذ هو الذى يمكن الكلام عليه دون غيره، فقال :

{ الذل } المراد : به التذلل والخضوع بين يدى ربه - تبارك وتعالى -.
{ والفاقة } أى : شدة الفقر والاحتياج { ثم المسكنة } التى هى سكون القلب تحت جريان أحكام القدر.
فإن المريد المتصف بهذه الصفات يكاد يسلك الطريق فى أقرب زمن إذ له فى كل طرفة عين ترقيات فى المقامات.

{ وأخذه من كل شىء أحسنه } بأن لا يتتبع الرخص بل يأخذ بالأحوط فى دينه، ويخرج من خلاف العلماء إلى وفاقهم ما أمكن ، طالبًا وقوع عبادته صحيحة على جميع المذاهب أو أكثرها، فإن رخص الشريعة جعلت للضعفاء وأصحاب الضرورات والأشغال، وأما القوم ليس لهم شغل إلا مؤاخذة نفوسهم بالعزائم.

ولذا قالوا : إذا انحط المريد عن درجة الحقيقة إلى رخص الشريعة فقد فسخ عهده مع الله تعالى ونقضه.

ولا يتكبد المشقات التى لا يمكنه المداومة عليها إلا قليلًا حتى لا تسأم نفسه وتضعف قوته ، بل لابد له من الوسط بين التفريط بالأخذ فى الرخص، والإفراط بالأخذ بما لا يدوم مشقته، وهو المعبر عنه : بالأخذ من كل شىء أحسنه.

{ وترك حظه } أى : نصيبه { ومألوفاته } جمع مألوفة، وهى ما تميل إليه النفس وتشتهيه من ملاذ الدنيا، بأن يكون ورعًا عن الحرام والشبهات فى مأكله، ومشربه، ومنطقه، وسمعه، وبصره، ويده، ورجله، وقلبه، وفرجه٠

وعروة ذلك كله الورع فى اللقمة لأن الأعمال تنشأ من جوارح العبد على صورة اللقمة فى الحل والحرمة ، فلو أراد من يأكل الحلال أن يعصى تعسر عليه ذلك٠

قال ابن أدهم ـ قدس سره ـ : أطب مطعمك حلالًا، ولا عليك بعد ذلك أن لا تصوم النهار ـ يعنى نفلًا ـ، ولا تقوم الليل٠

وليحذر المريد من الورع رياء وسمعه للناس ، فإنه يزداد بذلك مقتًا، وذلًا ، وطردًا٠
{ وليجتهد } السالك الصادق { فى } ترك { ذا } المألوف على الوجه الموصوف { إلى وفاته }

وليحذر أن يقصد بذلك إلى وقت معين، كأن يقول أترك الحظوظ والمألوفات إلى أن يفتح لى ثم أفعل ما أشاء، فإنه إن فعل ذلك لا يكن تاركًا، إذ المراد إياس النفس من ذلك لا تشويفها اليه٠

{ ثم إلى الجلاس } أى : الجلساء كثيرى الجلوس معه { والحلاس } أى : الكبراء من الناس أو الأخلاء الذين لا يفارقونه أبدًا { يمسى مغيرًا } ومبدلًا ، ولو تأمل بعين قلبه، ونظر ببصيرته لرأى أن البدل خير من المبدل بما لا يتناهى كثرة٠

ألا تراه يترك جليسًا لا خير فيه إلى خير جليس وهو الله سبحانه وتعالى، وفراغًا لغوًا إلى شغل بذكر ربه، وصديقًا غير مخلص إلى نصوح أمين للأمة، يأمره بما ينفعه، وينهاه عما يضره، ويدل به إلى الرشاد، وغرضًا مذمومًا إلى غرض الفوز بالقرب فى الديار الجنانية،
وهكذا كل متروك من الأول معوض عنه بضده من الأفضل والأكمل ، بل مما لا يسوى ولا يساوى إلى ما بذل من النفوس فى طلبه، إلى خير تجارة رابحة إلى غير ذلك٠

{ كما } أى : مثل ما يجب عليه أن يغير { الأنفاس } إما أن يرد بها الكلام ، وإما أن يراد بها الأوقات، والتغيير على الأول بالأذكار والتلاوة ، والتغيير على الثاني بالعبادة فيها بأى نوع كان من أنواع العبادات٠
وعلى كل فلا يتم له واحد منها إلا بالتوبة، والإقلاع، والعزم على عدم العود إلى شىء من ذلك٠

{ مخالفًا } فى كل ما تقدم { لنفسه الأمارة } بالسوء، وهى عند القوم ما كان معلولًا من أوصاف العبد، ومذمومًا من أفعاله وأخلاقه، وكثيرًا ما يعبرون بها عن مبدأ الصفات المذمومة ، كقوله تعالى : { إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ }

ولذلك اعتدت من أكبر أعداء الإنسان لصعوبة الخلاص من شرها، ألا ترى أن الإنسان إذا صافى الأعداء سلم من شرهم، وإذا صافى نفسه أهلكته، ولذلك كان جهادها هو الجهاد الأكبر٠

ثم إن المعلولات من أوصاف العبد الشاملة لأفعاله وأخلاقه على ضربين :
أحداهما : ما يكون كسبًا له ؛ كمعاصيه ومخالفته أمر ربه كالزنا والسرقة.
والثانى : أخلاقه الدنياوية التى طبع عليها ؛ كالجبن، والجرأة، والميل إلى اللذيذ.

فهى فى نفسها مذمومة، ومع ذلك فإن عالجها العبد ونازلها، أى : تركها وانتقل عنها، تنتفى بالمجاهدة تلك الأخلاق على العادة المستمرة، وإن لم يتغير الطبع ، وهو الميل لكل لذيذ، والنفرة عن كل كربة.

والنفس الأمارة أحد النفوس السبعة التى قسمها الصوفية من علماء السادة الخلوتية.
وحيث وصلنا إلى هذا المقام وجب علينا تتميمًا للفائدة أن نتكلم عليها بما ينشط السامع، ويهيج الشوق، ويذكر أيام المحبة والصفاء والوداد.

فنقول وبالله التوفيق :

وصل :
اعلم أشرق الله قلبى وقلبك بأنوار اليقين ، وأفاض علىَّ وعليك من علوم العارفين، إن علماء الصوفية قسموا النفوس إلى سبعة، وبالحقيقة أنها نفس واحدة لكن تسمى باعتبار صفاتها المختلفة بأسمائها، وهذه النفس هى النفس الناطقة، وتسمى باللطيفة الربانية، فكلما اتصفت بصفة سميت لأجل اتصافها بها باسم من هذه الأسماء.

فإذا تدنست بالميل إلى الطبيعة، والركون إلى الشهوات، واتصفت بالبخل، والكبر، والحسد، والعجب، وسوء الخلق، ونحو ذلك من القبائح سميت أمارة.
قال الصديق الأكبر : { إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي } .

ولما سكنت تحت الأمر التكليفى، وأذعنت لاتباع الحق، وعرفت ما ينفعها وما يضرها، لكن بقى فيها ميل للشهوات النفسية سميت لوامة.

فإن زال هذا الميل، وقويت على معارضة النفس الشهوانية، وزاد ميلها إلى عالم القدس، وتلقت الإلهامات، وفهم الدسيسات سميت ملهمة.

فإذا سكن اضطرابها، وخشع هيجانها، ولم يكن للشهوات حكم عليها بل نسيتها بالكلية، وزالت عنها الصفات الذميمة سميت مطمئنة.

فإذا ترقت عن هذا، وسقطت المقامات من عينها، وفنيت عن جميع مراداتها سميت راضية.

فإذا زاد هذا الحال عليها، وهو التعلق بالله تعالى وطلب رضاه، حتى يتساوى عندها وصله وجفاه، سميت مرضية عند الحق والخلق.

فإذا أُمرت بالرجوع إلى العباد بإرشادهم، وبسلوكهم، وتكميلهم سميت كاملة.

وسمى ذلك عندهم بالمقامات، فطريق الله تعالى منازل عند أهلها يقطعها السالك واحدة بعد واحدة إلى أن يصل إلى آخرها، فينقطع السلوك، ولا تنقطع التجليات ولو بعد الموت.

فالمقام الأول منها : مقام ظلمة الأغيار، ويسمى بالنفس الأمارة.
والثانى : مقام الأنوار، ويسمى بالنفس اللوامة.
والثالث : مقام الأسرار ، ويسمى بالنفس الملهمة.
والرابع : مقام الكمال، ويسمى بالنفس المطمئنة.
والخامس : مقام الوصال، ويسمى بالنفس الراضية.
والسادس : مقام تجليات الأفعال، ويسمى بالنفس المرضية.

والسابع : مقام تجليات الأسماء والصفات، ويسمى بالنفس الكاملة.

وكلما كان الإنسان فى مقام من المقامات كان محجوبًا به عما بعده :
فمن كان فى المقام الأول فهو محجوب بالأغيار عن مشاهدة الأنوار٠
ومن كان فى المقام الثانى فهو محجوب بالأنوار عن الأسرار٠
ومن كان فى الثالث فهو محجوب بالأسرار عن الكمال٠
ومن كان فى الرابع فهو محجوب بالكمال عن الوصال٠
ومن كان فى الخامس فهو محجوب بالوصال عن تجليات الأفعال٠
ومن كان في السادس فهو محجوب بتجلي الافعال عن تجلي الاسماء و الصفات
ومن كان فى السابع فهو محجوب بتجلى الأسماء والصفات عن تجلى الذات، وهو شىء لا يمكن مع أن القوم يذكرونه ويعرفونه٠

واعلم أن بين العبد وربه سبعين حجاباً من ظلمة ونور، وهى راجعة إلى العبد، لأن الله تعالى لا يحجبه شىء٠
والمراد من الحجب عند المحققين : بعد المناسبة، فافهم ذلك فإنه دقيق٠
ولا تعتقد أن الحجب أمور حسية، ولا البعد بعد مسافة كما يفهمه القاصرون، فإن الله تعالى منزه عن البُعد والقرب الحسيين، ومنزَه عن الجهة والمكان والزمان٠

وسلوك الطريق جُعل لتمزيق الحجب السبعين، وهى ترجع إلى السبعة مقامات المذكورة، فالنفس فى كل مقام محجوبة بعشرة حجب، الحجاب الأول منها أكثف من الثانى، والثانى أكثف من الثالث، وهكذا إلى العاشر٠

وكذلك حجب كل نفس أكثف من حجب النفس التى بعدها إلى النفس السابعة٠

فالمقام الأول النفس الأمارة :

فسيرها إلى الله، وعالمها عالم الشهادة، ومحلها الصدر، وحالها الميل، وواردها الشريعة، وجنودها البخل، والحرص، والحسد، والكبر، والشهوة، والغضب، وسوء الخُلُق، والشهرة، والغفلة، والخوض، والإيذاء باليد واللسان، والاستهزاء، والبغض، وغير ذلك من القبائح٠

وذلك لأنها واقعة فى ظلام الطبيعة، فلا تفرق بين أهل الحق والباطل، ولا تميز بين الخير والشر، ولا يقدر الشيطان اللعين على الدخول على الانسان إلا بواسطتها، فكن منها أيها الأخ على حذر، ولا تأمن لها، ولا تساعدها، ولا تنتصر لها إذا آذاها أحد بل كن معينًا له عليها٠

وحيث تيقنت عداوتها لزمك تقليل الطعام والشراب والمنام، لتضعف هذه النفس الشهوانية الحيوانية، لأنها إذا ضعفت هان الخلاص منها٠

وليكن ذكرك فى هذا المقام " لا إله إلا الله " ، وليكن بمد لا، وتحقيق همزة إله، وفتح هائه فتحة خفيفة وتسكين آخر لفظ الجلالة، وعدم الفصل بين الهاء وقولك إلا الله، وإياك أن تتهاون فى تحقيق همزة إله فإنك إن لم تحققها قُلبت ياء، وصار الذكر " لا يلاه يلا الله "، وهذه ليست كلمة التوحيد فلا ثواب فى تكرارها٠

فأكثر منها فى القيام والقعود والاضطجاع فى جميع الأوقات، وذلك بالجهر والقوة فإن التأثير المطلوب من هذا الاسم لا يحصل إلا بالإكثار والجهر آناء الليل وآناء النهار ، فإن الذكر بالسر والهوينا لا يفيد رقيًا، ويطول به الطريق على السالك ، بخلافه بترك الغفلة مع الاستحضار والجهر، إذا دام على ذلك ملأ قلبه بالانوار، وأودع فيه الأسرار٠

وهذا الذكر الذى سماه الله فى كتابه العزيز بكلمة التقوى، والكلم الطيب، والشجرة الطيبة، والعروة الوثقى فهو أفضل الأذكار، وهو حصن الله تعالى٠

قال ـ صلى الله عليه و سلم ـ عن الله ـ عز وجل ـ قال :
« لا إله إلا الله حصنى فمن دخل حصنى أمن من عذابى »٠

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا إله إلا الله أفضل الذكر وهى أفضل الحسنات أسعد الناس بشفاعتى من قالها خالصًا من قلبه ، ما من عبد قالها ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة، وإن زنى وإن سرق، وإن زنى وإن سرق، وإن زنى وإن سرق »٠

والملازم على هذه الكلمة يرى لها من الأسرار ما لا يدخل تحت حصر، وتورثه التوحيد الخاص المعروف عند القوم٠

فادخل يا طالب الخلاص حصن مولاك، وخلص نفسك من سجن الطبيعة لتنال المقامات الرفيعة ، مع المجاهدة وأكل الحلال ، واصقل مرآة قلبك ليزول عنها الرين المانع لها عن إدراك حقائق الأشياء، و عن فهم دقائق العلوم لأن مرآتك وأنت فى هذا المقام قد علاها الصدأ من الكبر، والفجور، والطمع، والعجب، والشهوة، والشهرة، والحقد، والحسد، والغضب، وسوء الخلق إلى غير ذلك مما تعرفه من نفسك من الجهل والغرور٠

فالواجب الأهم فى هذا المقام الخلاص من هذه النجاسات التى حجبت القلوب عن مطالعة الغيوب بالذكر الكثير٠

(تنبيه) لا يجوز للشيخ المسلك أن ينقل مريده من الاسم الأول إلى الاسم الثانى حتى يطهر من لوث دنس الأغيار، وتتنور ظلمة ليل وجوده بأقمار معارف الأنوار، ويغيب فى وجوده عن مسماه فى شهوده، فلا يزال فى معراج هذا الاسم صاعدًا، وبالاشتغال لنيران اشتعال قلبه واقدًا، حتى تناديه روحانياته من غير حجاب، و مخاطبة بأفصح خطاب، فحينئذ يشرف على عالم شهادته، ويلبس خلع سيادة سعادته بعد نزع صفات طبائع عادته٠

فإذا اشتغلت في خلاص نفسك من هذه الآفات، وبدلت أوصافها الذميمة بأحسن صفات حميدة، شاهدت بعض العجائب المكنونة، والأسرار المخزونة فى صدف البشرية٠

المقام الثانى النفس اللوامة :

فسيرها إلى الله، وعالمها عالم البرزخ، ومحلها القلب، وحالها المحبة، وواردها الطريقة، وصفاتها اللوم، والفكر، والعجب، والاعتراض على الخلق، والرياء الخفى، وحب الشهرة، والرياسة ٠

وقد بقى معها بعض أوصاف النفس الأمارة، لكن مع هذه الأوصاف ترى الحق حقًا والباطل باطلًا ، وتعلم أن هذه الصفات مذمومة، ولا تقدر على الخلاص منها، ولها رغبة فى الطاعات، والمجاهدات، وموافقة الشرع، ولها أعمال صالحة من قيام، وصيام، وصدقة، وغير ذلك من أفعال الخير ٠

لكن يدخل عليها العجب والرياء الخفى، فيحب صاحب هذه النفس أن تطلع الناس على أعماله الصالحة مع أنه يخفيها عنهم، ولا يظهرهم عليها، ومع ذلك يكره هذه الخصلة، ولا يمكنه قلعها من قلبه بالكلية، ولو أمكنه ذلك كان من المخلصين، والمخلصون على خطر عظيم ٠

قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون هلكى إلا العاملين، والعاملون هلكى إلا المخلصين، والمخلصون على خطر عظيم » ٠

وذلك لأن المخلص يحب أن يكون معروفًا بالإخلاص، وهذا هو الرياء الخفى عند المحققين، لأن الرياء الجلى العمل لأجل الناس، وهو الشرك الأكبر ٠

فإن كنت متصفًا بهذه الصفات فأنت فى المقام الثانى، ويقال لنفسك لوامة، وهو مقام لا يسلم صاحبه من الخطر، ولو أخلص فى أعماله، وهو مقام ثانى بالنسبة إلى سلوك المقربين الطالبين الفناء عن نفوسهم، والبقاء بربهم، الذين أمروا بالموت قبل انقضاء آجالهم، فقال لهم سيدهم : موتوا قبل ان تموتوا، فسعوا على موت نفوسهم ٠

وأما بالنسبة إلى الأبرار أهل اليمين فهو آخر منازلهم، وأعلى مقاماتهم، ولذلك قالوا :
" حسنات الأبرار سيئات المقربين " لأن المقربين لا يقفون عند هذا المقام الثانى، بل يطلبون غيره إلى أن يصلوا سابع مقام، فيكون لهم بعد ذلك خمسة مقامات أخر ٠

وإنما لم يقف المقربون فى هذا المقام الثانى لما فيه من الخطر العظيم، لأن أعلى درجات هذا المقام الإخلاص، والمخلصون على خطر عظيم، ولا يكون الخلاص من هذا الخطر إلا بالفناء عن شهود الإخلاص بشهودهم أن المحرّك والمسكّن هو الله تعالى شهود ذوق، وهذا الشهود متوقف على سلوك طريق المقربين ٠

وأن الأبرار لا تصل إليه ولا تشم رائحته، لأنهم نظروا أنهم أوجدوا أعمالهم فطولبوا بالإخلاص، ولم يشهدوا أن الله تعالى خالق الأفعال كلها فوقفوا بالعناء والتعب ، وصار أحدهم لو دخل فى جحر ضب لقيض الله له من يؤذيه، وذلك لما فيه من الشهوة المقتضية للعجب، والكبر، وسوء الخلق ،

ونحو ذلك، وهذه الأشياء مقتضية للتعب، والعناء، وضيق الصدر ٠

وضرب أحدهم مثالًا يوضح الفرق بين الأبرار والمقربين، وبين تعب هؤلاء وراحة هؤلاء، فقال :
مثال ذلك كشجرة عظيمة خبيثة كثيرة الأغصان، كل غصن منها يثمر نوعًا من السم القاتل، فجاء أناس فاشتغلوا بقطع تلك الاغصان، ولم يلتفتوا لقطع تلك الشجرة من أصلها، ولا لقطع الماء عنها لتيبس، وأرادوا التخلص منها فلا يمكنهم الخلاص، لأنهم كلما قطعوا غصنًا نبت غيره لبقاء الشجرة ودوام سقيها.

والآخرون اشتغلوا بقطع الماء عنها ، فضعفت ولم تثمر، فتخلصوا منها وأراحوا نفوسهم من تعب هؤلاء، فالشجرة مثل بطن الانسان، والمأكل مثل الماء، والأغصان مثل الصفات الذميمة كالكبر والحسد، والثمرة مثال لما يحصل من هذه الصفات من الآثار فى الخارج.

فالأبرار لما علموا أن هذه الصفات مهلكة للإنسان فى الدنيا والآخرة ، سعوا فى إزالتها شيئًا فشيئًا، ولم يقدروا على الخلاص منها بالكلية، لأنهم كلما ملؤوا بطونهم بالشهوات تقوى بشريتهم، ويتمكن منهم الشيطان، ولما علموا بالدليل والتجربة أن البطن هى منبع الفساد والصفات الذميمة، سعوا فى الخلاص من شره بالجوع والمجاهدة فتخلصوا من جميع تلك الصفات.

فإذا أردت الانتظام في سلكم، والخلاص من جميع الآلام، والراحة على الدوام، فاسلك مسلكهم، واقف آثارهم بالترقى من مقام إلى مقام حتى تصل إلى المقام السابع، ففيه ترى العجائب.

والترقى يكون بالمجهادة والاشتغال بالأسماء، ففى كل مقام تشتغل فيه باسم مخصوص بذلك المقام ، وكلما أكثرت من الاشتغال به قرُب عليك الفتح فى الطريق، وكلما توانيت وأهملت وتراخيت بَعُد عليك.

واشتغل وأنت فى هذا المقام بالاسم الثانى وهو " الله " بسكون الهاء، كذا بسكون آخر كل اسم من السبعة، وأكثر منه فإنه لا ينفع، ولا يظهر العجائب إلا الإكثار آناء الليل وآناء النهار.

واجعل لك أوقاتًا تجلس فيها مستقبل القبلة إذا أمكنك، وغمض عينيك، واذكر هذا الاسم بشدة وقوة و رفع صوت، وارفع رأسك إلى فوق، واضرب به على صدرك، ولا تلتفت يمينًا ولا يسارًا، وحقق همزة " الله " ، ومد الألف قبل الهاء الساكنة، وإياك أن تفضى بك العجلة إلى أن تقول " هلا هلا "، ولا يكون لك ذلك إلا إذا تركت تحقيق الهمزة.

واعلم أنه ليس فى الأذكار كلها أوسع مددًا، ولا أقرب تأثيرًا منه فى ذلك المحل ، فيطلع الذاكر بالإكثار على الأحوال الغيبية والأسرار الملكوتية، وما لا يدخل تحت حصر.

وبالحقيقة هو اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى، بشرط أكل الحلال، والمشى على طريق الكمال، فعليك بالإكثار من هذا الاسم ، فإنه سيد الأسماء، ومحط رحال العلماء، الذي يشير اليه الأولياء، ويتحلى به الأصفياء.

ثم اعلم أنك فى هذا المقام تكون كثير الخواطر، كثير الوسواسة، ولهذا الاسم نار تحرق ذلك، فكن مكثرًا منه ولا تبال بالخواطر ، فلا يمكنك الخلاص منها بالسرعة لأن مرآة قلبك متوجهة للخلق، ولا شك أن المرآة إذا توجهت إلى شىء انتقش ذلك الشىء فيها، فإن كنت متعطشًا إلى زلال الوصال فاترك الخلق و جميع اللذات ، ولازم المجاهدة التى تنتج المشاهدة ، فإذا أردت المقامات العلية فاترك الخلق بالكلية، وانس جميع أصحابك وأهلك، واشتغل بربك وهو الفتاح العليم، وهذا المقام أول مقامات المقربين.

والمقام الثالث النفس الملهمة :

فسيرها إلى الله بمعنى : أن السالك لا يقع نظره فى هذا المقام إلا على الله، لظهور الحقيقة الإيمانية على باطنه، وفناء ما سوى الله فى شهوده٠

وعالمها عالم الأرواح، ومحلها الروح، وحالها العشق، وواردها المعرفة، وصفاتها السخاء، والقناعة، والعلم، والتواضع، والصبر، والحلم، وتحمل الأذى، والعفو عن الناس، وحملهم على الصلاح، وقبول عذرهم، و شهود أن الله آخذ بناصية كل دابة، فلم يبق له اعتراض على مخلوق أصلًا٠

ومن صفاتها : الشوق، والهيام، والبكاء، والقلق، والإعراض عن الخلق، والاشتغال بالحق، والتلوين، وتعاقب القبض والبسط، وعدم الخوف والرجاء، وحب الأصوات الحسنة، وزيادة الهيمان عند سماعها، وحب الذكر، وبشاشة الوجه، والفرح بالله، والتكلم بالعلم والحكم والمعارف والمشاهدة٠

وسميت ملهمة لأن الله تعالى ألهمها إما فجورها أو تقواها، لقوله تعالى :
{ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا*قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا } أى : طهرها بالمجاهدة بإلهام ما تتقى الله به٠

واعلم أنه لا يكون الخلاص من هذا المقام إلا بأنفاس المسلك ليخرجه من ظلمات الشبهات إلى نور التجليات لأنه وهو فى هذا المقام ضعيف الحال، لا يفرق بين الجمال والجلال ، ولا بين ما ألقاه الملك، وما ألقاه الشيطان، لأنه لم يخلص من الطبيعة بالكلية، ولم تسلب عنه جميع مقتضيات البشرية ، ويخشى عليه إن غفل عن نفسه أن يهوى إلى سجين وأسفل سافلين٠

أعنى المقام الأول الذى تسمى فيه النفس بالأمارة ، فيرجع إلى ما كان عليه من الأكل الكثير، والشرب الكثير، والنوم الكثير، والاختلاط مع الخلق، وربما يفسد اعتقاده ويترك الطاعات، ويرتكب المعاصى، ويزعم أنه موحد مكاشف بحقائق الأشياء، وأنه من المحققين، وأن غيره من أهل الطاعات محجوب عن هذا الشهود٠

فإذا فسد اعتقاده، والتحق بالكفرة المشركين والعياذ بالله، ضاع تعبه وعناه، وما بلغ شيئًا من مناه ، فظن أن التخيلات الشيطانية تجليات رحمانية٠

فالواجب عليك أيها الاخ متابعة الشيخ، وإن سولت لك نفسك أنك أعلى منه، وأنك موحد وأنه محجوب٠
ويجب عليك أيضًا اتباع الشرع وملازمة الأدب، وأن تكره نفسك على ملازمة الأوراد وتقيدها بقيود الطريق، لأنها فى هذا المقام ميالة إلى الإطلاق وخلع العذار وعدم المبالاة، والمقصود مخالفتها إلى أن تطمئن، وذلك بالوصول إلى المقام الرابع الذى تسمى فيه النفس بالمطمئنة، ففيه سعادة الدارين وقرة العين٠

ومتى وضع السالك قدمه فيه خلص بعون الله تعالى من جميع الآفات النفسانية، لأنه ترقى إلى أول درجات الكمال، وهبت عليه نسمات القرب والوصال، وانتقل من التلوين إلى التمكين، فلا يحتاج إلى مسلك فيه إلا القليل من السالكين.

فانهض من رعونات النفس، ولا تغتر بما لاح لك من التوحيد، فإنه سبب لرجوعك وانقطاعك عن مطالبك العلية، مستعينًا به تعالى على تمزيق ما بقى من الحجب النورانية، واطلب الحضرة الأحدية.

وتعلق بأذيال شيخك، ودم على ماكنت تفعله من تقليل الطعام والمنام، وتقليل الاجتماع بالناس، ولا يغلب على ظنك أنك أعلم من شيخك فتحرم المدد منه، واجزم بأن خلاصك على يده، وتحمل ما تلقاه منه من الأذى، وكن بين يديه كالميت بين يدى الغاسل، وإياك أن تنكر عليه حالة من حالاته.

وبالجملة فإن هذا المقام الثالث مقام تزل فيه الأقدام، جامع للخير والشر، فإن غلب خير النفس على شرها ترقت إلى المقامات العلية، وإن غلب شرها على خيرها نزلت إلى سجين الطبيعة، وأرض القطيعة، وأسفل سافلين، فيجب عليك حينئذ إتعاب النفس وتحقيرها.

وعلامات غلبة الخير على الشر ؛ أنك ترى باطنك معمورًا بالحقيقة الإيمانية، بأن تعتقد بأن جميع ما فى الوجود جارٍ على وفق إرادة الله، مقدور بقدرته تعالى، وأن يكون ظاهرك متلبسًا بالطاعات، مجتنبًا جميع الكبائر والصغائر، كثير الاجتهاد.

وعلامة غلبة الشر على الخير ؛ أن تترك الطاعات، ولا يكون ظاهرك معمورًا بالشريعة، وفيه ضد ما تقدم.

ثم اعلم أن رضا الله تعالى وتجلياته لا تصل للعبد إلا من باب الطاعات، وأن سخطه وطرده وبعده لا يصل إليه العبد إلا من باب المعصية، ولقد أخفى الله سبحانه وتعالى غضبه فى معاصيه، ورضاه فى طاعته ، فقف على باب الشريعة وآدابها وقفة الذليل، واسأل مولاك.

واستعن على مطالبك بتلاوة الاسم الثالث وهو " هو " تظهر إن شاء الله على الهوية السارية فى جميع الموجودات، لا بشرط شىء، ولا بشرط لا شىء، وليكن أولًا بياء النداء ثم بدونها، وتكثر من تلاوته فى جميع الأوقات، فى القيام والقعود والأضطجاع، آناء الليل وأطراف النهار، لتخلص ببركته من خطر هذا المقام، به ينقطع ما بقى من التعلقات بالنفس إلى المقام الأول والمقام الثانى، لأنها لا تخلو من الالتفات إليهما لأن الطبع يغلب التطبع، وهى تترقب غفلتك، فمتى غفلت عن سوقها و زجرها عادت لألفها.

وسوقها فى هذا المقام بالعشق والهيمان، والشوق إلى الوصال، والاجتماع مع الأحباء، والتذكر بمقام المحبوب، والتمتع بجمال المعشوق، فإن هذه الأشياء تقوى السالك على السير، خصوصًا إذا رأى نفسه رجع إلى ورائه.

واعلم يا حبيبى أنك فى هذا المقام تحتاج إلى خلع العذار، واسقاط حرمتك من أعين الناس حتى لا يكون لك عندهم قيمة ولا قدر ولا ذكر ، لانه بهذه الأشياء يلتذ العاشقين، وبها يُعلم الصادق من الكاذب.

فاخلع العذار ولا تخش من العار، فإنك فى هذا المقام مقام العشق، والعاشق لا يعسر عليه خلع العذار، فإذا أتممت خلع العذار ماتت نفسك الشيطانية القاطعة لك عن مرادك، ويحصل لك خطاب الروحانين بأمر أو نهى أو خبر، فلا تلتفت إلى شىء من ذلك.

وفائدة خلع العذار : قطع الموانع التى تمنع عن لقاء المحبوب ، وهذا الخلع عبارة عن فعل شىء من رخص الشريعة لتسقط به من أعين الناس حرمتك.

تنبيه :
اعلم ان خواص الأسماء لا تظهر إلا بكثرة الذكر الجلى القوى، مع المداومة على الأداب، وهى أن يكون مستقبل القبلة اذا أمكنه، جالسًا على ركبتيه أو قائمًا مغمضًا، وأن يكون خالى البال، وأن يلقى سمعه إلى نطقه صاغيًا لما يقول، مع نظافة الظاهر والباطن، والمداومة على الوضوء.

فإذا كنت مع هذه الأداب متمسكًا بالشريعة، فقد قرب الفتح عليك، فلا تمل ولا تضجر إذا تعوق عليك الفتح، فإنه لابد لك منه لكن بشرط الاستقامة والتمسك بالشريعة والطريقة، واجعل ذكرك بهذا الاسم فى بعض الأوقات " لا هو إلا هو " ، بمد لا، ومد واو هو، لأنه ذكر عظيم الشأن، وكن فى حالة الذكر كأنك تخاطب أعضاءك بأنه ليس فى الوجود إلا هوية الحق تعالى، وأن كل ما سوى الله تعالى فهو آثار صفاته وأفعاله، فهذا المشهد هو مشهد الكاملين.

المقام الرابع النفس المطمئنة :

فسيرها مع الله، وعالمها عالم الحقيقة المحمدية، ومحلها السِّرُّ، وحالها الطمأنينة الصادقة، وواردها بعض أسرار الشريعة، وصفاتها الجود، والتوكل، والحلم، والعبادة، والشكر، والرضا بالقضاء، والصبر على البلاء.

وعلامة دخول السالك هذا المقام، أنك لا تفارق الأمر التكليفى شبرًا، ولا تلتذ إلا بالتخلق بأخلاق المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولا تطمئن إلا لاتباع قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ، لأن هذا المقام مقام التمكين، وعين اليقين، كما أن المقام الذى قبله مقام التلوين.

وفى هذا المقام يلتذ بالسالك أعين الناظرين، وأسماع السامعين حتى لو تكلم طول الدهر لا يمل كلامه، وذلك لأن لسانه يترجم عما ألقاه الله تعالى فى قلبه من حقائق الأشياء وأسرار الشريعة. فلا يتكلم كلمة إلا وهى مطابقة لما قاله الله ورسوله، من غير مطالعة فى كتاب، ولا سماع من أحد، لأنه قد سمع بغير حاسة ما ألقاه الله تعالى فى سره، وخلع عليه خلعة الوقار والقبول.

فيجب على السالك فى هذا المقام الاجتماع مع الخلق فى بعض الأوقات ليفيض عليهم مما أنعم الله به عليه، ويترجم عما فى قلبه من الحِكَم الإلهية، وليكن له مع الله تعالى وقت خلوة، لأنه وهو فى هذا المقام فى أدنى درجات الكمال، فلا يناسبه مخالطة الخلق فى جميع الأوقات، لئلا يحرم الترقى إلى المقامات الباقية، أعنى : الخامس والسادس والسابع.

فمتى رأى الفائدة فى العزلة اعتزل، أو فى الاجتماع اجتمع، وعلامة فائدة الاجتماع أن يستفيد الحاضرون مما وهبه الله تعالى من العلم، أعنى : علم الصدور لا علم السطور.

واشتغل أيها المريد وأنت فى هذا المقام بالاسم الرابع، وهو " حق حق حق " بحرف النداء أو بدونه، فأكثر منه ولا تلتفت لما ظهر لك، واطلب من ربك أن لا يظهرك على ما يكون سببًا لانقطاعك عن خدمته، وعن الوقوف على بابه، فإن ما يكشف لك عنه إن لم تكن محفوظًا معه، كان سببًا لبعدك عن حضرة القرب، لأن حضرة القرب لا يدخلها إلا العبيد الخُلص، الذين ليس لهم ما يغترون به من خوارق العادات.

ولذلك ترى المحفوظين من الكُمَّل إذا أظهر الله تعالى على أيديهم شيئًا من الكرامات لا يلتفتون إليها، ولا يعلمون أظهرت لهم كرامة أم لا ؟، فتركوا ذلك، وقالوا :
أَلَا كُلُّ شيءٍ مَا خَلا اللَّهُ باطِلُ * وكلُّ نعيمٍ لا مَحالةَ زائِلُ.

وإذا كانت الكرامات ليست شيئًا قبيحًا، لأنها إكرام من الله تعالى إلى عباده، ولكن تطلّبها والميل إليها قبيح قاطع عن حضرات القرب التى لا تنال إلا بالعبودية، المودع فيها أسرار الربوبية، ومتى أحب المريد ذلك خرج من العبودية، وصار يتظاهر بها على غيره، فافهم ولا تقف عند كون من الأكوان، فيكون حظك ذلك الكون.

واعلم أن السالك فى هذا المقام يحب الأوراد ويميل إليها، وكذا الأدعية، ويحب حضرة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ محبة غير المحبة التى كانت قبل هذا المقام، ولا تأمن من النفس فى هذا المقام ولا فى غيره، فإن العدو الذى غُرست فى طبعه العداوة لا يؤمن مكره، وإن صار صديقًا٠

ولأن الإنسان متعرض للمحن والبلايا، وقد يعرض له حب المال هنا، فلا يضره بشرط أن يكون قصده به الاستعانة على عبادة الله تعالى، وعلى أن يعين به الإخوان، وأن لا يشتغل قلبه بتحصليه، وإن حصل شيئًا منه فلا يخفه عن الناس إظهاراً لنعم الله تعالى عليه، وتحدثًا بنعمته سبحانه، ويظهر لهم الفقر من نفسه، والتبرى من الحول والقوة٠

وقد يُعرض عليه فى هذا المقام حب الرياسة، و تدخل عليه نفسه بأن يتعرض للمشيخة، والإرشاد، واجتماع الناس عليه ليحصل لهم على يده الاهتداء، فلا يلتفت إلى ذلك فإنها دسيسة من النفس، فليحذر منها ويدفن وجوده فى أرض الخمول٠
وأما إذا أقامه الله تعالى، وأشهره، وألبسه ثوب المشيخة من غير سعى منه، ولا جد، ولا تطلب، وهو مع ذلك يحب الخمول، فلا بأس بظهوره فإنه خير له من الاعتزال٠

وعلامة إقامة الله له فى الإمامة، أن يكون محبوبًا لإخوانه، وهم مطيعون له، ولا يرى لنفسه عليهم تمييزًا كأنهم خير منه من وجه، لأنهم يرون أنفسهم أحقر منه، فلهذا كانوا خيرًا منه، فيكون هو أعظم احتقارا لنفسه منهم، طالبًا دعوة صالحة منهم تدخله فى رحمة ربه٠

وإذا وصل السالك إلى المقام الرابع، وصارت النفس مطمئنة، إلا أنها لا تصلح للإرشاد فى هذا المقام لانعدام شروطه ، فينبغى أن لا يستجعل فى التقدم حيث كان هناك من هو أفضل افضل منه، ويكمل سلوكه بالترقى إلى المقام الخامس فالسادس فالسابع٠

إذا عرفت الفرق بين النفوس، عرفت أنه لا خلاف فى المعني بين من قال :
إن المقامات التى يترقى بها السالك سبعة وهم الخلوتية٠
وبين من قال : إنها ثلاثة وهم غير الخلوتية، لأن غير الخلوتية لا يعدون المقام الأول مقاماً، فيعدون الثانى والثالث والرابع، ولا يعدون الخامس والسادس والسابع، لأنهم لم يتعبروا النفوس الذكية باعتبار الفطرة، ولاشك أن هذه النفوس إذا وصلت للمقام الذى تكون فيه النفس مطمئنة كمُلت وصلحت للإرشاد٠
وأما الخلوتية الذين هذا الكتاب على مذهبهم ، فجعلوا المقامات سبعة، وعدوا أولها مقام النفس الأمارة، وآخرها مقام النفس الكاملة٠
فغير الخلوتية لا يلقنون السالك إلا ثلاثة أسماء، فلا يلقنونه وهو فى النفس اللوامة إلا " لا إله إلا الله "، وفى أوائل الملهمة يلقنونه " الله الله الله "، وفى آخرها " هو هو "، وبهذا الاسم يدخل على المطمئنة، و لا يلقنونه غيره٠

بخلاف الخلوتية فإنهم يلقنونه سبعة أسماء فى السبع نفوس، ففى الأول يلقنونه " لا إله إلا الله "، فاذا ظهرت العلامة واستحق النقلة لقنوه " الله الله الله " إلى آخر السبعة، هكذا كلما ظهرت العلامة وهو فى اسم نقلوه إلى ما بعده، إلى آخر المقامات٠

المقام الخامس النفس الراضية :

فسيرُها فى الله، وعالمها اللاهوت، ومحلها السر، وحالها الفناء، لكن لا بمعنى اللفظ الذمر بيانه، والفرق بينهما أن ذلك الحال المتوسط فى الطريق٠
وقد عرفت أنه ذهول الحواس عن المحسوسات، وهذا حال المشرفين على البقاء الذين هم فى آخر السلوك، والمراد به محو الصفات البشرية، والتهيؤ للبقاء من غير أن يعقبه البقاء فى الحال، لأن ذلك الفناء هو حق اليقين، وهو بعد الفناء الأول٠

وهذه النفس أعنى : الراضية ليس لها وارد ، لأن الوارد لا يكون إلا مع بقاء الأوصاف، وقد زالت فى هذا المقام حتى لم يبقى لها أثر، ولذلك كان السالك فى هذا المقام فانيًا لا باقيًا بنفسه كما كان قبل هذا المقام، ولا باقيًا بالله كما يكون فى المقام السابع، وهذه الحالة لا تدرك إلا ذوقًا، وقد يمكن للكامل أن يفهمها للمريد المتهىء للكمال٠

وصفات هذه النفس الزهد فيما سوى الله تعالى، والإخلاص والورع والنسيان، والرضا بكل ما يقع فى الوجود من غير اختلاج قلب، ولا توجه لدفع مكروه، ولا اعتراض أصلًا، وذلك لأنه مستغرق فى شهود الجمال المطلق، ولا تحجبه هذه الحالة عن الإرشاد والنصيحة للخلق وأمرهم ونهيهم ، ولا يسمع أحد كلامه إلا وينتفع به، كل ذلك وقلبه مشغول بعالم اللاهوت وسرر السر٠

وصاحب هذا المقام غريق فى بحر الادب مع الله تعالى، لا ترد دعوته، والحق أن صاحب هذا المقام ليس له ركون إلى ما سوى الله تعالى، فمتي رأيت نفسك تركن لغيره تعالى فاعلم أنك لست من أصحاب هذا المقام، لأن صاحبه أشرف على سلطنة الباطن التى جميع الظواهر تحت قهرها٠

واشتغل وأنت فى هذا المقام بالاسم الخامس، وهو " حى حى حى " وأكثر منه فيزول فناؤك، ويحصل لك البقاء بالحى، فتدخل فى المقام السادس، وتترقى من الوقوف على الباب إلى منازل الأحباب، وتبعث بالحى، وتتصف بالصفات الكمالية، وهى معنى :
« كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصربه » المعبر عنه بقرب النوافل٠

واعلم أن من الأسماء أسماء يقال لها فروع، وهى الوهاب،الفتاح، الواحد، الأحد، الصمد، فاتشغل وأنت فى هذا المقام باسم الفتاح، أو باسم الوهاب مع الخامس وهو " الحى " ليسهل عليك الانتقال إلى المقام السادس الذى أنت إليه فى غاية الاحتياج، والله الموفق الهادى٠

المقام السادس النفس المرضية :

فسيرها عن الله، وعالمها عالم الشهادة، ومحلها الخفاء، وحالها الحيرة، وواردها الشريعة، وصفاتها حسن الخلق، وترك ما سوى الله تعالى، واللطف بالخلق، وحملهم على الصلاح، و الصفح عن ذنوبهم، وحبهم، والميل إليهم لإخراجهم من ظلمات طبائعهم وأنفسهم إلى أنوار أرواحهم ، ومن الميل الذى فى النفس الأمارة لأنه مذموم٠

ومن صفات هذه النفس الجمع بين حب الخلق والخالق، وهو عجيب لا يتيسر إلا لأصحاب هذا المقام، ولذلك لا يتميز صاحبها عن العوام بحسب ظاهره، وأما بحسب باطنه فهو معدن الأسرار٠

وسميت هذه النفس بالمرضية لأن الله تعالى قد رضى عنها، ومعنى كون سيرها عن الله : أنها أخذت ما تحتاجه من العلوم من حضرة الحى القيوم، ورجعت من عالم الغيب إلى عالم الشهادة لتفيد الخلق مما أنعم الله به عليها، وحالها الحيرة المقبولة، وهى المشار إليها بقوله " رب زدنى فيك تحيرا " ، لا الحيرة المذمومة التى تكون فى أول السلوك٠

ومن شأن صاحب هذا المقام الوفاء بما وعد الله ، فلا يخلف وعده أصلا، ووضع كل شىء فى محله، فينفق الكثير إذا صادف محله حتى يظن الجهول أنه اسرف، ويبخل بالقليل إذا لم يصادف محله حتى يظن الجهول أنه ابخل من كل بخيل، ولا يلتفت إلى مدح ولا ذم فى العطاء٠

ومن أوصافه أن جميع شئونه فى الحالة الوسطى، وهى بين الإفراط والتفريط، وهذه الحالة لا يقدر عليها إلا من كان فى هذا المقام٠

واعلم أنك فى هذا المقام تلوح لك بشائر الخلافة الكبرى، وفى آخره تخلع عليك خلعتها، وهى خلعة : « كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشي بها، فبى يسمع و بى يبصر و بى يبطش و بى يمشى »٠

وهذه نتيجة قرب النوافل، وهو أن يكون التأثير للعبد باستعانة الحق، بمعنى : أنه قد اتصف بصفات التأثير من فيض الملك القدير فافهم٠

وتحقيق هذا المقام، أن السالك إذا وصل إلى مقام الفناء، وهو المقام المذكور قبل هذا المقام، تنمحق صفاته الذميمة البشرية التى هى محل الانفعال والشقاوة والدعوة ، وذلك بسبب تقربه بالنوافل، التى هى الرياضات والمجاهدات للنفس٠

وقد جرت عادة الله تعالى أن يهبه كرمًا منه سبحانه وتعالى صفات تناقض تلك الصفات مؤثرة بإذن واهبها، وهذا هو حق اليقين، والحق أن هذه الامور لا تدركها العقول، ومتى حاول العقل إدراكها وقع فى الزندقة، لأنها أمور لا تدرك إلا بتأييد إلهى، لأن الفناء ليس له فى الخارج نظير حتى يمثل له، وكذا البقاء بالله، وكذا قرب النوافل والفرائض٠

واشتغل وأنت فى هذا المقام بتلاوة الاسم السادس، وهو " قيوم قيوم قيوم " ، فأكثر منه تصر حسنات غيرك سيئات لك، ولا تزال متأدبًا بآداب الشريعة والطريقة، إلى أن تنتقل إلى المقام السابع، طالبًا التحقق بالصورة الآدمية التى كانت قبل الملكية، التى حقيقتها الحقيقة المحمدية.

المقام السابع الذى تسمى فيه النفس بالكاملة :

فسيرها بالله ، وعالمها كثرة فى وحدة، ووحدة فى كثرة ، ومحلها الإخفاء الذى نسبته إلى الخفاء كنسبة الروح إلى الجسد، وواردها جميع ما ذكر من الأوصاف الحميدة الحسنى للنفوس المتقدمة.

ومفتاحها الاسم السابع وهو " قهار قهار قهار " ، فليكثر السالك منه، وهو أعظم المقامات، لأنه كملت فيه سلطنة الباطن، وتمت فيه المكابدة والمجاهدة، وتحقق بإشارة قوله تعالى :
{ إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ } .
وليس لصاحب هذا المقام مطلب سوى رضوان الله تعالى، حركاته حسنات، وأنفاسه قدرة وحكمه وعبادة.

واعلم أن اسمه - سبحانه وتعالى - " قهار " هو اسم القطب ، قالت المشايخ :
ومنه يمد القطب المريدين الطالبين بالأنوار والهدايات والإشارات، وقالوا :
مهما حصل في قلوب المريدين الطالبين من الفرح و السرور والجذبات الراجعة لغير سبب، فهو مدد من القطب عوضًا عن أذكارهم، وتوجهاتهم لربهم.

وصاحب هذا المقام لا يفتر عن العبادة، وذلك إما بجميع البدن أو باللسان أو بالقلب أو بالرِّجل، وهو كثير الاستغفار، كثير التواضع ، سروره ورضاه فى تقريب الخلق إلى الحق، وحزنه وغضبه فى إدبارهم عن الحق.

يرضى برضاه، ويغضب بغضبه، ويحب طالب الحق أكثر من محبة ولده الذي من صلبه، وهو كثير الأوجاع، قليل الحركة، ليس فى قلبه كراهة لمخلوق، مع أنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويظهر الكراهة المجازية لمستحق الكراهة، ويظهر المحبة لمن هو أهل لها، لا يخاف ولا يخشى إلا الله، ولا تأخذه فى الله لومة لائم، يرضى فى عين الغضب، ويغضب فى عين الرضا، لكنه يضع كل شىء فى محله، متى توجهت همته إلى كون من الأكوان إلا أوجده الله تعالى على وفق مراده، وذلك لأن مراده لله، لا يطلب إلا ما أراده الله، فإذا أراد شيئًا وطلبه من الله تعالى لا يرده، والله أعلم.

وفى هذا القدر كفاية للطالبين، وإنما أطلنا الكلام تنشيطًا للعباد، جعلنا الله تعالى والإخوان من خواص أهل عنايته، وحشرنا الله جميعًا تحت لواء صفوته من خليقته سيدنا ونبينا ومولانا وولى نعمتنا محمد - صلى الله عليه وسلم -.

قال المصنف ـ قدس الله سره ـ :
{ وزاهدًا فى الإمارة }
أى : الحكومة والسلطنة، فإن المريد متى طلب الإمارة فى غير محلها هلك ووقع فى ضلال لنفسه واضلال غيره، فإنه ربما حدثته نفسه بالمشيخة فى الطريق، والتصدر لإرشاد المريدين قبل الإذن من الأستاذ، فيجب عليه أن ينفى هذا الخاطر عن نفسه، ويجتهد فى تهذيبها، وإلا جرته إلى ما لا تحمد عقباه من رعوناتها الأصلية، والتحلى بضدها، فإن من رقى سقفًا بغير سلم كيف ينجح فى ذلك٠
وكفاه إنذاراً فى تركها، قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « حب الرياسة رأس كل خطيئة »٠
وهذا لعظم خطرها، وهى رئاسة الأجسام، فكيف برئاسة القلوب فضلًا عن أنه لم يتأهل لذلك٠

{ والزهد فى الدنيا }
قال الجنيد : الزهد خلو الأيدي من الأملاك، والقلوب من التتبع٠

قال تعالى : { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا } قيل : عن الدنيا٠
وقال تعالى : { وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ }
قيل : هم الزاهدون، فقد سماهم الله تعالى فى هذا الموضع علماء٠

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :
إذا رأيتم الرجل قد أوتى زهدًا فى الدنيا ومنطقًا، فاقربوا منه فإنه يلقى الحكمة »٠
وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « العلماء أمناء الرسل ما لم يدخلوا فى الدنيا فإن دخلوا فى الدنيا فحذروهم على دينكم »٠

وقال سهل : أعمال البر كلها فى موازين الزهاد، وثواب زهدهم زيادة لهم٠
وسئل الشبلى عن الزهد، فقال : الزهد غفلة لأن الدنيا لا شىء، والزهد فى لا شىء غفلة٠

قال غيره : لما رأوا حقارة الدنيا زهدوا فى زهدهم فى الدنيا لهوانها عندهم٠

قال الإمام السهراوردى :
لما رأوا حقارة الدنيا زهدوا فى الدنيا لهوانها عندهم٠
وعندى أن الزهد فى الزهد غير هذا، وإنما الزهد فى الزهد بالخروج من الاختيار فى الزهد، لأنَّ الزاهد اختار الزهد وأراده، وإرداته تستند إلى علمه، وعلمه قاصر، فاذا أقيم فى مقام ترك الإرادة، وانسلخ من اختياره كاشفه الله تعالى بمراده ، فيترك الدنيا بمراد الحق لا بمراد نفسه، فيكون زهده بالله تعالى حنيئذ٠

أو يعلم أن مراد الله منه التلبس بشىء من الدنيا، فما يدخل بالله فى شىء من الدنيا لا ينقص عليه زهده، فيكون دخوله فى الشىء من الدنيا بالله وبإذن منه زهدًا فى الزهد، والزاهد فى الزهد استوى عنده وجود الدنيا وعدمها، إن تركها تركها بالله، وإن أخذها أخذها بالله : وهذا هوالزهد فى الزهد، وقد رأينا من العارفين من أقيم فى هذا المقام٠

وفوق هذا المقام مقام آخر فى الزهد : وهو لمن يردَّ الحق إليه اختياره لسعة علمه وطهارة نفسه فى مقام البقاء، فيزهد زهدًا ثالثًا، ويترك الدنيا بعد أن مُكِّن من ناصيتها وأُعيدت عليه موهوبة۰

ويكون تركه الدنيا فى هذا المقام باختياره، واختياره من اختيار الحق تعالى ؛ فقد يختار تركها حينًا تأسيًّا بالأنبياء والصالحين، ويرى أن أخذها فى مقام الزهد رفق أدخل عليه لموضع ضعفه عن درك شأو الأقوياء من الأنبياء والصديقين، فيترك الرفق من الحق بالحق للحق، وقد تناوله باختياره رفقًا بتدبير يسوسه فيه صريح العلم : وهذا مقام التصرف لأقوياء العارفين زهدوا ثالثًا بالله، كما رغبوا ثانيًا بالله، كما زهدوا أولًا لله۰

إذا علمت ذلك فاحرص على الزهد { فذاك واجب }
قال الإمام القشيرى : اختلف الناس فى الزهد فمنهم من قال :
الزهد فى الحرام لأن الحلال مباح من قبل الله تعالى، فإذا أنعم الله على عبد بمال من حلال وتعبده بالشكر عليه، فتركه باختياره وبحق لا يقدم على إمساكه بحق إذنه۰

ومنهم من قال : الزهد فى الحرام واجب، وفى الحلال فضيلة، فإن إقلال المال والعبد صابر فى حاله راض بما قسم الله له ، قانع بما يعطيه أتم من توسعة وتبسطه فى الدنيا۰

وإن الله تعالى زهد الخلق، بقوله سبحانه وتعالى : { قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى } ۰

إلى أن قال : ومنهم من قال :
ينبغى للعبد أن لا يختار ترك الحلال بتكلفه، ولا طلب الفضول فيما لا يحتاج إليه، ويراعى القسمة فإن رزقه الله تعالى مالًا حلالًا شكره، وإن وقفه الله تعالى على حد الكفاية لم يتكلم فى طلب ما هو فضول المال، فالصبر أحسن لصاحب الفقر، والشكر أحسن لصاحب المال الحلال، وهذا كله بالنسبة إلى أصحاب المقامات، وأما بالنسبة للمريد فى بدايته فالأليق به الزهد مطلقًا لأن تعلقه بها مانع له من مقامات الصوفية، كما قال :

{ وحبها } أى : الدنيا { له أُخَيٌّ } بالتصغير { حاجب } ومانع مقام العرفان۰
قال -صلى الله عليه وسلم - : « حب الدنيا رأس كل خطيئة وتركها رأس كل عبادة »۰

{ والقنع } بمعنى القناعة، قال محمد بن على الترمذى :
القناعة : رضا النفس بما قسم لها من الرزق۰
ويقال : هى الاكتفاء بالموجود، وزوال الطمع فيما هو ليس بحاصل۰

قال تعالى : { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً }
قال أكثر المفسرين : الحياة الطيبة فى الدنيا هى القناعة۰

عن ابن عبد الله - رضى الله تعالى عنه -، قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
« القناعة كنز لا يفنى »۰

وعن أبى هريرة ـ رضى الله تعالى عنه ـ، قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :
« كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ ، وَكُنْ قَنِعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ ، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا ، وَأَحْسِنْ جِوَارَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِمًا ، وَأَقِلَّ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ »٠

وقيل : الفقراء أموات إلا من أحياه الله بعز القناعة٠
وقال بشر الحافى ـ رحمه الله تعالى ـ : القناعة ملك لا يسكن إلا فى قلب مؤمن٠

{ والكفاف } فى الرزق، وهو : ما كف عن الناس وأغنى٠
والمراد : أن المريد لا يأخذ فوق ذلك فإن أخذه يشغله عن مقصوده من السير، فإن خفيف الجراب ليس كمملوء الوطاب٠

سأل الرشيد أهل مجلسه : من أسعد الناس ؟ فقالوا : ما نرى أحق بهذا الجواب من أمير المؤمنين، فقال : أخطأتم الصواب، أسعد الناس فى الدنيا من رزق الكفاف، وعاش لا يعرفنا ولا نعرفه٠

{ والمواددة } أى : المحاببة : أى : التحابب للناس فى الله تعالى٠
{ والكد } أى : الإلحاح والطلب { والجَدّ } وهو : الحظ، والمراد به : حد الطاقة٠
{ كذا المجاهدة } أى : المبالغة فى الأخذ بالأحوط، وتحمل المشقة، مع المواظبة على ذلك فى الطاعة، والإخلاص فيها، وتقدم فى ذلك كثير٠

ولما كانت ثمرة المجاهدة المشاهدة، وهى أعظم مقصود قال :

{ فمن يجاهد } نفسه فى الطاعات { فى } طلب { المنى } أى : ما يتمنى ؛ كالقيام فى الأسحار، والتوبة من الأوزار، وصب الدموع الغزار، ومناجاة الحق بالأوراد والأذكار٠ { يشاهد سنا } أى : نور { الحبيب } وهو الحق سبحانه وتعالى٠

قال أبو عثمان المغربى : من ظن أنه يفتح له بشىء من هذه الطريقة، أو يكشف له عن شىء منها إلا بلزوم المجاهدة فهو فى غلط٠

وقال أبو على الدقاق : من زين ظاهره بالمجاهدة حسن الله سرائرة بالمشاهدة٠
ثم استدل بقوله تعالى : { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا } ٠

واعلم أن من لم يكن فى بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من هذه الطريقة شمة٠

وقال أبو على الدقاق : من لم يكن له فى بدايته قومة لم يكن له في نهايته جلسة٠

وقال أيضا : قولهم الحركة بركة حركات الظواهر توجب بركات السرائر٠

وقال أبو يزيد البسطامى - قدس الله سره - :
" كنت ثنتى عشرة سنة حدادَ نفسى، وخمس سنين مِرآة قلبى، وسنة أنظر فيما بينهما، فإذا فى وسطى زنَّار ظاهر، فعملت فى قطعه ثنتى عشرة سنة، ثم نظرت فإذا فى باطنى زنَّار، فعلمت فى قطعه خمس سنين أنظر كيف أقطعه، فكُشف لى، فنظرت إلى الخلق فرأيتهم موتى، فكبرت عليهم أربع تكبيرات "٠اه
فهكذا تكون المجاهدة، وهكذا تكون الرجال، وهكذا تكون الثمرة٠

{ وكل من ليست له بداية محرقة لم تشرق النهاية }

اعلم ان للمريد بداية ونهاية، فبدايته حال سلوكه، ونهايته حال وصوله، فمن صحح بداية بالرجوع إلى الله تعالى، والتوكل عليه، والاستعانة به فى أن يوصله إليه لا على أعماله، أفلح ونجح فى نهايته، وكان وصوله إلى الله تعالى، فأمن من الرجوع والانقطاع٠

قال بعض العلماء : من ظن أنه يصل إلى الله تعالى بغير الله قطع به، ومن استعان على عبادة الله تعالى بنفسه وكل إلى نفسه، فعلى العبد السالك أن يجعل معتمد أمره الاستعانة بالله تعالى على ما هو فى سبيله، ولا يرى حول نفسه وقوتها ف كثير عمله وقليله، فهذا هو أساس السلوك الذى يبنى عليه قواعده٠

ومعنى الإحراق : أنه عمر أوقاته بأنواع الطاعات والأوراد، وثابر على ذلك كل المثابرة٠
وعبارته " محرقة " وعبارة " غير مشرقة " : المراد واحد من اللفظين٠

قال ابن عطاء الله : " من أشرقت بدايته اشرقت نهايته "، وإشراق البداية بالمجاهدة، وإشراق النهاية بإفاضة الأنوار والمعارف عليه، وزوال كدورات النفس الحائلة بينه وبين مولاه على وجه أتم، وعكسه بعكسه ، فمن كان قليل الاجتهاد فى بدايته لم يحصل له إشراق فى نهايته، ولو فرض أنه فتح عليه كان على وجه أضعف من غيره٠

{ ولا يكن مستبطئ الوصول } إلى مقامات القرب والفتح، بل يعبد الله تعالى لوجهه، سواء فتح عين قلبه ورفع عنه الحجاب أم لا٠

قال سيدي محيى الدين بن عربى - قدس الله سره - :
إياك أن تترك المجاهدة إذ لم ترَ إمارة الفتح بعدها، وهذا الأمر لازم لابد منه، ولكن للفتح وقت لا يتعداه ، فلا تتهم ربك فإنه لابد لأعمالك من الثمرة إن كنت مخلصًا لله تعالى فى عملك٠

وقال : احذر أيها المريد أن يكون قصدك من ذكرك وعبادتك الأجر والثواب، فإن ذلك حاصل لك لا محالة، وإنما ينبغى أن تكون همتك التلذذ بمناجاته تعالى، والفوز بمجالسته سبحانه وتعالى، فإن من عَزم على مجالسة السلطان ينبغى أن لا يهتم بمأكله ومشربه ولا بملبسه ما دام فى خدمته٠

{ فإن ذا } أى : قصد المأكل والمشرب والملبس { يقع } أى : يحصل { من جهول } ٠
أى : كثير الجهل بآداب الملوك فكيف بملك الملوك قد انحطت همته عن نظر الخدمة، وتدانت درجته إلى أسفل سافلين، من التطلع إلى ما لا يحمد النظر إليه فى ذلك الحين٠

{ فالوصل } بمعنى الوصول إنما يكون { للمحدود } أى : المحصور المتحيز إلى جهة المعلومة ذاته بالحقيقة { جل الله } أى : تعالى وارتفع شأنه { عن القيود } كلها، إذ هو تعالى ليس له مكان، ولا يمر عليه زمان، وليس فى جهة ولا معلوم الحقيقة٠

{ ليس هُوْ } بضم الهاء مدودة وسكون الواو { إلَّا هُو } كذلك، أى : ليس فى الوجود موجود على الحقيقة إلَّا هو، إذ كل ما سواه عدم محض وفناء خالص، كان الله ولا شىء معه، وهو الآن على ما عليه كان، فأنى يحده أو يحصره مكان٠
فكن أيها المريد ذكى الفهم، صافى العقيدة ، تفز بالشهود للذات منزهة عن القيود والجهات٠

{ ولا يسامح نفسه فى غفلة } عن الطاعات ، بل يوبخها ويحثها على السير في الطريق كلما وقفت مع حظوظها، ويقدم حذف العلائق على كل عمل ، فإن التخلى عن الرذائل مقدم على التحلى بالفضائل٠

وينبغى له كلما تعب من عبادة أن يقول لنفسه : اصبرى فإن الراحة أمامك غدًا فى الآخرة، وإنما أريد بتعبك هنا راحتك فى الآخرة٠

وهكذا يكابد خواطره و يعالج اخلاقه و ينفي الغفلة عن قلبه بمداومة كثرة الذكر و الفكر ، لان ، عمل المريد الدائم في تنظيف ظاهره و باطنه من الصفات التي تمنعه من دخول حضرة الله عز وجل ، كالغضب و العجب و الحسد و الكبر و نحو ذلك، فإذا تطهر المريد فهنالك يصلح لتلاوة القرآن و مجالسة الحق سبحانه و تعالي و الوقوف بين يديه في الصلاة ، هذا ما درج عليه السلف الصالح ٠

{ ولا يدع } أى : يترك { أعماله لقلة } تحقيرًا منه لذلك العمل، فإن هذا جهل محض، وخرق فى الرأى، وسوء فى السلوك٠

قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أحبَّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قَلَّ »٠

وقال ابن عطاء الله فى الحكم : " لا يستحقر الورد إلَّا جهول "٠
فعليك بالإخلاص، ولا عليك أن يكون العمل قليلًا او كثيرًا، فإنه لا قليل مع الإخلاص، وأفضل الأعمال عمل خرج عن قلب طاهر حاضر وإن قل، والحق أنه ليس بقليل٠

{ ولا ينام الثلث الأخيرا } بألف الإطلاق، فإنه وقت السحر، وهو وقت الإجابة والعطاء والتجليات، والنوم ليس فيه فائدة دنيوية ولا أخروية، وإنما هو خسران لأنه أخو الموت فلا ينامه أبدًا۰

قال سيدى إبراهيم الدسوقى - قدس الله سره - : كيف يدعى المريد الصادق فى الحب للطريق، وهو ينام وقت الغنائم، ووقت فتح الخزائن، ووقت تفريق الغنائم، ووقت نشر العلوم، وإظهار المكتوم۰

وليس هذا الأدب خاصًا بالسحر، بل يجب على المريد تقليل النوم ما أمكنه، وإنما للثلث الأخير زيادة معنى فى ذلك۰

ومتى حافظ المريد على ترك النوم فى الأسحار فإنه { يعطى بذا } القيام وعدم النوم۰ { ندى } أى : عطاء يا { أخيِ } بفتح فكسر { كثيرًا } لا حصر له۰

وذلك لأن الله تعالى أكرم مسؤل، ومتى صدق العبد فى العبادة استحال عدم الإعطاء، فإنه لا يتوهم أن العبد مع ضعف مروءته يعامل ربه نقدًا، ويعامله الله وهو أعظم الكرماء نسيئة، وخطور ذلك بالبال من قلة الفهم فى اتساع كرم الله تعالى وعظيم رحمته التى وسعت كل شىء۰

{ وصحبة الأحداث } هم الغلمان المردان ، وهم المعبر عنهم عند الصوفية بالأنتان والجيف۰
{ فاتركنها } فإنها الداء العضال، والقطيعة التى لا نظير لها۰

وأما من جهة النص فى جواز النظر اليه و لمسه، فهذه مسئلة اختلف فيها النووي و الرافعى - رضى الله تعالى عنهما - :
ومحل كلامهما أن النظر إلى الأمرد يحرم بشهوة، وإن كان غير حسن بالإجماع، ولو انتفت الشهوة، وخيف الفتنة حرم النظر أيضًا۰

قال ابن الصلاح : وليس المراد بخوف الفتنة غلبة الظن بوقوعها، بل يكفى أن لا يكون ذلك نادرا ، كذا يحرم النظر إلى الأمرد بلا شهوة عند النووى - رحمه الله تعالى - لأنه مظنة الفتنة، فهو كالمرأة بل هو أشد اثمًا من المرأة الاجنبية، لعدم حله بحال۰
وكذا يحرم اللمس للأمرد وإن حل النظر لأنه أفحش، وكذا الخلوة به فانها أفحش وأقرب إلى المفسدة۰

والمعتمد من مذهب إمامنا الشافعى - رضى الله تعالى عنه - الذى قاله الرافعى :
وهو أن النظر إلى الأمرد لا يحرم إلَّا بشهوة، هذا هو المعتمد المفتى به۰

والذي قاله الإمام النووى - رحمه الله تعالى - : من اختيار سد للباب فى ذلك الزمان، وانظر إلى زماننا هذا۰

وضابط الشهوة المحرمة كما قال الإمام السبكى : أن ينظر إلى الوجه الجميل فيلتذ به، فإذا نظر ليتلذذ بذلك الجمال فهو النظر بشهوة، وهو حرام بالإجماع٠

قال : وليس المراد أن يشتهى زيادة على ذلك من الوقاع أو مقدماته، فإن ذلك ليس بشرط ، بل زيادة فى الفسق، وإنما جوز الصوفية مصاحبتهم لتعليمهم الحق والخير، وصونهم عن الشر بشروط أن يجلسوه خلف ظهورهم، وأن يعلموه الخير، وأن لا يمسوه، وأن لا يناموا معه٠

وإذا كانوا فى سفر أقاموه وحده، وإذا كانوا فى الحضر أناموه فى خلوة وحده، فيكون فى النهار خلفهم، وفى الليل وحده فى الخلوة، وأن لا ينظروا إليه حتى تطلع لحيته، وان يأمروه بخفض صوته، فإن كان بهذه الشروط جازت لهم صحبته، وإلا فهو المقت البحت٠

وإنما جعلوا الشرط كونه خلف الظهر لئلا ينظروا إليه أو يمسوه، ولذلك أمروه بغض الطرف، وإطراق الرأس، وخفض الصوت، وأرشدوه إلى طريق الخيرات٠

فإذا رأوا منه خيرًا ورشاداً وسلوكًا، أحبوه لأجل ذلك، وكتموا عنه المحبة، ولم يعلموه بها حتى يكمل عقله، ويطلع شعره فى وجهه، لأن الصغير ما دام فى سن الصبا لا يؤلف به لا يؤلف به لأنه ناقص سريع التغير، فإذا طلع الشعر فى وجهه وكمل عقله وثبت قدمه فى الطريق أمنوا عليه، فأعلموه بالمحبة له ونظروا إليه٠

{ كذا مؤاخاة النساء مل عنها }
إن كنت ممن وفق وغض الطرف عن ذلك، قال سيد الطائفة الجنيد ـ قدس الله سره ـ :
آفة المريدين مصاحبة الأحداث والنسوان٠

قالوا : من آداب المريد أن يغض بصره عن الصور الحسنة ما أمكن فإن النظر إليها كالسم القاتل، والسهم الصائب فى قلبه فيقتله لاسيما إذا نظر بشهوة، إذ لا يخفى أن بدن الأجنبية كله عورة لا يحل النظر إلى شىء منه، وكذا أمة غيره، وإنما يباح النظر للخطبة إلى الوجه والكفين، وللحكيم : أى : الطبيب بقدر محل العلة مهما كان٠

وشرط الصوفية فى جواز التليقين لهن :
أن يضع يده، أى : يد الأستاذ فى إناء فيه ماء، وتضع يدها فيه، كذلك مع غض طرفها وطرفه، وأن لا يختلوا بها فى حالة ما، لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :
« ما خلا أجنبى بأجنبية إلا كان الشيطان ثالثهما »٠

وأن يأمروهن بجميع ما تقدم بالنسبة إلى الأمرد، فينبغي للمريد أن لا يسكن إلى شىء مما تقدم من المردان والنسوان، إلا إذا قاس نفسه على ما قدمنا، وكان كما وصفنا٠

قال المصنف { إلا بشرطها لدى } أى : عند { الأخيار } من أهل الطريق٠
والضمير راجع إلى القسمين معا وقد علمتها٠

إذاً فحافظ على العمل بغاية الجد والجهد { تنجو } أى : تخلص { بذا } العمل الصالح فى { سائر } أى : عامة { الأدوار } أى : الأحوال التى تعرض للمريد، إذ التمسك بهذه العروة هو النجاة التامة فى الدنيا والآخرة من جميع أحوالهما٠

ثم إن المصنف لم يكتف بذلك التأكيد، بل أكد تأكيدًا اشد، وحذر تحذيرًا أهم، فقال :

{ وذا على المريد أمر } عظيم { يلزم } أى : يحتم لا يمكن لمريد مفارقته فى كل وقت من أوقاته
{ إن كان } ذلك المريد الصادق { رأيه } أى : اعتقاده { بذاك } الإلتزام٠
{ يحزم } أى : يضبط ويأخذ فيه بالثقة٠

{ وإن يكن } المريد حال دخوله الطريق { ذا عزبة } لا زوجة له { لم } يجز له أن { يدخل } أى : يتزوج ما دام فى حجر التربية، ومهد الطفولية، وحجر الوصاية قاصرًا عن النهاية٠

{ إلَّا إذا فاز } أى : ظفر { بنهج } أى : طريق { الكُمَّل } وهم البالغون فى السلوك الذين خرجوا من ضيق الحجر إلى حضرة الاطلاق٠

{ وإن يكن ذا زوجة لم يفرغ } أى : يطلق لأن طريق القوم ليست بالرهبانية وأكل الشعير، إنما الطريق : أن يحفظ المريد أوقاته عن الضياع فى اللهو، والغفلة، وعدم الملل من العبادة، ويتمسك بهذا الأدب ٠

{ حتى يصير مثل ما قد ينبغى } أى : يطلب فى هذا السبيل، وذلك بعد انتهاء سيره، ووقوفه فى حضرة ربه، ومراعاة وقته٠

وبالجملة فإنه ما دام مريدًا لم يبلغ درجة الواصلين لا يجوز له أن يأتى بأمر ما من قبل نفسه، بل لابد من مشورة أستاذه فى ذلك٠

{ وبعد ذا } أى : وصوله وتمامه وانتهاء سيره { يكون فى حكم القضا } أى : معه حيثما وجهته الإشارة الباطنية توجه فهو فى حكم وقت { ما } أى : فعل { يرتضى الحق } سبحانه وتعالى وتقدسم٠
وإذا جاءت الاشارة الباطنية بالأمر باجرائه أو تركه { تلقى } ذلك بالقبول الإذعان٠
{ وارتضى } أى : و أجرى فعله على مقتضاه٠

ومن أهم آدابه التى لا ينبغى تركها لحظة ما ذكره المصنف بقوله :
{ ليس له } أى : المريد الصادق فى سلوكه { يا صاح } إما مرخم صاحب، فيكون الأستاذ المصنف ـ قدس الله تعالى سره ـ بشره بأنه ملازمه ومراعيه فى سيره، إذا الصاحب المعاشر .

وهكذا كل من اتسعت دائرة قلبه من العارفين الأقطاب، فإنه لا يزال يمد كل مريد أتى بعده بصدق، إذ الصادق جميع الكون يمده، وليس ذلك بغريب فإن المصنف ـ قدس الله تعالى ـ سره من الأقطاب الذين بلغوا شأواً عظيمًا، ولم يزل إلى الآن يمد المريدين بإمداده فى أوراده كورد السحر وغيره، وينفع السالكين بمؤلفاته كهذه المنظومة وغيرها، جزاه الله عنا وعن جميع المسلمين خيرًا، وأشهده الله تعالى ذاته التى برؤيتها تقر العيون .

وأما مناد صاحى محذوف الياء ضد السكران ، وهو الذى أفاق من سكرة الشباب، وترك الصبا والإعجاب، ووقف شوقًا لدى الباب يرجو ولو نظرة من الأحباب، وسماه بذلك لأنه استحق هذا الاسم حيث عمل بما تقدم .

{ يخطو خطوة } المراد : يفعل فعل ما { إلا باذن } صريح صادر { من جميل } أي حسن { الحظوة } أى : المكانة عند الله سبحانه وتعالى .

ثم بَيَّنه بقوله { أستاذه } إذ هو القائد والدليل، وما دام تحت قيادته فما لواحد من العالمين عليه حق، ولا له عليه إمارة حتى { ولا لوالده ولا لأمه } كما تقدم فى آداب المريد مع أستاذه .

ثم إنه أفاد أن مدلول هذه القضية { عن الأوَالِي } أى : الأولين من السلف الصالح ـ رضى الله تعالى عنهم ـ { قد نقلا } بألف الإطلاق إلينا بطريق الرواية الصادقة، معنعنة حدَّث بها شيخ عالم ورع تقى فاضل قطب إمام، عن مثله، وهكذا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، عن الله عز وجل .

{ فإن من يقصد وجه الحق } تعالى تقدس { تسقط عنده حقوق الخلق } إذ الانسان لا يمكنه الجمع بين الاثنين، ولا أحد مقدم عن الله سبحانه وتعالى .

وغاية ما هناك أن يقال : إن للوالدين حقوقًا فكيف تهجر ولا يعتنى بها ؟
فيجاب بقوله :
{ وإن يكن حقان } واحد للخلق مهما كانوا ولو أبويك، والثانى لله تعالى .
{ قد تعارضا } بحيث لا يمكنك الإتيان بواحد منهما حتى يفوت عليك الآخر، أفترى أحدًا يفتيك أن تترك ربك خلف ظهرك فلا تعبأ بحقوقه، وتأتى بحق غيره من أبويك أو غيرهما من الخلق، لا يمكن ذلك أبدًا .

وحيث كان كذلك { فالحق } المقدم { للحق } سبحانه وتعالى من غير تردد ولا مُماحكة، وهذه القضية التى لا يمكن لأحد من المسلمين إنكارها، ولا الخروج عن مقتضياتها .

إذا علمت ذلك { فدع من عارضنا } أى : اهجره فإنه لا رأى له إذ معارضته فى غير محلها، فهى ساقطة لا لاقطة لها إلا الأغبياء الذين أعمى الله بصائرهم عن النظر إلى الحق، فلم يكن لهم همٌّ إلا فى افتراء خزعبلات لا أصل لها، وتلبيس أدلة تكاد تكون أو هى من نسج العنكبوت.

{ وأنه يحفظ } أى : حفظه { للأنفاس } أى : الأوقات فلا يضيعها بل يحاسب نفسه عليها حسابًا شديدًا، ويقول لها : ألم تفعلى كذا وكذا مما لا يحل لك، أو ما لا فائدة فيه، ألم تتركى كذا وكذا مما يوجب رضا الله تعالى عنك بسبب غفلتك، وتقصيرك، وجراءتك على الله تعالى، وقلة حيائك منه سبحانه، وهو أقرب إليك من حبل الوريد، فهو مطلع عليك، وعالم بما تكنينه وتخفينه من هواجسك، وخواطرك.

وهكذا يفعل حالة كونه :
{ مصاحبًا لحلية } المراد : الصفات الجميلة التى يتحلى بها.
{ الأكياس } الذين يضعون الأشياء فى مواضعها، مع التروى والتبصر من غير اندفاع ضد الحمقى الذين لا يفرقون بين الغث والسمين، بل يخبطون خبط عشواء.
{ وإن يكن } بكسر الهمزة، أى : ذلك المريد.
{ ابنًا لوقته } كما هو حال أهل التصوف.

قال ابن عطاء الله :
حقوق فى الأوقات لا يمكن قضاؤها، وحقوق الأوقات لا يمكن قضاؤها، إذ ما من وقت يرد إلا ولله عليك فيه حق جديد، وأمر جديد، وأمر أكيد، فكيف تقضى فيه حق غيره، وأنت لم تقض حق الله فيه.

فالحقوق التى فى الأوقات هى وظائف العبادات الظاهرة ؛ من صيام وصلاة وغيرهما.
وحقوق الأوقات ؛ هى ما يرد على العبد من قبل الرب من الأحوال، فوقت كل عبد ما هو عليه من تلك الأحوال.

قال سيدى أبو العباس المرسى - رضى الله تعالى عنه - :
أوقات العبد أربعة لا خامس لها : النعمة، والبلية، والطاعة، والمعصية، ولله تعالى عليك فى كل وقت منها سهم من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية :
فمن كان وقته الطاعة : فسبيله شهود المنة من الله عليه أن هداه لها، ووفقه للقيام بها.
ومن كان قوته المعصية : فمقتضى الحق منه وجود الاستغفار، والندم.
ومن كان وقته النعمة : فسبيله الشكر، وهو فرح القلب بالله.
ومن كان وقته البيلة : فسبيله الرضا بالقضاء والصبر.

والرضا : رضا النفس عن الله تعالى.
والصبر : مشتق من الاصبار، وهو نصب الغرض للسهام.
وكذلك الصابر ينصب نفسه غرضًا لسهام القضاء، فإن ثبت لها فهو صابر.
والصبر : ثبات القلب بين يدى الرب سبحانه وتعالى.

وفى الحديث عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :
« من أعطى فشكر، وابتلى فصبر، وظُلم فغفر، وظَلم فاستغفر، ثم سكت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فقالوا : ماذا له يا رسول الله ؟ فقال : أولئك لهم الأمن، وهم مهتدون »٠
أى : لهم الأمن فى الآخرة، وهم مهتدون فى الدنيا٠

قال الإمام القشيرى ـ رحمه الله تعالى ـ :
ومن كلامهم : الوقت سيف، أى : كما أن السيف قاطع فالوقت بما يمضيه الحق فيه، ويجريه غالب٠

وقيل : السيف لين مسه قاطع حده، فمن لاينه سلم، ومن خاشنه اصطلم، كذلك الوقت من استسلم لحكمه نجا، ومن عارضه انتكس وتردى، ومن ساعده الوقت فالوقت له وقت، ومن ناكده الوقت فالوقت عليه مقت، والكيس من كان بحكم وقته ؛
إن كان وقته بالصحو، فقيامه بالشريعة٠
وإن كان وقته بالمحو، فالغالب عليه أحكام الحقيقة٠

فقد بان لك من جميع ما تقدم أنهم يطلقون الوقت على ما غلب من الحال، وعلى ما كان عمارة للزمان، وعلى ما يصرف الله العبد فيه من المقدورات بغير اختيار، وأنهم لقبوا الوقت بأنه سيف ؛ لأنه يقطع عمر العبد، فإن لم يقطعه بخير، انقطع عمره بغفلة٠

ويشترط فى تسميته وقتًا ؛ أن لا يستغرق العبد حتى يغيب عن إحساسه، بل لا بد أن يدرك ما هو فيه من غلبة حال، أو عمارة وقت، أو تصريف الحق، ولو استغرق لم يسموه وقتًا٠

{ فما الصوفى } بتسهيل الهمزة وجزم اللام، مع وقفة خفيفة لأجل التشطير، أى : الحقيقى { إلا ذاك } الموصوف بالأوصاف المتقدمة { فدع عنك الكسل } فإنه شأن الأغبياء الجبناء المتقاعدين عن الهمة الصادقة فى طلب الوصول إلى المأمول٠

{ ويحفظ القشر } المراد به : الآداب الظاهرة الطاهرة { لصون } أى : حفظ٠
{ اللب } أى : اللباب الخالص، والمراد به : ثمرة الطاعة٠

{ بلى } أى : نعم { ويسعى } بذلك المتقدم وغيره { فى صلاح القلب } أى : نقائه من كل ما يهلكه، فإنه بصلاح القلب تصلح الأعضاء، وبفساده تفسد٠
قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ :
« إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب »

{ ويدفن الوجود فى الخمول } وهو عدم الشهرة، ودفن وجودك فيه أن لا تتعاطى أسباب الشهرة بأن تعرض نفسك للمناصب وغيرها مما فيه انتشار الصيت، فإن سلكت بعد شهرتك فالواجب عليك التواضع، وأن لا ترى لنفسك مقاماً، ولا ترى ما أنت فيه من المناصب شيئًا عظيمًا، بل ترى أن الخير فى تركه ، لكن لا تتركه إلا بإشارة من أستاذك أو بإذن إلهى٠

{ ليرتقى منازل الوصول } إلى الله تعالى، فإن العبد إذا تعاطى أسباب الشهرة فى بدايته قلَّ أن يفلح فى نهايته، وبقدر تحققه فى وصف الخمول يتحقق له مقام الإخلاص، فمبنى أمره فى بدايته على الفرار من الخلق، وإخمال الذكر، وعدم حب الشهرة، حتى إذا فنيت أوصافه وبقى بربه كان مع مولاه ، إن شاء أظهره إن شاء أخفاه٠

فإذا أخمل العبد ذكر نفسه وألزمها التواضع والمذلة، واستمر على هذا ذلك حتى صار له خلقًا وجبلة ، بحيث لا يجد لضعته ألمًا، ولا لمذلته طعمًا، فحينئذ تتزكى نفسه، ويستنير بنور الإخلاص قلبه، وينال من ربه أعلى درجات القرب والخصوصية، ويحصل على أوفر نصيب من المحبة الحقيقية٠

قال الشيخ أبو طالب : ومتى ذل فى نفسه، واتضع عند نفسه فلم يجد لذلته طعمًا ولا لضعته حسًا، فقد صار الذل والتواضع كونه، فهذا لا يكره الذم من الخلق أو وجود النقص فى نفسه، ولا يحب المدح منهم لفقد القدر والمنزلة فى نفسه، فصارت الذلة والضعة صفة له لا تفارقه، لازمة لزوم الزبالة للزبال والكُسَاحَة للكساح، وهما صنعتان له كسائر الصنائع، وربما فخروا بهما لعدم النظر إلى نقصهما، فهذه ولاية عظيمة له من ربه، قد ولاه على نفسه، وملكه عليها فقهرها بعزه، وهذا مقام محمود محبوب٠

وبعده مقام المكاشفات بأسرار الغيوب، فإذا كان لابد للمريد من إسقاط جاهه، وإخمال ذكره، وفراره عن مواضع اشتهاره، وتعاطيه أمورًا مباحة تسقطه من أعين الناس، وقد بالغ أئمة الصوفية فى ذلك حتى عملوا أمورا منكرة فى إسقاط الجاه، و رأوا ذلك جائزًا لهم أن يعملوه، وأن يأمروا به٠

كقصة الذى دخل الحمام، ولبس من أفخر ثياب الناس تحت ثيابه بحيث ترى، ومشى كمتحير يظن به السرقة، فأمسك وصُفع ومازال معروفًا بلص الحمام٠

وكما روى عن أبى يزيد - رضى الله تعالى عنه - : إنه أمر الشاهد بحلق لحيته ورأسه، وتعليق مخلاة الجوز فى رقبته، وإعطائه لمن يصفعه من الصبيان، وطوافه على تلك الحالة فى المحافل والمحاضر٠

وذكر بعضهم : إنه إذا جاز لمن غص بلقمة أن يسيغها بالخمر عند فقد غيره، مع القطع بتحريمه حرصًا على فوات حياة فانية ، أفلا يجوز مثل هذا إذا تعين بالأولى حرصًا على فوات حياة طيبة باقية٠

وقد جاء فى مدح الخمول أحاديث كثيرة :

قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يقول الله عز وجل :
« إِنَّ أَغْبَطَ أَوْلِيَائِي عِنْدِي لَمُؤْمِنٌ خَفِيفُ الْحَاذِ ذُو حَظٍّ مِنَ الصَّلَاةِ، أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَأَطَاعَهُ فِي السِّرِّ، وَكَانَ غَامِضًا فِي النَّاسِ لَا يُشَارُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ، وَكَانَ رِزْقُهُ كَفَافًا فَصَبَرَ عَلَى ذَلِكَ، ثُمَّ نَقَرَ بِإِصْبَعَيْهِ فَقَالَ : عُجِّلَتْ مَنِيَّتُهُ قَلَّتْ بَوَاكِيهِ قَلَّ تُرَاثُهُ »٠

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ :
« رب أشعث أغبر ذى طمرين تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لأبره »٠

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن يسيرًا من الرياء شرك، وإن من عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة، وإن الله يحب الأتقياء والأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يدعوا ولم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الدجى ، يخرجون من كل غبراء مظلمة »٠

وقال ـصلى الله عليه وسلم ـ فى ضمن حديث آخر :
« يا أبا هريرة إن الله يحب من خلقه الأصفياء الأخفياء الأبرياء الشعثة رؤسهم المغبرة وجوههم الخمصة بطونهم من كسب الحلال، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم، وإن خطبوا المتنعمات لم ينكحوا، وإن غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يدعوا، وإن طلعوا لم يفرح بطلعتهم، وإن مرضوا لم يعادوا، وإن ماتوا لم يشهدوا »٠
الحديث ٠

{ ولا يقل } ذلك المريد المخلص { بالكد أو بالجد أنال ذا } المقام العلى والفخر الجلى٠
{ ولا } بسبب { أبى وجدى } فإن ذلك جهل وجنون، بل ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده السالكين والمختارين لا دخل للأب ولا للجد فيه٠

{ أوراده لا يتركنها أبدًا } فإنه متى قطع ورده انقطع وارده، إذ لا وارد بدون ورد ، بل يلزمه المحافظة على أوراده التى أفاده إياها أستاذه آناء الليل، وآناء النهار على مقتضى الإشارة الواردة إليه من الأستاذ٠

{ لعله يجد ب } سبب المحافظة على { ذاك } الورد { رشدًا} أى : هدى واستقامة على طريق الحق٠
{ فكل من ليس له ورد } وهو مجموع اذكار وأدعية يقصد بها مناجاة الحق سبحانه وتعالى، والتذلل بين يديه ـ جل وعلا ـ وفاء بحق العبودية له تعالى٠

وسبب وضع العارفين لها تشويق المريدين إلى طلب المراد، وهو الله سبحانه وتعالى، لأن قصدهم جمع الخلق على الحق، وترقيهم إلى منازل الصدق، لا مجرد حظ نفس وحب رياسة لتنزههم عن ذلك٠

وكل من قطع ورده وتكاسل { فلا وارد يأتيه }
وهو : ما يرد على القلوب من الخواطر المحمودة مما لا يكون بتعمد العبد٠
وكذلك ما لا يكون من قبيل الخواطر فهو أيضًا وارد ٠

ثم قد يكون وارد من الحق، ووارد من العلم ، فالواردات أعم من الخواطر لأن الخواطر تختص بنوع الخطاب أو ما يتضمن معناه، والوارد قد يكون وارد سرور، ووارد حزن، ووارد قبض، ووارد بسط إلى غير ذلك من المعانى٠

ثم بعد أن نفى إتيان وارد على من لا ورد له، قال :
{ ولا يرقى } أى : يصعد { العلا } المراد به مقامات العرفان }

{ ومن يكن } من المريدين { يترك يومًا ورده } بلا عذر شرعى، سيما إذا كان قد بايعه عليه شيخه٠
{ لم تأت أمداد الحبيب } وهو الله سبحانه وتعالى { عنده } ٠
والأمداد : جمع مدد، وهو ما يفيضه الله تعالى على باطن العبد وظاهره، فيقوى بذلك على تحمل الأسرار الواردة عليه٠

وإليه أشار سيدى إبراهيم الدسوقى - قدس الله سره - بقوله :
" ما قطع مريد ورده يومًا إلا قطعت عنه الأمداد فى ذلك اليوم، واعلم يا ولدى أن طريقتنا هذه طريق تحقيق، وتصديق، وعمل، وتنزُّه، وغض بصر، وطهارة يد وفرج ولسان ، فمن خالف شيئًا من أفعالها رفضته ولو كرهًا "٠

وحيث كان الأمر كذلك فيجب عليه أن يلازمها، وأن لا ينفك عنها حسب الطاقة، فإنه يرى لذلك أثرًا ظاهرًا، فإن القلوب الغافلة أقسى من الصخر، والملازمة على الطاعة تلينها وتوقظها، سيما إذا كانت بمبايعة أستاذ عارف٠

{و} يجب عليه أن { يحفظ الآداب فى الأوراد } ٠
قال - صلى الله عليه وسلم - : « أدبني ربى فأحسن تأديبى »٠
وحقيقة الأدب اجتماع خصال الخير٠

قال أبو على الدقاق : العبد يصل بطاعته إلى الجنة، وبأدبه فى طاعته إلى الله سبحانه وتعالى٠

{ كيما يجوز } أى : يحوى ويُحَصِّل { حلية الرشاد} ٠
أى : الرشاد الذى يتجلى به، إذ هو مجموع خصال حميدة يتجمل بها المريد بين يدى ربه فتفاض عليه الكرامات بذلك٠

{ وإن يكن للذكر } وهو تكرار اسم المذكور { يبتديه * لا يختمن حتى يغيب }
عن شعوره بالاستغراق { فيه } أى : الذكر٠
فإن من الوجبات على المريد أن لا يختم ما بدأه من مجلس الذكر إلا إذا حصل له استغراق ليتم تأثيره فى القلب، وهذا من آكد الآداب المعمول بها عندهم٠

{ آدابه } أى : الذكر، والمراد ما يعم الشروط كما هو واضح من كلام المصنف٠
{ عشرون } على ما جرى عليه أئمتنا { فأحفظها } للعمل بها، وإلا فالحفظ مجردًا عن العمل لا يفيد٠

{ ولا تكن تسهو } أى : تنسى { وتلهوا } أى : تسلو وتغفل { عنها } فإنك إن فعلت ذلك لم تنل من ذكرك إلا التعب مع الخيبة٠

قال بعضهم للذكر ألف أدب، مجموعه فى العشرين، وهذه العشرون تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : خمسة أشياء، ومحلها قبل الذكر٠
والثانى : اثنا عشر، ومحلها أثناء الذكر، أى : فى حالته٠
والثالث : ثلاثة، ومحلها بعد الذكر٠

وقد بدأ المصنف بالقسم الأول منها، قائلا :
{ فخمسة قبل الشروع } فى الذكر { فاستمع } وعى وحافظ { يا من بذكر الحق } سبحانه وتعالى { فى القرب } من رب الأرباب، وشرب الشراب، والجلوس مع الأحباب٠

{ طمع } المراد : رجا مع الأخذ فى الأسباب، وأما المتصف بالطمع الحقيقى فلا اهلية فيه حتى ينادي فى هذا المقام العظيم شأنه٠

الأول منها : { غسل أو الوضوء } والمراد : أن يكون بدنه طاهرًا من الحدث أكبر أو أصغر، ومن نجس٠
كذلك فإن طهارة الظاهر، والمداومة عليها تورث طهارة الباطن، وهى سلاح المريد٠

كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الوضوء سلاح المؤمن »٠
ومعناه : إنه يقاتل به أعداءه من الشياطين ويدفع شرهم عنه، سيما فى أوقات الذكر فإنها أوقات جهاد معهم، وحرب شديدة٠
والمراد : إن لم يتيسر له الغسل فالوضوء، فإن تيسر له الغسل فهو أفضل٠

الثانى : { توبة } تنوينها للتعظيم، أى : خالصة صادقة نصوح٠
وهى : الرجوع عن الأقوال، والأفعال، والأحوال، أقوال الألسنة، وأفعال الجوارح، وأحوال القلوب٠
وأحكامها : قلة الكلام، وقلة المنام، وقلة الطعام، والعزلة بالقلب عن الأنام، والمشى على شريعة خير الأنام٠
وعلامتها : أن تُحيى ماكان عندك ميتًا، وتُميت ما كان حيًا، وتُحضر ما كان غائبًا، وتُغَيِّب ما كان حاضرًا٠
تحيى القلب بالتوحيد، وتميت النفس عن هواها، وتغيب أهل الدنيا، وتحضر الموت وتراقبه كل يوم وليلة، وتجعل الدنيا خلف ظهرك لأنها رأس كل خطيئة، فإن من لم يفعل ذلك لم يخلص فى توبته٠

الثالث : { بكا } بالقصر ، سيلان الدموع من غير صوت٠
أى ليغسل أوزاره بمدامع الندم و الاستغفار حتي يصلح لدخول حضرة القهار ، فإن لم يبك حقيقة فليتباك لحديث : " فان لم تبكوا فتباكوا"٠

الرابع : { صمت } باللسان عن الكلام، و { سكون } بالجوارح فلا يعبث بالحركة ليحصل له الصدق فى الذكر بأن يشغل قلبه بالله، ويقول الله بالفكر دون اللفظ لئلا يبقى له خاطر مع غير الله٠

قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن الله غيور لا يحب أن يذكر ويذكر معه غيره »٠
ثم يتبع اللسان القلب٠

{ ثم } الخامس من الآداب : { يا من قَبِلَ } النصيحة من مخلص عارف بربه محب لخير أمة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من إخوانه، وأولاده، وبقية المسلمين٠

{ أن يستمد } أى : يطلب المدد بقلبه عند الشروع فى الذكر بهمة صادقة٠
{ من مربيه } أى : شيخه وأستاذه وقدوته وملاذه، وأن يديم هذا الاستمداد بأن يستحضره دائمًا فى حال الذكر نصب عينيه، وفى غير الذكر كذلك كما تقدم٠

وقوله { الصبى } بسكون الياء، بيان لحقيقة المريد فإنه فى حِجر الطفولية لم يخرج عن حَجْر التمسك بأستاذه، ولم يستغن عن الإستمداد منه، إذ هو رفيقه فى طريقه إلى الله تعالى٠
قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « خذ الرفيق قبل الطريق، والجار قبل الدار »٠

يفعل ذلك حال كونه { معتقدًا } ومتيقنا بقلبه { أمداده } فى الحقيقة٠
ونفس الأمر { من النبى } بسكون الياء، إذ هو أعنى شيخه مجرد واسطة بينه وبين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وكل فيض وكرم ومدد فهو من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وإنما الاشياخ ـ رضى الله عنهم ـ طريق فى وصول ذلك المدد إلى المريد٠

قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « رحم الله خلفائى »٠
وهم : الوسائط٠

ثم بدأ في القسم الثانى، فقال :
{ ثم له عشرة واثنان فى حالة الذكر لدى } أى : عند طالب { الإحسان } من رب الأرباب.

الأول { جلوسه كحالة الصلاة } : بأن يكون مفترشًا.
والافتراش : الجلوس على كعب اليسرى مع جعل ظهرها على الأرض، ونصب اليمنى.

هذا إذا ذكر جالسًا، وهو ذكر الكسالى، إذ الجلوس علامة على فتور الهمة، والأفضل أن يذكر قائمًا بحيث يهتز من فرقه إلى إبهام رجله، فإنه دليل الهمة الصادقة، وأما الذكر متمكنًا فلا يكون إلا للمنتهين العارفين.

{ مستقبلًا } فى حال ذكره { لأشرف الجهات } وهى : جهة الكعبة المطهرة.
قال - صلى الله عليه وسلم - : « خير مجالسكم ما استقبلتم به القبلة ».
هذا اذا كان وحده، فإن كانوا جماعة تحلقوا، واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا.

{و} الثانى : { فوق فخذيه يضع يديه } بحيث تسامت رؤس أصابعه ركبتيه، منشورة مضمومة إلى جهة القبلة كالصلاة فإنه فى حضرة ربه تعالى.

{و} الثالث ان : { ليغمض الأجفان من عينيه } فإن بتغميض عينيه تنسد طرق الحواس الظاهرة، وبسدها تنفتح حواس القلب الباطنة.

{و} الرابع : أن { يجلس على مكان طاهر } فإن نجاسة المكان تمنع من حضور ملائكة الرحمة { فى ظلمة } إن وجدت كخلوة أو سرداب تحت الأرض { لأجل } حصول { سر } عظيم خارج هذا الحصر { باهر } أى : غالب للعقل فلا يكاد يصفه ، وذلك بما حصل له من صفاء وقته بسبب جلوسه فى المكان المظلم.

{و} الخامس : { الصدق } فى الذكر بأن يكون لا لرياء ولا لعجب، فيستوى عنده السر والعلانية.
قال - صلى الله عليه وسلم - : « الإثمُ ما حاك في صدرِك، وكرِهتَ أن يطَّلِعَ عليه الناسُ ».

{و} السادس : { الإخلاص فيه } وهو تنقية العمل، وتصفيته من شوائب الرياء، وقيل : تصفية الفعل من ملاحظة المخلوقين.
قال الله تعالى : { أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ }.

عن حزيفة - رضى الله عنه - قال : « سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت جبريل - عليه السلام - عن الإخلاص ما هو ؟ قال : سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو ؟ قال : الإخلاص سرٌّ من سرِّى استودعته قلب من أحببته من عبادى ».

وقد ورد فى خبر أن النبى - صلى الله عليه وسلم - أخبر جبريل - عليه السلام - عن الله سبحانه وتعالى : « الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببته من عبادى ».

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ وَمُنَاصَحَةُ وُلَاةِ الْأُمُورِ وَلُزُومُ جَمَاعَةِ المسلمين »٠

{ فاحفظا } إنما أتى بنون التوكيد المنقلبة ألفًا للقافية، لأجل زيادة التأكيد فى الحفظ المؤيد بالعمل٠

{و} السابع : { طيب ثوب } وطيبه على قسمين :
ظاهرًا : كعدم وجود قذر به، وكونه طاهرًا مطيبًا بشىء من الروائح الجميلة٠
وباطنًا : ككونه من حلال، ولو من شراميط الكيمان لتكون الفائدة أتم وأبلغ أوعظم فى التنوير، وإلقاء النور على النور٠

{ ثم كن مستيقظًا } للخواطر الرديئة التى ترد عليك فى حالة الذكر، فانفها كلها بشدة من غير تفرقة بين مليح أو غيره، إذ المبتدى هذا حاله٠

{و} الثامن : { طيب المجلس } أى : محل جلوسك بأن تبخره بشىء من الروائح الذكية كالعود والمصطكى، وكذا ثيابك بمسك أو عطر٠
قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « تطيبوا فإنى أحب الطيب والله يحبه وأخى جبريل »٠
وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « حبب إلى من دنياكم ثلاث الطيب ٠٠»٠ الحديث

{و} التاسع : { انف كل مو*جود عن القلب } حال الذكر سوى الله تعالى بقول :
" لا إله إلا الله " فإن الحق غيور لا يحب أن يرى فى قلب الذاكر غيره، ولولا أن الشيخ له مدخل عظيم، وباب مستقيم فى تأديب المريد لما ساغ للمريد أن يتخيله بين عينيه، وإنما اشترطوا نفى كل موجود من القلب ليتمكن لهم تأثير الذكر فى القلب، ثم يسرى ذلك المعنى إلى سائر الجسد، فيكون قد صادف قلبًا خاليًا فتمكنا٠

{ وهكذا رَوَوُا } كابِرًا عن كابِرٍ بالحفظ والضبط من غير خلال بشىء، عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن جبريل عليه السلام عن رب العزة جلَّ وعلَا ، ثم ما زالت يرويها تقى عن تقى حتى وصلت إلينا، فجازاهم الله عن الأمة خيرًا٠

{و} العاشر : { الذكر } قال الإمام الغزالى ـ قدس الله سره ـ :
الذكر حقيقة هو استيلاء المذكور على القلب وانمحاء الذاكر وخفاؤه، لكن له ثلاثة قشور بعضها أقرب من بعض إلى اللب، واللب وراء القشور الثلاثة٠

وإنما فضل القشر لأنه طريق إليه ، فالقشر الأعلى ذكر اللسان فقط، فلا يزال الذاكر موالى الذكر بلسانه، ويتكلف استحضار القلب معه حتى يحضر، ولو تركه لاسترسل فى أودية الأفكار حتى يشارك القلب اللسان، ويحرق نور القلب الشهوات والشياطين، ويستولى ذكره فيضعف ذكر اللسان عند ذلك، وتمتلىء الجوارح والجوانح بالأنوار، ويتطهَّر القلب من دنس الأغيار٠

والذكر له مراتب : فيكون أولًا باللسان ثم بالقلب ثم بالنفس ثم بالروح ثم بالعقل ثم بالسر، ورزق الظاهر بحركة الأجسام، ورزق الباطن بحركة القلوب، ورزق الأسرار بالسكون، ورزق العقول بالفناء عن السكون، حتى يكون العبد ساكنًا لله مع الله، وليس فى الأغذية قوت للأرواح، وإنما هى غذاء الأشباح، وقوت الأرواح والقلوب ذكر علام الغيوب٠

قال تعالى : { الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } ٠
فإذا ذكرت الله تعالى بلسانك ذكر مع لسانك الجمادات كلها، فاذا ذكرته بقلبك ذكر مع قلبك الكون وما فيه من عوالم الله، وإذا ذكرته بروحك ذكر معك حملة العرش، ومن طاف به من الملائكة المقربين الكروبيين، والأرواح المقربون، وإذا ذكرته بسرك ذكر معك من فوقهم من العوالم، إلى أن يتصل الذكر بالذات العلية المقدسة٠

{ تنبيهات } :

{ الأول } إذا ذكر الشخص بلسانه، ونظر بقلبه إلى الله تعالى، وداوم على هذا الوجه، يحصل فى الأعضاء والمفاصل بعض مرض، ويأخذ قلبه فى الوجع مع قليل حرق، اللهم لا تحرم طالبيك من هذا الوجع، ووفقهم أن يشكروك على هذه الأوجاع٠

ومنشؤها أن الذكر يقطع اللذات والحظوظ التى تمكنت فى قلبه وأعضائه وجوارحه أيام الغفلة، فيكون هذا ابتداء نفوذ الذكر فى قلبه ، فإذا زادت مواظبته على الذكر يصل أثر ذلك إلى الروح، فيذكر الروح ويجلس على سرير القلب بالخلافة، ويحكم على الحواس الظاهرة والباطنة، فتنعزل النفس، وتكون من رعايا الروح، ثم يصل أثر ذلك إلى السر ٠

{ الثانى } من خواص الذكر إذا داوم المريد عليه أن يصل أثره إلى جميع الأعضاء، ويظهر تصرفه فى الجوارح والأعضاء ، فإذا وصل إلى عضو يحصل فيه ضربان مثل ضربان العروق النافضة، وتكثر الاختلاجات حتى لا يبقى منه جزء من لحمه ولا من عظمه إلا ويجد فيه حركة واختلاجًا، وقد تقوى مع الملازمة على الذكر حتى تصير أصواتاً وكلامًا، حتى يسمع العبد من جميع جوارحه وأجزائه أصواتا، بل يسمع من قلبه لله أسماء أو أذكاراً لم يسمعها قط من أحد، ولا رآها فى كتاب بعبارات مختلفة وألسن متتابعة، لم يسمعها ملك ولا آدمى٠

{ الثالث } فى ذكر القلب والاستحضار، يرد على الذاكر أحوال بحيث يتوهم إنه يربو ويعظم حتى كأنه أكبر من كل شىء، ثم يرد عليه من الحق قهر من الخوف فيرجع إلى حاله الأول، وهاهنا يخاف عليه من النفس والشيطان فيقصر فى الذكر بالتصريح ، فيرجع فتأخذ روزنة قلبه فى الانسداد كما أخذت فى الانفتاح بالتدريج ، حتي تنسيه بالكلية فتكون تحت قهر :
{ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } ٠

ومن عرف طريقًا ثم أعرض عنها، عذبه الله عذاباً أليمًا لم يعذبه أحدًا من العالمين، وهذا أقبح من الامتناع فى من الشروع، إذ مثله مثل من كفر بعد أن آمن، فيجب على الطالب أن يكون ذكر الله نصب عينيه، ولا يصرف نفسه عنه طرفة عين، ويستوعب جميع أوقاته فى الذكر، ويجتهد أن لا يخلو نفس من أنفاسه من ذكر الله تعالى ، وليتقرب إلى الله بأفضل الأعمال، وأفضلها عندهم أن يسلم نفسه إلى الذكر، ويفنى فيه حتى يغيب عن جميع الأشياء، حتى عن نفسه وعن الذكر بالمذكور٠

فإذا فنى الذاكر عن حسه ودواعى نفسه، ولم يبق فيه غير الله صار القلب بيت الحق فيخرج الذكر من غير قصد ولا كلفة، وحينئذ يكون الحق المبين لسانه الذى ينطق به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشي بها، وأذنه التى يسمع بها، قد استولى الغنى الجواد على الفؤاد فملكه، وعلى الجوارح فصرفها فيما يرضيه ، وعلى الصفات من العبد فقلبها كيف شاء في مرضاته ، فلذلك يخرج الذكر من غير تكلف، وتتبعه الأعمال بالطاعات لذة و نشاطاً٠

فإذا لازم الشخص الذكر استبدل الذكر الإنسى بالذكر القدسى، وترقى من ضيق اذكرونى، إلى فضاء أذكركم ، فيزداد بالشرب عطشًا، وبالقرب من المذكور شوقًا إلى القرب منه٠

{ الرابع } وحيث لازم الذاكر همته فى الذكر، ولم يلتفت إلى الواردات ولا إلى الكرامات، ولم يلاحظها نال المراد، وترد عليه علوم حتى يظن أنه فتح عليه بعلوم الأولين والآخرين، فإذا لاحظ ما يرد عليه من العلوم فقد أساء الأدب واستحق العقوبة، وعقوبته أن يرد إلى حال الفهم٠

والفرق بين الفهم والعلم : أن العلم وجود يرد على القلب من حيث العلم، والفهم نظر إلى ذلك العلم، فإذا نظر إلى الفهم فقد أساء واستحق العقوبة، وعقوبته أن يرد إلى حال الغفلة٠

والذكر المخصوص الذى تقدم لك إشارة إلى بعض ثمراته هو " لا إله إلا الله " لأنها أفضل العبادات كما قال - صلى الله عليه وسلم - :
« أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله »٠
وتقدم ما يشفى فى الأركان من الفضل، وهى آية من كتاب الله تعالى٠

قالوا : ويجب على المريد أن يلاحظ ذلك فى ابتدائه لئلا يفوته الثواب عند عدم ملاحظته بالغفلة، فيحصل ثواب التلاوة٠
وحيث علمت ذلك فليحذر الذاكر اللحن فيها٠
قال تعالى : { وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً } ٠

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « رب قارئ للقرآن والقرآن يلعنه »
فيجب تجويدها على تاليها، ومعرفة مبانيها٠

وقد أجمع القراء على أن " لا " فى الذكر تمد من حركتين إلى ست، و " إله " حركتين لا غير، و " إلا الله " تمد من حركتين إلى سبع ألفات، أى : أربعة عشرة حركة، وأن يحقق الهمزة من " إله " وأن يفتح هاءه فتحة خفيفة، وأن لا يفصل بين الهاء بين " إلا الله "، وان يحقق همزة " الله "، وأن يسكن الهاء آخر لفظ الجلالة.

قال سيدى أحمد بن شرقاوى فى كتابه " شمس التحقيق " نقلا عن المحقق الأمير :
واعلم أن جميع كلمة التوحيد مرققة، فلا يفخم فيها إلا لفظ الجلالة فقط، وأما مخارج حروفها فقد انحصرت فى أربعة ؛ اللام والألف والهمزة والهاء :
فمخرج اللام من طرف اللسان يوضع فى أصل الثنايا العليا.
ومخرج الألف من أصل الجوف خارجة من محض النفس.
ومخرج الهمزة والهاء كلاهما من الحلق غير أن الهمزة أشد من الهاء وأيبس.

ونهى العلماء عن السكت على " لا إله " لما فيها من إيهام التعطيل، بل يصله بالاستثناء و الإثبات بقوله " إلا الله " بسرعة، خلافًا لما سمعته من بعض هؤلاء الذين ينسبون إلى الفقراء الصوفية وما هم منهم، ولكنهم قومًا لا يفقهون.

إلى أن قال : وليحذر مما يقع لبعضهم من تفخيم أداة النفى، وربما مال بألفها إلى جهة الشفتين فتصير كالواو، أو لجهة وسط اللسان وما فوقه فتصير كالياء ، أو يبدل همزة إله ياء ، أو يشبع الهمزة فيتولد منها ياء ، أو يزيد فى ألف إله على المد الطبيعى ، أو يسكت هناك سكتة لطيفة ، أو يشبع همزة إلا فيتولد منها ياء، أو يثبت ألفها فإنه لحن ، بل يجب حذف الألف الأخيرة لالتقاء الساكنين ، وهؤلاء الجهلة يثبتونها ويمدونها ويتفننون فى مدها ، وبعضهم يمد الهاء ويولد من إشباعها ألفاً ، بل سمعت بعضهم يثبت همزة الله و يمدها حتى تصير كالاستفهام ، وكل ذلك مخالف لما نطق به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمر به.

وتارة يزعمون أنهم انجذبوا فيأكلون بعض حروف هذه الكلمة، ويحرفونها، وربما لم تسمع منهم إلا أصواتاً ساذجة ، أو شيئًا يشبه نهيق الحمار، أو هدير الطائر.

إلى أن قال : نعم المأخوذ عن حسه الغائب عن نفسه كل ما جرى على لسانه لا لوم فيه.

وقال فيها : وعلاماتها أى الغيبة : هز القلب والجوارح، وطرش الأذنين، وعمى العينين، و جولان الوارد فى القلب كجولان الرعد فى السماء، حتى يغيب فى القرب عن القرب لعظيم القرب، ولا يبقي يعرف ما يقول، ولا ما يقال له ، فيسلم قياده إلى وارده يتصرف فيه كيف شاء.

(تنبيه)

اعلم أن الذكر منفردًا أنفع لأصحاب الخلوة ، وجماعة أنفع لمن لا خلوة له ، وأن الجهر أنفع لمن غلبت عليه البشرية، والوسواس، والقسوة من أصحاب البدايات٠

والسر أنفع لمن غلبت عله الجمعية، وشاهد الوحدة فى الكثرة، والكثرة فى الوحدة من أصحاب السلوك ، وأن إفراد " لا إله إلا الله " أفضل للسالكين حتى تحصل لهم الجمعية مع الله تعالى بقلوبهم، وإذا حصلت فذكر محمد رسول الله معها أفضل٠

وبيان ذلك أن ذكر محمد رسول الله إقرار تكفى فى العمر مرة واحدة ، والمقصود من تكرار التوحيد كثرة جلاء القلب ليزول الرين، والشبه، والشرك الخفى، ورؤية الأغيار بكثرة التوحيد، فإذا زال ذلك حصلت له الجمعية والمعية مع الله ورسوله من غير فرق، فيرى الوحدة ويري فعلها لا غير ، فيحصل له كمال المشاهدة، وحينئذ يصلح له ذكرهما معًا٠

والحادى عشر : ذكره بقوله { واستحضرن صاح له معناه }
بالقلب، ويكون الاستحضار على حسب درجة المشاهدة فى الذاكرين، بشرط أن يعرض على شيخه كل شيء ترقى إليه من الأذواق ليعلمه كيفية الأدب فيه ، وذلك فى كل مرة، فإن كان الغالب عليه ظهور البشرية والوسواس فعليه أن يقول بلسانه " لا إله إلا الله " وبقلبه
" لا معبود بحق إلا الله "٠
ولصفاء القلب وطلب شيء من المعرفة والشوق والذوق، يقول بلسانه " لا إله إلا الله " وبقلبه " لا موجود إلا الله "٠

والثانى عشر : ذكره بقوله { ثم خيال الشيخ صوره } دائمًا نصب عينيك٠
{ ولا * تكن عنه تغفل } ما دمت فى حالة الذكر ، هذا عندهم من آكد الآداب ، فإنه إن استغنى عن كل الشروط المتقدمة ، لا يستغنى عن هذا الشرط ، لأن المريد يترقى به إلى الأدب مع الله سبحانه وتعالى ، والمراقبة له جل وعلا٠

كما قال { ترقى العلا } بسبب ذلك، فإن من لا شيخ له فإمامه الشيطان٠

ثم ذكر القسم الثالث بقوله { ثم الثلاث } التى تجب على المريد ملاحظتها بعد الذكر أذكرها لك علي الترتيب :

الأول منها : { الصمت } باللسان { والسكون } بالأعضاء مع الخشوع، واستحضار القلب٠ { مترقبًا } ومنتظرًا { لوارد يكون } أى : يوجد٠

{و} الثانى : { نفسًا يزمه } أى : يمسكه فلا يدعه يخرج حتى ينتهى صبره، يفعل ذلك { مراراً } من ثلاثة أنفاس إلى سبعة إلى أكثر بحسب قوة عزمه٠
هذا المجمع على وجوبه عند الأشياخ حتى يدور الوارد فى جميع عوالمه، فتتنور بصيرته، وتنقطع عنه خواطر النفس، ووساوس الشيطان، وتنكشف له الحجب٠

وهو معنى قوله { تأتى الفيوضات له } من عند الله سبحانه وتعالى { مدراراً } أى : كثيرة جدًا ، وذلك بسبب ورود الوارد عليه { فربما يعمر } ذلك الوارد { الوجودا } بألف الإطلاق، أى : الانقطاع من الخلق إلى الحق٠

{ فى لحظة } لطيفة من الزمن { ويورث الشهود } للقلب { بما } أى : فتح عظيم لا نظير له٠
{ بما به ليست تفى الرياضة * فى مدة } قالوا : قد يعمر الباطن بالوارد فى تلك اللحظة عماراً لا تفى به المجاهدة، والرياضة فى أكثر من ثلاثين سنة٠
{ إذ سحبه فياضة } أى : أمداده عظيمة٠
وفى المثل : فى لمحة تقع الصلحة٠

وذلك { كأن على قلبك يا ذا يرد * وارد زهد فى الدنيا } فيجب عليك التمهل فيه حتى يتمكن فيك الزهد، وتصير تتنغص إذا فتح عليك بشىء من الدنيا، عكس ما كنت عليه قبل٠ { فتسعد } بذلك كما تقدم فى فضل الزهد وأهله٠

أو ورد عليك وارد تحمل أذى ، فيجب عليك التمهل فيه حتى يتمكن، ويستحكم، وتصير إذا قام عليك الوجود كله بالأذى لا تتحرك منك شعرة ، كما لا يتحرك الجمل من نفخ الشاة ، لأنك قد شاهدت الأغيار أمثال أفياء فى ذلك الوارد ، ورأيت الله للكل فاعلًا ، وهكذا من وارد علم وفتح وحب ومراقبة٠

{ أن يقبل القلب ما قد وردا } عليه من الواردات المتقدمة { فلا ترى } بعد ذلك فى السلوك إلى الله تعالى { بأس } أى : شدة { عناء } أى : نصب وتعب { وردى } أى : هلاك٠

فإنك بالقبول للوارد، والترقب له قد ظفرت به فلا خوف إذاً، بخلاف ما إذا لم تترقبه فإنه لا يحصل لك تحقق بذاك المقام الذى أتى به الوارد٠

قال تعالى : { إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ } ٠
فهذه المسكنة وقت إخراج الصدقات للفقراء والمساكين، لا للأغنياء والمتكبرين، فإذا لم يكن عند الذاكر اشتياق وافتقار لا يعطاه أبدًا٠

قال حجة الاسلام الغزالى - قدس الله سره - : ولهذه المسكنة ثلاثة آداب :
أن يستحضر العبد أن الله تعالى مطلع عليه، وهو فى قبضته وبين يديه ، وأن يجمع حواسه بحيث لا يتحرك منه شعرة واحدة كحال الفأرة عند صيد الهرة لها، وأن ينفى الخواطر كلها، ويجرى معنى " الله الله " على قلبه، وهذه الآداب لا تتم المراقبة إلا بها.

{و} الثالث : { منع شرب الماء } عقب الذكر مطلقًا قليلًا أو كثيرًا { إذ ذا } ك الشرب الممنوع { يطفئ * حرقة شوق } فإن الذكر يورث حرقة وهيامًا إلى المذكور الذى هو المطلوب الأعظم من الذكر، وشرب الماء يطفئ تلك الحرارة، وهذا الحال { للسلوك ينفى } لأنه كلما تجدد شوق أطفىء ، ولا سلوك إلا بالشوق.

وقوله { عقيبه } أى : الذكر. متعلق بمنع شرب الماء، هكذا أكد الاشياخ بمنعه.
{ إلا بعيد } بالتصغير لاستعذاب اللفظ، أو لأن { ساعة و } هى بمعنى أو { نصفها } قليل جدًا ، فإن الأكمل أن يترك ذلك حتى يسكن اضطراب قلبه بسكون تلك الحرارة التى أحدثها الذكر.

{ وليخفى التياعه } أى : احتراقه فإن ذلك أكمل فى الأدب ، وأرجى للفتح ، وأقرب للوصول، هذاما يجب على الصاحب الذى لم يبلغ حد الخروج على الحس.

{ و } حكم { من همى } أى : فاض حتى طفح وانصب { بالوجد } أى : شدة الشوق.
{ منه القدح } المراد : القلب {و} الحال أنه { لم يطيق صبرًا } عن الشرب.
{ له قد سمحوا } لأنهم لو منعوه بعد تحققه بهذين الوصفين لكانوا متجاوزين حد الإنصاف.

ثم أن المصنف ذكر علامة لذلك بقوله { دليله يأخذ فوق العادة * منه } فإن تجاوزه الحد، وارتكابه هذه الحالة التى توجب ضرر السليم ، دليل على أنه ما فعل ذلك إلا وهو غائب عن حسه، مأخوذ بأنوار قدسه. قد تمكنت منه نار الشوق وذكت بين أضلاعه، وليس على محب ملام، فإن كنت ايها المريد على ما وصف فلا لوم عليك ولا حرج.

{ وإلا } فهذا الفعل المشعر بما تقدم { لم تجزه } لك { السادة } أهل الكمال الواصلون فى الطريق، وذلك لأوجه :
الأول : إطفاء حرقة الشوق.
الثانى : إنه إشعار بدعوى.
الثالث : أنه سوء أدب بين يدى الأشياخ.
وكل واحدة توجب سد الباب والبعد عن الأحباب فلم يجيزوه لذلك.

ولأنه { كذاك طبًا } أى : فى الطب { شربه } أى :الماء { ممنوع } عقب الذكر لأنه يفسد الرئتين، ويضر بالطحال والكبد، فهكذا يجب أن يكون المريد.

{ ومن يخالف } للشروط المتقدمة { شربنا ممنوع } فلا يذوقه ولا يظفر بجرعة منه.
ويحتمل أن الشرب بالضم : الجرع ، أو بالكسر : الماء، والمراد به هنا :الفتح بأنوار الطريق.

إذا علمت ذلك أيها المريد، ودققت فيه نظر الفكر { فاحرص على هذى } الآداب { الثلاث } التى بعد الذكر { ذا } أى : ذات، وحذف التاء لضرورة النظم٠

أى صاحبة { البها } أى : الحسن الواضح، فإن { نتيجة } أى : ثمرة وفائدة { الذكر له } أى ذلك المريد { تبدو } وتظهر { بها } أى : بسبب العمل بها والمحافظة عليها، فإنها من آكد الآداب المتقدمة ٠

(تنبيه)

للطالب آداب أخر بالنسبة إلى الذكر، أردت سرد بعض منها تتميمًا للفائدة٠

فأقول : إذا كان الطالب يذكر مع الجماعة، وأراد أن يدخل فى مجلس الذكر فينبغى له أن يقضى مهماته الشاغلة له عن الحضور فى الذكر، ويلبس أحسن ثيابه، والأبيض أفضل، ويأخذ الطيب والسواك قبل حضوره، ويكون على طهارة كاملة، ويصحب شيئًا من العطريات فى فمه إذا لم يكن صائمًا، وإذا دخل محل الذكر وكان مسجدًا صلى به ركعتين التحية ، فإذا لم يكن الذكر قائمًا قبل يد أستاذه وسلم على إخوانه، ثم يجلس متأدبًا مطرقًا صامتًا أو مشغوًلا بالذكر سرًا، وهو أولى٠

وإن رأى الذكر قائمًا قال فى سره : دستور يا أهل الطريق، دستور يا أهل القدم، ودخل ثم أخذ فى الذكر، وإذا أرادوا افتتاح الذكر استأذنوا أوًلا بقلوبهم أصحاب الطريق والقدم، بعد الاستئذان من الله ورسوله٠

وأفادنا الأشياخ أن المريد فى الابتداء يستأذن أوًلا أستاذه بقوله : دستور يا سيدى فلان، ويكون استئذانه فى دخول حضرة النبى - صلى الله عليه وسلم - إذ هو بابه إليها ، ثم يقول دستور يا رسول الله، وهو مستحضر ذاته الشريفة كأنه بين يديه مستأذنًا منه - صلى الله عليه وسلم - فى دخول حضرة الله سبحانه وتعالى، إذ هو - صلى الله عليه وسلم - باب
الخلق إليها ، ثم يقول دستور يا الله مستأذنًا فى الجلوس فى هذه الحضرة المقدسة٠
وعند إرادة الختام يستأذن من الأعلى فالأعلى متدليًا عكس الدخول٠

ثم يأخذون فى الذكر بسكينة ووقار وخشوع، بصوت متوسط على الهوينا من غير تمطيط، وعليهم مراعاة الوفاق فى الأصوات علوًا وخفضًا، وتحسين قراءة الورد إن كان بالوقف و السجعات، لأن فى ذلك نشاطاً للنفس، ولذة للروح، وراحة للسر، وقهرًا للشيطان وفراراً، و لا يكثر أحدهم الالتفاتات، ولا يعبث بلحيته، ولا يلعب بيده،ولا بشيء من ثيابه، لأنه فى حضرة الله عز وجل، فإن لعب وعبث طرد من هذا المقام الجليل، والمجلس الكريم٠

ولا ينظر بعضهم بعضًا فانه مانع من الحضور ، بل يغمض عينيه ، ولا بأس من التمايل يمينًا وشماًلا مع كمال الأدب، وإن كان الذكر ب " لا إله إلا الله " يبتدي النفى من جهة اليمين، وينطق ب " إله " بين ثدييه، و " إلا الله " يضرب بها جهة قلبه لئلا يشهد القلب غير الله تعالى٠

وإن كان الذكر بالجلالة رفع رأسه وضرب به صدره، وينبغى أن يكون معه منديل يمسح بها ما يعرض عليه من بصاق ونحوه ، ولا يخرج لذلك إلا إن انحصر ببول أو غائط أو ريح.

وإذا أراد المقدم عليهم بالأدب أن يفتتح الذكر، أو يسكتهم، أو يرفع الذكر، أو يخفضه لهم قال دستور يا الله بقلبه، وعليه أن يحذر من التمطيط و،العجلة الشديدة لأنها تخرج الذكر عن حده الشرعى.
مدوالاقتصار فى المجلس أولى من التطويل لأن المجلس إذا طال صار للشيطان فيه مدخل، ما لم يحصل خشوع ولذة ، فلا يقطع ذلك عليهم ، فإذا فهم مللهم استأذن بقلبه وختم، و يقول : اللهم إن ذكرك لا يمل منه، وإنما عبيدك هؤلاء منهم الضعيف و ذو الحاجة، ومرادى أن أختم بهم.

وإذا قرأ القارئ آيات من القرآن الكريم ، أو قال الحادى شيئًا من كلام القوم ، أطرق كل منهم برأسه وسكن أعضاءه، وألقى كليته لسماع ذلك، وعرض على نفسه ما يسمعه متأولًا ذلك بما يليق به.

فإن رأى ذلك موافقًا لحاله حمد الله تعالى بقلبه ، وإلا أخذ فى الاستغفار وطلب التوبة بالقلب، ولا ينهنه، ولا يتصعب، ولا يهتز، ولا يتأوه، ولا يقول شىء لله، ولا أعد القول، ولا نحو ذلك ، فإنه سوء أدب مع الله ورسوله خصوصًا بحضرة الشيخ.

وإذا قال الشيخ شيئًا من هذا لمصلحة رآها فلا يقتدى به فى ذلك، ولا يقول مثل قوله، ولا ينبغى للشيخ أن يقر أحدًا على الصراخ بل يزجرهم عن ذلك كله ، إلا إن تحقق أنه عن غلبة قوية، وحال صادقة.
وليحرصوا أن يكون الذكر على وتيرة واحدة وطريقة مستقيمة، وليس لحدهم أن يغير الطريقة من حدر إلى ترتيل، وعكسه مثلًا حتى يرسم الشيخ أو المُقدَم عليهم ، وكذا فى البدء والختم.

{ واعلم بأن الصوفى } بحذف الياء نطقًا لاستقامة الوزن : أى الصوفى الحقيقى الشرعى المحمدى القدم هو { من بذا } الطريق بالمحافظة على آدابها { وَفَى } بعهده، وقام بها حق قيام حتى تخلى عن كل رذيلة.

{ ثم تحلى بصفات المصطفى } - صلى الله عليه وسلم - ؛ كالعلم والعمل والصدق والعفاف، والجد، والكرم، وحسن الخلق، والرأفة والرحمة.

فإنه حينئذ قد { صافى } الحق سبحانه وتعالى فى عبادته { فصوفى } من قبله تعالى بالفيض والقرب والمشاهدة { وب } سبب { هذا } أى : إخلاصه وخلوصه { قد سمى } بالصوفى فى الدنيا بالطاعة له تعالى، والترقى فى المعارف، وفى الآخرة بالحسنى وزيادة.

{ لا فى } أى : بسبب { لباس الصوف يدنو } ويقرب من حضرة القدس، وصفاء الأنس٠
{ المنتمى } لهذا الطريق ، فإن لبس الصوف لا دخل له، وإنما هو مجرد لباس٠

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه * ولا بكاؤك إن غنى المغنونا
ولا صياح ولا رقص ولا طرب * ولا اضطراب كأن قد صرت مجنونا
بل التصوف أن تصفو بلا كدر * وتتبع الحق والقرآن والدينا

ثم أن المصنف ـ قدس الله سره ـ بيِّن الحقيقة بقوله :

{ وإن ذا } الطريق { طريقنا } معشر أتباع القدم المحمدى الذى أخذناه عن السادة كابرا عن كابر { بالحال * يسلك } وتنال ثمرته { لا بالقال } والقيل والدعاوى الباطلة٠

{و} لا ب { المحال } كلبس الصوف، وإرخاء الشعور، وحمل السبح، والجلوس على السجاجيد، وتكثير التلاميذة لضرب العوائد عليهم، والرقص فى الأذكار، والصياح، والتباله، إلى غير ذلك من خزعبلات أهل هذا الزمان، و ترهاتهم الفاسدة٠

وقد ألف فى الرد عليهم من أئمة التحقيق أهل هذا الشأن قوم كثيرون فى العصور الخالية، ومن فى هذا العصر٠

ومن ذلك رسالة قطب الدهر، وفريد العصر البحر الخضم، والطود الأشم سيدنا الشيخ أحمد بن شرقاوى نفع الله تعالى به المريدين، وأفاض علينا من بركاته والمسلمين٠

واقتباساً من ضوء مصباحه، واقتطافا من ثمرات صلاحه، قد طرزت شرحى هذا بكتابه المسمى ب " نصيحة الذاكرين " ليكون كاملًا منتفعصا به بين المسلمين٠

فأقول : قال : نفعنا الله به آمين :
(بسم الله الرحمن الرحيم)
الحمد لله الذى أباح أهل الذكر فردوس الشهود، وأطلع شموس أهل السر على صفحات الوجود، فاستنارت بهم البقاع الحوالك، واستبانت بهم إلى الله المسالك، فرأبوا بهديهم ثأى الكون، وأنقذوا الغراء من الهون بالعون، مستمسكين بسنة جمال الكونين، متبرئين من كل حدث بالأصغرين٠

والصلاة والسلام على مالك أزمة أهل الحضرة الجبروتية، وإمام كل مقتدى به من اتصف بالقبلية والبعدية، وعلى آله وأصحابه الذين شدوا مآذرهم على اتباعه فى القول والفعل وعقد الطوية، وعلى من قفا سننه، وأتبع سنته بحسن نية٠

(أما بعد)

فيقول عبد مولاه، كسير القلب مما جناه، قليل الزاد ليوم المعاد، محسوب الجناب الحفناوى أحمد بن شرقاوى :
أنه لما طوقنى أستاذى بطوق الإرشاد، وسدت غير مسود بين العباد، اجتمع معى خلق كثيرون على ذكر الجليل ليظفروا بالدرجات العلا والثواب الجزيل، وسلموا إلىَّ قيادهم، وطلبوا منى إرشادهم٠

فوجدت الذكر الذى عليه أكثر الناس مقيمون، وعلى استحسانه متواطئون ومتفقون، مشتملًا على تقطيع كلمة التوحيد، وقصر علم الحق المجيد، حتى صارت الكلمة المشرفة هكذا " لوو وو الو ووه ايلا اللو ووواه " ٠

وصار العلم الشريف " الله " بدون ألف بعد اللامين، وربما مدوا همزته وأبدلوا هاءه واواً ، فيصير علم الذات الأقدس هكذا " آللو " ، وذلك ممنوع بنصوص الأعلام ، فلا ثواب فى تكرراه ولا إكرام، ورأيت إقرار إخوانى عليه مع علمى بما فيه، غشًا لهم فى الديانة، وغرورًا بهم وخيانة، وخشيت أن أقع فى الوعيد المشتمل عليه قوله - عليه الصلاة والسلام - : « من غشنا فليس منا »٠

فغيرت هذا الأسلوب العقيم بذكر على أقوم هيئة، وأحسن تنظيم، وأمرت كل موفق يريد الفوز بصلات الغفار بالاقتصار عليه، ونهيته عن ذاك الذكر الضار٠

فجاء أقوام يريدون إطفاء نور ذى الملك والملكوت متمسكين بما هو أو هى من بيت العنكبوت، فتارة يقولون الذكر مندوب إليه كتابًا وسنة فكيف تحكمون بتحريمه ؟

فنقول لهم : ما هذه المكابرة، وما هذه المغالطة الظاهرة، نحن حكمنا بتحريم تقطيع أسماء الله تبارك وتعالى ، ولم نحكم بتحريم أصل الذكر، كيف وفى استعماله ابتهاجنا، وبه إلى الله سيرنا، وانتهاجنا ،و به أنسنا وانشراحنا، وفيه غدونا ورواحنا، وقد اشتهرت إليه نسبتنا، وانتشرت به بين العباد طريقتنا.
وما ذاك التحريم إلا كتحريم القراءة الملحونة ، والصلاة الغير تامة الأركان، أفى ذلك تحريم لأصل القراءة وأصل الصلاة ؟ لا والله.

وتارة يقولون : هذا الذكر عليه أشياخنا الأولون، وأسلافنا السابقون.
فنقول لهم إذ كانت العبرة بالمتقدم، فقد قال الأول الذى ليس قبله شىء :
{ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ } وحروفها عند القراء معلومة، ومخارجها، ومدودها، وحركاتها لديهم مفهومة.

وقال سيد الأولين : « أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله ».
فلنقلها كما قالها نبينا أفصح العرب، الذى أرسله الله إلينا ليعملنا بأقواله وأفعاله، وجعل القرب والنجاة فى اتباع سننه، والبعد والهلاك مفارقة سننه.

وماذا علينا إذا وافقنا الله والرسول، وتركنا ما عليه الأسلاف والأصول، فإن الشرع حجة عليهم كما هو حجة علينا، وليسوا هم حجة على الشرع فإنه يحتج به لا عليه.

فإذا عرفت ذلك عرفت أن الاحتجاج بالأسلاف لا فائدة فيه ولا اسعاف، وإنما هو ذكر لمساويهم واظهار لمعاصيهم.

وقد نهي عنه - صلى الله عليه سلم - بقوله : « اذكُروا محاسنَ موتاكم، وكُفُّوا عن مساوِئِهم ».

فهؤلاء قد خالفوا نبيهم من حيث لا يشعرون، وأحيوا عيوب أسلافهم وهم لا يعلمون.
وقصارى ما يعتذر به لأولئك الأسلاف على فرض إن صح، أنهم كانوا يفعلون مثل ذلك، أنهم كانوا في حالة قاهرة أخرجتهم عن حد التكليف، وغيبتهم عن الإحساس، والمقهور معذور، والمقتدى به مغرور، والمقهور على خير، والمقتدى به فى ضير.

إذ شرط المقتدى به فى هذا الطريق أن يكون برزخًا جامعًا بين الحق والخلق، ماشيًا على ظاهر الشريعة المحمدية، شاربًا من الكؤوس الحقيقية ليؤدب أتباعه ظاهرًا بشريعته، ويكسوهم الحلل الباطنية بحقيقته، متمكنًا بحيث لا تغيره الأهوال، ولا تعدو عليه سطوات الأحوال.

وبالجملة : فالأشياخ الدعاة إلى الله لابد أن يكونوا محفوظين ظاهرًا وباطنًا، إذ هم على أقدام الرسل، فإن الشيخ فى قومه كالرسول فى أمته.

قال السلطان ابن الفارض :
فعالِمنا منهم نبيّ ومَن دعا   إلى الحقِّ مِنَّا قام بالرسلية

وقد ذكر محققو المتقدمين من الأعيان المقتدى بهم فى الدين حرمة التقطيع ، وعدم الاعتداد بلفظ الجلالة المقصور فى القسم والذكر، فياليت شعرى ما الحامل على مخالفة كلام الله، وما الباعث على عدم الوقوف عند ما نطق به رسوله ومجتباه، وما الداعى لطرح ما حققه الأئمة الهداة، وما سبب العكوف على تلك الهيئة المخترعة، و،البضاعة المزجاة، وما الملجئ لذكر مساوئ الأسلاف.

وقد نهي عنه المصطفى بلا خلاف فارجعوا إخوانى للصواب، واستمسكوا بالسنة والكتاب، فقبول الموعظة شأن المتقين، وبطر الحق دأب المتكبرين، أزال الله عنا وعنكم رين القلوب، وجمعنا و إياكم على سنة الحبيب المحبوب.

وتارة يقولون : هذا الذكر يفعل بحضرة العلماء ولم ينكروه.
فنقول لهم :
عدم نكيرهم إما لعلمهم عدم الإفادة فلا إثم، أو لتفريطهم فيأثمون، على إنا قد شاهدنا إنكار من يعتد بإنكاره من جهابذة العصر والأوان، ومصابيح هذا الدهر والزمان ، و رأينا كتب المتقدمين مشحونة من ضبط الكلمة المشرفة وباقى أسماء الطريق، ومن التحذير من التحريف فيه، وبعضهم أفرد الذكر بالتأليف نظمًا ونثرًا وشنع تشنيعًا شديدًا على من لم يراع قانونه الشرعى ، وهذا غاية الإنكار منهم ، رحم الله السابقين، وحفظ لنا وجود المعاصرين، وجزى الجميع عن أمة سيدنا محمد خيرًا.

وتارة يقولون : هذا الذكر قد شاع وذاع وملأ البقاع.
فنقول لهم : الحرام حرام ولو كثر ارتكابه وعم اكتسابه، إذ هو ما يثاب على تركه، ويعاقب على فعله ، لا ما قل فاعله حتى يرد ما ذكر.

وتارة يقولون : هذا ما عليه الفقهاء وأهل الشريعة، وأما نحن فمن أهل الطريقة والحقيقة، وهم لا يقفون عند أقوال الفقهاء.
فنقول :
نعوذ بالله من هذة المقالة، ونعتصم به من هذه الضلالة، فإن كل من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، وجمع بينهما فقد تحقق، وما من واحد من السادة الصوفية إلا تعبد على مذهب إمام من مذاهب الأئمة المرضية، إذ جميع الصوفية مطبقون على صحة مذاهب الفقهاء، وأن القرب إلى الله تعالى والهدى فى اتباعهم، وأنهم على هدى من ربهم.

قال سيدى مصطفي البكري رضي الله تعالي عنه :
ونعتقد مذاهب الأئمة * فيها الهدى وهم هداة الأمة.

والحقيقة لا وجود لها بدون الشريعة.
قال القطب الدرديري - رحمه الله تعالى - :
الشريعة هى الأحكام الشرعية، والطريقة هى تتبع الأخلاق المحمدية، والحقيقة هى الشرب من الكؤوس الأوحدية.

فأفاد - رضى الله تعالى عنه - : أن الحقيقة هى ثمرة الشريعة، ونتيجة الطريقة ، فليس للحقيقة أهل غير أهل الشريعة.

وقال سيدي ابراهيم الدسوقى - رضى الله عنه - :
إياكم والدعاوى التى لا يشهد لها كتاب ولا سنة فإنها سبب طردكم عن حضرة ربكم.

وقال أيضًا : طريقنا هذا مضبوط بالكتاب والسنة ، فمن أحدث فيه ما ليس فى الكتاب والسنة، فليس هو منا ولا من إخواننا، نحن بريؤن منه فى الدنيا والآخرة ، ولو انتسب إلينا بدعواه. انتهى.

فما دام الشخص ثابت العقل مختاراً فهو مخاطب بالشريعة، لا تسقط عنه فى حال من الأحوال ، فإن ادعى ذلك فهو زنديق.
قال الأستاذ البكرى - رحمه الله تعالى - فى " ألفية التصوف " :

وَمَنْ يخالفْ فِعلُه الشريعهْ * فذاكَ في مَهَامِهِ القطيعَهْ
إذْ كلُّ مَنْ خَالَفَها زِنديقُ * وكلُّ مَن حَالَفَها صِدِّيقُ
وجاهلٌ يَفْرُقُ مَا بَيْنَهُما * وَلَيْسَ يُمْكِنُ انْفكَاكٌ عَنْهُما
شريعةٌ يا ذا بلا حقيقهْ * عاطلةٌ إذْ لمْ تَكُنْ وَثِيقَهْ
حقيقةٌ بدونِها فباطِلَهْ * فافهمْ مُنِحْتَ مُزْنَ فَيْضِ هَاطِلَهْ
وَمَنْ غَدَا مَسْلُوبَ الاختيارِ * فَحُكْمُهُ تَسْلِيمُهُ لِلْبَارِي
لَا تَعْتَرِضْ فِي فِعْلِهِ عَلَيْهِ * إِذْ عَقْلُهُ خَبَّأَهُ لَدَيْهِ
وَإِنَّما يَعترِضُ البَاقِي عَلى * عَقْلٍ لَهُ وَشَرْعَ طهَ قَدْ قَلى
يقولُ : " ذا حقيقةٌ " ذريعهْ * كَيْ يَنْبذَنَّ جَانِبَ الشريعهْ
فاحذرْ على دينِكَ مِنْ ذِي القومِ * وَلَا تُجَالِسْهُمْ وَلَا فِي النَّوْمِ
وقَدْ نَما فِي ذَا الزَّمانِ شرُّهمْ * حتى سَمَا فِي النَّاسِ جِدّاً ضَرُّهُم
ولم يكنْ لهمْ هنا مَنْ يَرْدَعُ * مِنْ أجلِ ذَا الدِّينَ الحَنيفِي وَدَّعُوا

وقال - رضى الله تعالى عنه - فى " الوصية الجلية " :
إن أهل الطريق يجب عليهم أن لا يخطوا خطوة ينكرها الشرع عليهم، فإن كل من خالف الشريعة المحمدية تاه وضل عن الطريقة المرضية ، فالشريعة أصل، والحقيقة فرعها ، فمن لم يحكم الأصل لا ينتفع بالفرع.

ولهذا كان سيد رؤساء هذه الطريقة سليمان الدارانى - قدس الله تعالى سره - يقول :
ما حرموا الوصول إلا بتضيعهم الأصول، فشريعة بلا حقيقة عاطلة، وحقيقة بلا شريعة باطلة. انتهى.

وتارة يقولون : المدار فى الذكر على قصد الذاكر، فإذا قصد الذات الأقدس بأى لفظ كان جاز له الذكر به٠

فنقول لهم : نعوذ بالله من سوء الأدب، ونتحصن به مما يوجب المقت والغضب٠
أما تعلمون أن الذكر فى اصطلاحهم هو تكرار اسم المذكور على اللسان، فأنتم ترون الاسم مأخوذًا فى مفهوم الذكر فلا يتحقق إلا به، والمختار أن الأسماء التوقيفية يتوقف إطلاقها عليه تعالى على الكتاب والسنة الصحيحة أو الحسنة٠

ومقابل المختار : ما ذهب إليه المعتزلة، والقاضي أبو بكرالبقلانى من جواز إطلاق ما كان متصفًا بمعناه ولم يوهم نقصًا، وفصَّل الغزالى فَجَوَّز إطلاق الصفة ، وهى ما دل على معنى زائد على الذات ، ومنع اطلاق الاسم ، وهو ما دل على نفس الذات٠

فتلك المقالة لم توافق مذهبًا سنيًا ولا معتزليًا ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم٠
ويرحم الله تعالى سيدى عبد الرحمن الأخضرى، حيث قال فى منظومته فيهم :
وينبحون النبح كالكلاب * طريقهم ليست على الصواب
وليس فيهم من فتى مطيع * فلعنة الله على الجميع

وجواب هؤلاء أن تناديهم بألفاظ الهذيان والحقارة ، فإن استنكفوا من ذلك، فقل لهم : أنتم جوزتم ذكر الذات العلية بذلك ، فهل ذواتكم أعز من ذات الله وأرفع كلا٠

وتارة يقولون : هذا انتقاد منكم واعتراض على الفقراء الذاكرين٠
فنقول لهم :
هؤلاء ليسوا من الذاكرين لما تقدم من أن الذكر هو تكرار اسم المذكور على اللسان ، هؤلاء قد كرروا لفظًا غيره، إذ الكلمة تغير الأخرى بزيادة حرف أو نقصه أو تغيير حركة، فقولنا هذا نصح لهم، وتصحيح لأعمالهم الفاسدة التى لا وجود لها إلا فى أذهانهم، إذ المعدوم شرعًا كالمعدوم حسًا، فهو إخراج لهم من ظلمة الغرور والقطيعة ، إلى نورالحقيقة والشريعة، فنحن أنفع إليهم منكم٠

فإنا ندعوهم إلى متابعة الرسول، وأنتم تدعونهم إلى ما كان عليه الأسلاف والأصول، فلو تركتموهم لاتنفعوا، ولو اعتزلتموهم لارتفعوا، لكن لطف الله بنا وبهم استحكم عل قلوبهم دخان الغفلة فاستعذبوا آلاء الغرور، و نبذوا قنديد النصح خلف الظهور، فيا هؤلاء كيف تسمون محض النصح انتقاداً، وما خالفه اعتقاداً وانقياداً٠

ويرحم الله المحقق الأمير حيث قال فى رسالته فى أمثالكم :
والداهية الطامة أنهم إذا نهوا قالوا : لا تعترض، وهذا أدهى وأمر، حيث يجعلون تعليم السنة المحمدية اعتراضاً ينهى عنه ، وما خالفها إسلاماً وانقياداً، وهذا أمر يخشى منه الكفر والردة، والله أعلم٠
اه كلامه - رضى الله عنه -٠

فقد ظهر لك نور الحق الساطع ، ودخان الأباطيل المانع، ولم يبق إلا العناد وإفساد أعمال العباد، وياليتني أدرى ما الحامل على هذا العناد، ما الباعث عى هذا التضاد، وطريق الحق واضح، ونوره عى أهله لائح، واصلاح الذكر أمر يسير، والنطق بأسماء الله تعالى كما وردت على خير الخلق البشير النذير.

وقد دحضت حجتكم وانقطعت محجتكم ، وليس لكم فيما تدعون مندوحة ، وأعمالكم لدى أهل البصائر منبوذة مطروحة ، وما هى إلا كسراب بقيعة يتلألأ للظمآن فيوقعه فى مهامه القطيعة، فكونوا معنا إخواناً فى الله ، واجتمعوا معنا على سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ختم الله لنا ولكم بالحسنى، والمشى على الطريق الأسنى.

وقد علم مما تقدم من تحريم تقطيع الأسماء الشريفة، أن من نذر نفس تلك الهيئة المخترعة المشتملة على تقطيع أسمائه تعالى لا يلزمه الوفاء به ، بل يحرم عليه لما فيه من التسبب فى المعصية.

بخلاف ما إذا نذر أصل الذكر فإنه يلزمه الوفاء به ، لكن لا تبرأ ذمته إلا بالذكر الصحيح الجارى على قانون الشريعة الغراء أطلع الله شموسها، وأدار علي أهلها كؤسها، وجذ عنق البدعة وناصريها، ورفع جيد السنة وصاحبيها، بجاه من أرسله الله إلينا بتلك الحكام سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم -.

هذا و بينما أنا اركض جواد الفكر فى هذه المناقشات، وأصول بسيف الشرع فى تلك الضلالات، وإذ بالكلمة المشرفة أبدت مقالًا، وعلى قلب الملهوف أمطرت زلزالًا، تقول :

قد أنزلنى الحق - جل جلاله - إليكم من اللوح المحفوظ، محققة الأركان، محكمة البيان، واعتنى الحق بى، وعظمنى، وبجلنى، وأكرمنى.

حيث لم يكتف - سبحانه وتعالى - بأن أنزلنى مع مطلق ملك من الملائكة الكرام، بل مع سيدهم ورئيسهم - عليه السلام - ، فنزل بى حافظًا لأركانى، محكمًا لبنيانى، معتنيًا بشانى، مُحققًا للحروف والمبانى على نقطة خط الله وصفوته ومنتقاه سيدنا محمد بن عبد الله .

فتلقانى الحبيب بأحسن القبول مبجلة بين أصحابه الجحاجحة العدول، وأتباعهم البررة الكرام، ومن تبعهم بالعمل الصالح واستقام، إلى أن نزلت بين سوح وخيمة، وأقمت بين فئة ذميمة لا يقتدون بالسلف الصالح ، ولا يزجرهم الدليل الواضح ، يتبعون ما تسحسنه العقول، ويدعون الشرع المنقول.

فأخلوا بأركانى، وقطعوا منى المبانى، ومزقونى أى تمزيق، وحملونى من الأحرف الزائدة ما لا أطيق ، فيا من لكم فى الأنبياء الوراثة، أما لكم فى عزيز أُهين من اغاثة، أما يجب تعظيم من عظمه الله ، أما يجب توقير من اعتنى بشأنه مولاه.

فلما سمعت بأذن القلب شكواها، وما أبدته من ضرها وبلواها، قلت هذه الأبيات :

مررت على الجلالة وهى تبكى * فقلت علام تنتحب الكريمة
لك القدر المعظم من قديم * وبين أولى النهى أبداً مقيمة
وشرفتي بمدلول تسامى * عن الأوهام والسمة الذميمة
وكنتى مجمع الأسرار قدما * وأنت الآن للصهبا مديمة
فقالت دعن أبك ولا تسلنى * فإنى بين ألسنة لئيمة
أباحوا قطع أوصالي وجاؤا * بما يزرى بهيئتي النظيمة
ظلمت ولم أجد عونًا ومالي * مغيث يردع الفئة الوخيمة
بحق الحق لا تهمل عزيزًا * يهان وسرنا للقلب ديمه
يد الإكرام منا قد توالت * عليك فجد بسطوتك الهميمة
وأنصفنا بفرط العزم وانظر * لما وافاك من منن جسيمة
كلام الله مضبطنا فخذه * سلاحًا للمقهقهرة الرجيمة
وسيفك سُنَّة المختار فاسطو ** ولا تنظر لشرذمة عديمة

فحدِّق يا أخى عين التحقيق ، وانج بدينك من هذا الفريق، واعمل بالسنة والكتاب تكن ممن فاز برفع الحجاب، وزن كل ما تراه من صور الأعمال بمعيار الشريعة المحمدية ، ولا تقف عند بهجته الصورية ، فكم من صورة أبهى من حقيقة ، وكم من غابة أزهى من حديقة٠

ولا تسلم قيادك إلا لعارف بخفيات الطريقة جامع بين الشريعة و الحقيقة ، فاذا رأيت مدعيًا لهذا المقام باسطًا يده لمبايعة الأنام ، فقدم رجلا وأخر أخرى ، فقد أخذ الأمر فى القهقرى، ورجع الحال إلى وراء، وكثر المبطلون، وقل المحققون، واختفت أنوار الأسرار، وانعكس على الكون دخان الاغترار٠

وقد قالوا : الخطأ فى ألف محق بعدم الاتباع، أخف من الخطأ فى مبطل واحد بالاتباع، فإذا قدر الله عليك باتباعه، ثم وجدته على خلاف النهج القويم والسنن المستقيم، فارجع عن اتباعه ودعه فى خبطه وابتداعه ، فليس الخطأ هو عين الخطأ، إنما الخطأ هو الإصرار على الخطأ٠

ولا يهولنك قولهم : لا ينبغى للمريد أن يعترض على أستاذه، ولو فعل ما ظاهره أنه الحرام، ويؤمر بتأويله حسب الطاقة٠

فإن هذا فى حق أستاذ استكمل الشروط المعتبرة عندهم، وكان محالفًا للسنة، مخالفًا للبدعة، ديدنه الأخلاق المرضية، وطبعه وسليقته الأخلاق المحمدية، فإذا هفا هفوة فله حال تخلصه، ومحمل يخصصه، ومع تأويلها منه لا يقتدى به فيها٠

قال الشيخ الأكبر- قدس الله تعالى سره - :
لا تقتدى بالذى زالت شريعته * عنه ولو جاء بالأنبا عن الله

ولو تأمل الأشياخ فى أمر المريد بتأويل الهفوة الواقعة منهم، لقوى تمسكهم بما شرطوه فى حقهم ، وعرفوا أن هذا البساط لا يجلس عليه إلا نقى من الرعونات النفسية، برىء مما يخالف الطريقة السوية، واشتد فزعهم ممن هو أقرب إليهم من حبل الوريد، وتقطعت أمعاؤهم من الروع الشديد، وأما الآن فقد عكست القضية، واشتدت البلية، وصار هذا موجبًا لعدم المبالاة بالمخالفات، والرتع فى مراتع الضلالات٠

فانظر يا أخى بنور الإيمان، واعرف الربح من الخسران، وسر لمولاك على تحقيق، و زحزح عن نفسك دخان التعويق، والله يتولى هداك، وهو يتولى الصالحين٠

اللهم اجعلنا من محبوبيك المقربين ومحبيك الصادقين ،واجمعنا بأهل وصلك المفلحين، ودلنا على كبار أهل حضرتك العارفين، واجعلنا بعظيم نفحاتهم فائزين، ومن كوؤس محبتك على أيديهم شاربين، ولجلالك وجمالك فى كل شىء شاهدين، وأمتنا على أكمل درجات اليقين يا رب العالمين، ويا ذا الفضل المبين٠

وصل وسلم على سيدنا محمد خاتم الأنبياء، وسيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، كلما ذكرك الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون٠

تمت هذه النسخة المباركة التى تجل عن المشاركة، غاية ذى الحجة الحرام سنة احدى وتسعين بعد المائتين والألف، والحمد لله على التمام، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم ، والله أعلم٠

وقد بين المصنف - قدس الله تعالى سره - كيفية الوصول إلى مقامات أهل هذا الشأن بالطريقة الحقة الثابتة، بياناً إجمالياً مفيدًا كل الإفادة من غير تطويل فقال :

{ فبدِّل الأوصاف } الذميمة النفسية الكامنة فيك بأوصاف حميدة طاهرة نقية.
{ كى تسمى } عند الرجال أهل الكمال { البدل } والبدل عند القوم : واحد الأبدال، وهم طائفة معلومة أصحاب وظائف فى الكون، وأول هذه الدرجة من بدَّل الله سيآته حسنات.

قال تلميذ الشاذلى : كنت مع أستاذى يومًا فدخل جماعة عليه، فقال لى : هؤلاء من الابدال، فنظرت بقلبى فلم أرهم فيهم، فأخبرت الأستاذ فقال لى : اقرأ إن شئت :
{ فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ } فعلمت أن البدل من بدل الله سيئاته حسنات.

{ وكن فتى } من الفتوة، وهى : الصدق فى كل إرادة صالحة.
{ بين الرعايا } المراد بها : أعضاء جسمه { قد عدل } بأن صرف كل عضو فى وظيفته من الطاعة.
وهذا الحال هو الهمة الصادقة، التى هى : صرف جميع الحركات فيما يلائم المطلوب.

{ وانقب } أى : ابحث { على الأسرار } بالجد فى الطاعات، وتصفية النفس من الآفات بالمجاهدات والرياضات { والمعانى } المستورة عن ذوى الغفلات.

{ تدعى نقيبًا } أى : مُقَدمًا وعريفًا على المريدين { فى } طلب { العلا يعانى } أى : يتعب وينصب ويجد ويجتهد.
والأصل فى النقابة : القيام بالحفظ والإحاطة، لقوله تعالى :
{ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ }، وقوله تعالى { خُذُوا حِذْرَكُمْ }.
وفى الخبر : « احرص على ما ينفعك » الحديث.

ومن المعلوم أن لكل نبى أنصاراً، ولكل جماعة أعياناً، ولكل بيت رؤوساء، ولكل ركب أدلاء، ولما كانت الأولياء على سنن الشرع، والخلافة عزيزة، والقيام بأمرها شاق على المريدين إلا على أهل الخصوصية ، احتاج الأمر إلى اقامة أشخاص لتعاطى خدمة الفقراء، ونظام شملهم، معاونين للشيخ، وهم النقباء، ويكفى منهم أربعة أنفار، وبهم يتم النظام.

فأدناهم منزلة نقيب النعال : وهو أعلاهم معنى، وأقربهم فتحًا وسلوكًا إذا قام بأدائها، ووفى بحقوقها وآدابها.
ثم نقيب الماء : وهو ساقى الماء، له بكل قطرة أجر.
ثم نقيب السماط : له بكل لقمة يأكلها إخوانه أجر.
ثم نقيب الحضرة : وهو نقيب النقباء، وعين الجماعة، وإليه الإشارة، وهو محل سر الشيخ وبابه، وله وظيفة الدعاء، وتقديم المريد للعهد، والاستئذان، وترتيب المجلس، وافتتاحه إذا غاب الشيخ، والوقوف على رأس الفقراء.

ولكل واحد من الأربعة آداب كثيرة تخصه :

<u>فأما (آداب نقيب النعال) فكثيرة :</u>

منها وهو أجلها الإخلاص فى ذلك لله تعالى، وأن يلزم الخضوع ليستكمل رتبته، وينوى بهذه الخدمة الوقاية من المكروهات، وإن قدم عليه فقير بش فى وجهه، يلقاه بالبشر والترحيب والسعة، كقوله : مرحبًا بأخينا فلان، أو سيدى فلان، أو الشيخ فلان، شكر الله سعيكم وتقبل منكم وأعاننى على القيام بواجب حقكم.

ويأخذ نعله وينفضه يطويه و يضع النعال كل واحد مع رتبته، وعليه الحفظ والصون والوقاية للنعال، وإذا أراد حاجة خلف من يحرس، وإذا أراد الانصراف وأقبل عليه واحد ، قدم له نعله، ودعا له بالقبول، وسأله الدعاء ، وينبغى أن يكون حاذقًا فطنًا ليميز بين النعال ويعرف صاحب كل نعل، وإذا اراد الكمال أخذ نحو سكين يحك بها ما عساه أن يكون داخل النعل من وحل، ونحو خرقة يمسح بها.

وينبغى أن يكون له خرج أو نحوه إذا كانوا فى محل غير الزاوية كزيارة أو اجتماع عند أحد ليحفظ نعالهم فيه، وعليه حمله على رقبته إن كان وقت مشى، ويضعه بين يديه حال جلوسه، ورتبته خلف القوم إذا مشوا، وذلك ليحفظ ما عساه أن يقع منهم من ثوب و نحوه، ومن آدابه أكل فضلة القوم.

وأما (آداب ساقى الماء) فكثيرة :

منها تنظيف الكيزان، وتطييبها بالروائح الذكية، وتنظيف يده وثيابه، ولا يمخط بحضورهم ولا يبصق، ولا يتخطى رقابهم، ولا يمنع الماء من أحد جليل أو حقير ولو من غير الفقراء، وأول مروره بالماء يبدأ بمن على يمين الشيخ، ويختم بمن على يساره، وينبغى أن يكون عارفًا بآداب الشرب ليرشد الشارب.

ومن آداب الشرب : أن يأخذ الكوز بيمينه، وأن يشرب قاعدًا، وأن يتناول الماء بثلاث جرعات يتنفس عقب كل جرعة خارج الإناء، ويبتدىء فى أول كل جرعة بالبسملة، ويأتى عقبها بالحمد.

ويسن له بعد الشرب أن يقول : الحمد لله الذى أطعم وسقى وسوغه وجعل له مخرجا، فيقول له الساقى : هنيئا لك يا أخى جعله الله لك صحة وعافية، أو نحو ذلك مما فيه تطييب لخاطره، وادخال السرور عليه.

ويمر على الفقراء بالماء فى موضعين ؛ عقب الأكل، وقبل افتتاح المجلس بعد أن تقرأ الفاتحة، ويستأذن قبل أن يدخل الحلقة تعظيمًا لهم، فإذا كانوا حال الأكل وقف على رؤوسهم أو قريبًا منهم بالماء، ووضعه بينهم وهو أولى فربما يغص أحدهم بلقمة، وإذا كان الذكر قائمًا ودخل فقير عرض عليه الماء، ولا يسقى أحدًا حال الذكر ولا عقبه، وإذا كانوا فى زيارة وأرادوا الذهاب إلى محل غير محلهم حمل معهم الماء٠

ومن آدابه : التقيد بأباريق الاستنجاء والوضوء لمن أراد ذلك، وغسل الأيدى قبل الطعام وبعده، وغسل ثياب الفقراء، ولا ينهر أحدًا، ولا يعبس فى وجهه٠

وأما (آداب نقيب السماط) فكثيرة :

منها أن يكون فطنًا حاذقًا نشيطًا نظيفًا ورعًا زاهدًا طيب الأخلاق، طيب الأوانى يجيد الطعام ويحسنه بما يليق به ، فإذا أرادوا الأكل قرأ الفاتحة، واستأذن، وسأل الله تعالى فى سره الستر، وانزال البركة فى الطعام ، وأن يجعله صحة وعافية وقوة على طاعة الله تعالى٠

ثم يفرش السماط قاصدًا بذلك تعظيم النعمة، ويرص الأوانى متوالية على نمط واحد، وهيئة واحدة، ولا بأس أن يكون معه معين، وكونه ساقى الماء أولى لأن المرتبة قريبة، فيفعل ذلك كله وهو يقرأ سورة الإخلاص لأنها تطرد الشياطين، وتحصل البركة فى الطعام إن شاء الله تعالى٠

وإذا تم وضع المأكول قام على رؤوسهم، وينبغى أن يقرأ سورة قريش فى سره مرات قاصدًا بذلك إذهاب ضرر المأكول عنهم، وإذا رأى متأخرًا قدمه، أو محصورًا فسح له، أو فرغ الطعام من ناحية أبدل لهم غيره إن كان هناك غيره٠
فإذا تم أكلهم، ورفعت الأوانى وفيها بعض طعام، لعق منه بحضرتهم يريد بذلك التبرك بهم، وإظهار الشرف بخدمتهم، وجمع ما يفضل لنقيب النعال٠

ثم إذا أراد طى السماط قال : أخلف الله على باذليه، وهنأ آكليه، وجعل البركة فيه٠
اللهم يا سابغ النعم ويا دافع النقم، يا من يُطعِم ولا يُطعم اجعل طعامنا هذا قوة وبلاغًا وصحة وعافية وشفاءً ونورًا وصفاء، ونجنا من تبعته فى الدنيا والآخرة، واجعله من رزقك الذى ترزقه من تشاء بغير حساب يا أرحم الراحمين آمين، والحمد لله رب العالمين٠

ومن آدابه : أن يفضل عنده بقية من الطعام إذا توقع حضور أحد ليقدمها إليه فى محل وحده ، وأن يأكل معه تطييبًا لخاطره، فإن لم يكن عنده إلا طعام نفسه، خصه به وآثره على نفسه٠

ومن آدابه : أن لا يأكل الطعام قبل وضعه إلا بقصد ذوقه، ولا يختص بشىء دونهم، ولا يؤثر أحدًا بشىء، فإن فعل ذلك فقد خان، واستحق العزل٠

وإذا أعطاه أحد شيئًا برسم الطعام من ورائهم فلا يدخره لنفسه، بل إذا لم يحتج هو إليه فى الحال للفقراء، تركه لهم لوقت الحاجة، وعليه السعى لمن لهم عليه عادة يبذلها لهم فى كل جمعة أو شهر عن طيب نفس، وعلامة ذلك أنه لو لم يسع أحد منهم إليه لجاء هو بها إليهم.

ولا يخفى عن الشيخ شيئًا جاءه بل يأتى به ويضعه بين يديه، ويقول له يا سيدى هذا من سيدى فلان أو أخينا فلان، فإن أخذه الشيخ فقد خرج من عهدته، وإن أمره بأخذه وحفظه فعل ذلك، وإن رسم له بالتصرف فيه لأحد دفعه له، وإن وضعه بين يديه، وأخبره بصاحبه فسكت، ولم يرد له جوابًا تركه وقام.

ومن سوء الأدب أن يظن بشيخه سوء إذا اخذ شيئًا ولم يخرجه للفقراء، فإنه أعرف بالمصلحة منه فقد يمكن أن يكون بذله لمن هو أحوج إليه منهم، وصاحبه فى الحقيقة إنما قصد به سد الحاجة، ولو علم غناهم عنه ما بذله لهم حيث كان من المخلصين فى بذله، أما الشخص الذى يبذل شيئًا ليوضع بين هؤلاء الجماعة بخصوصهم قصد السمعة، فمثل هذا لا يقبل منه بحال لأنه أعانه على معصية. م
ومن آدابه أيضًا : أن يكون عارفاً بآداب الأكل ليرشد غير العارف بها برفق.

ومن آدابه أى الأكل :
الجلوس على الركبتين أو يقيم رجله اليمنى، وأن يصغر اللقمة، ويطيل المضغة، ولا يبصق، ولا يمخط بحال فى حال الأكل، ولا يفعل ما تستقذره النفوس كوضع اللقمة فى فيه، ثم يخرجها ويضعها فى الطعام بعد ذلك، ولا يرشرش ولا يجنح، ولا يضع اللحم على الخبز، والجبن على الرغيف، ولا يكسر الخبز، ولا يسند الإناء برغيف، و يأكل مما يليه، ولا يمد يده للطعام قبل الإذن، ولا يحمل شيئا معه، ولا يرمى بالنوى ولا بقشور البطيخ، بل يجمع ذلك بين يديه.

وإذا عرض له سعال أو عطاس حوّل وجهه وفعل ذلك، ويأكل بثلاثة أصابع فيما يتأتى له فيه ذلك، ويبدأ بالملح إن كان ويختم به، ويتناول اللحم أولًا، ولا يقطعه بالسكين إلا أن يكون عديم الأسنان، ولا يرده إذا قدم إليه ؛ كالوسادة واللبن والحلوى والطيب والريحان، فإنه يسن قبول ذلك كله.

ولا يمسح يده بالخبز، ولا ينبغى كثرة الأكل وهو : ما فوق الشبع، وهو حرام.
وفوق الثلث مكروه، ويتابعد عن شرب الماء ما أمكن إلا لإساغة لقمة، ولا يطأطىء على الإناء حال الأكل، والحديث بحديث الصالحين حال الأكل مندوب إليه، ولا ينبغى القيام إلا لمحتشم.

وأما (نقيب الحضرة) : الذي هو باب الشيخ، ويقيم الخلافة فآدابه كثيرة :

منها أن يكون من أهل العلم، وأن يكون حليمًا ورعًا زاهًدا كاملًا، على أحسن الهيئات وأجمل الأحوال، عارفًا بالطريق مستحضًرا لآداب المريدين فى أنفسهم، وآدابهم مع الشيخ ، وآدابهم فى مجلس الذكر، وينزل الناس منازلهم متصدرًا لتعليم الأدب باللطف، محسنًا إليهم بشوشا فى وجوههم ، صامتاً لا يمزح، ولا يعبث، ولا يكثر النظر، ولا الالتفات لغير ضرورة.

ومنها : أن يقوم بوظائف القيام على رؤوس الفقراء، ويفعل ما يراه مصلحة مما جرت به العادة، و إذا خفى عليه أمر يستشير فيه الشيخ بالأدب، والجلوس بين يديه بخفض الصوت وغض البصر .

وإذا رأى مريدًا يكلم الشيخ فى شىء، قال له : إذا أردت شيئا قل لى، هذا إذا كان مما يتعلق بأمور العادات والمسائل العلميات، أو الآداب التى يحتاج إليها الحال.

أما نحو واقعة أو رؤيا أو وارد ، فلا يقوله المريد إلا لشيخه لكن لا فى محل اجتماعهم، بل فى وقت لائق كخلوة الشيخ أو انفرادهما، إلا أن يقول له الشيخ هات ما عندك، فإنه يقول ولو بحضرة الناس، وقد يكون قصد الشيخ بذلك توبيخه، أو توبيخ غيره، أو تنشيط بعض الحاضرين، أو غيره.

وبالجملة للمشايخ الصديقين مقاصد يدق ويعسر ادراكها على غير أهل العناية ممن نور الله قلوبهم، وطهر أسرارهم، نفعنا الله بهم آمين.

وإذا شاور المريد النقيب المذكور فى شىء، ورأى المصلحة له، أو سأله عن مسئلة علمية، أو فى طريق القوم، وهو يعرفها أرشده إليها، وإذا سأله عن شىء لا يعرفه سأل هو الشيخ، وعليه أن يتلطف بالمنكر، ويكرم الزائر ويرغبه في الطريق، ولا يستحسن على الشيخ رأيًا، ولا يدع المريدين يتجاسرون عليه، ويسألونه لئلا تسقط حرمته عندهم، لأن الطريق مبناها على الأدب، وبه يحصل الترقى والانتفاع.

ومن وظائفه : المشى بالقنديل أمام الشيخ ليلًا، ويقرب منه بحيث يسمع كلامه ويرد خطابه، ويحمل معه العصا، وينبغي له الاشتغال بقراءة التحاصين النافعة قاصدًا تحويط إخوانه، ويقصد بمشيه أمامه ان يفديه بنفسه.

ومن وظائفه السعى لجمع الفقراء وقت الحاجة إليهم.

ومن وظائفه حفظ ما يسقط من ثيابهم حال الذكر، وإصلاح المصابيح، وإعطاء الطيب، ووضع البخور، وتفريق ما جاء للفقراء بمعرفة الشيخ، وحمل السجادة وفرشها وطيها، ولا يترك أحدًا يجلس عليها ، فإذا كان آخر الليل أيقظ الفقراء للتهجد بلطف ورفق، ويرغبهم فى ذلك بنحو قوله : سار الركب وأنت نائم، البطال لا يطمع في منازل الأبطال، هذا وقت التجليات فأين الراغبون؟ هذا أوان المعاملة فأين الباذلون ؟ هيا يا أصحاب الهمم فإن قُوَّام الليل فازوا بمطلوبهم، وحصل المجتهدون على مرغوبهم، التخلف لا ينفع فيه التأسف، مولاك يدعوك إلى بابه، سيدك يطلبك للجلوس على موائد أحبابه، هل تدرى ما جرى على القوم يا أسير الغفلة والنوم.

ومن وظائفه : إنه إذا رأى غافلًا ذكره، أو مسيئًا وعظه، أو جاهلًا علمه، أو من يضحك نهره، أو مسيء الأدب زجره، فلا يقر على منكر، ولا يتغفل عن المريدين بل يدقق عليهم، ويؤاخذهم بما يغلب على ظنه وإن لم يتحققه.

وبالجملة فهو الشيخ إذا غاب الشيخ ، والمشار إليه إذا حضر، وإذا خالفه أحد من المريدين فى معروف، أعلم الشيخ بحاله بعد وقوع ذلك منه مرات، والله سبحانه وتعالى أعلم.

قال المصنف قدس الله سره :

{ وترتقى منازل } أى : مقامات { الأوتاد } هم جماعة من أهل الله وجودهم علامة على دوام الدنيا عامرة، فأشبهوا الأوتاد للفسطاط.

{ إذا سلكت } هذا الطريق يا { صاح فى الأوراد } أى : بسببها السلوك المطلوب.
و{ اسلك طريق الفنا } وحقيقته أن تفنى عن الحظوظ، فلا يكون لك فى شىء حظ، بل تفنى عن الاشياء كلها شغلًا بمن فنيت فيه، وتكون محفوظًا فيما لله عليك، مصروفًا عن جميع المخالفات.

قال الإمام القشيرى - قدس الله تعال سره - :
أشار القوم بالفناء إلى سقوط الأوصاف المذمومة، وأشاروا بالبقاء إلى قيام الأوصاف المحمودة به ، وإذا كان العبد لا يخلو عن أحد هذين القسمين، فمن المعلوم أنه إذا لم يكن أحد القسمين كان القسم الآخر لا محالة، فمن فنى عن أوصافه المذمومة ظهرت عليه الصفات المحمودة.

(واعلم) أن الذى يتصف به العبد أفعال، وأخلاق، وأحوال :
فالأفعال : تصرفاته باختياره.
والأخلاق : جبلة فيه، ولكن تتغير بمعالجته على مستمر العادة.
والأحوال : ترد على العبد على وجه الإبتداء، لكن صفاؤها بعد زكاء الأعمال، فهى كالأخلاق من هذا الوجه، لأن العبد إذا نازل الأخلاق بقلبه، فنفى بجهده سفاسفها، مَنَّ الله عليه بتحسين أخلاقه ، كذلك إذا واظب على تزكية أعماله ببذل وسعه، مَّن الله عليه بتصفية أحواله بل بتوفية أنواره.

فمن ترك مذموم أفعاله بلسان الشريعة يقال : أنه فنى عن شهواته، فإذا فنى عن شهواته سعى بنيته وإخلاصه فى عبوديته.
من زهد فى ديناه بقلبه يقال : فنى عن رغبته فيها، وبقى بصدق إنابته.
ومن عالج أخلاقه فنفى عن قلبه الحسد والحقد والبخل والشح والغضب والكبر، وأمثال ذلك من رعونات النفس، يقال : فنى عن سوء الخلق.
فإذا فنى عن سوء الخلق بقى بالفتوة والصدق.

ومن شاهد جريان القدرة فى تصاريف الأحكام يقال : فنى عن حسبان الحدثان من الخلق.
فإذا فنى عن توهم الآثار من الأغيار بقى بصفات الحق سبحانه وتعالى.

ومن استولى عليه سلطان الحقيقة حتى لم يشهد من الأغيار لا أثرًا ولا عينًا ولا رسمًا ولا طللًا، يقال : أنه فنى عن الخلق، وبقى بالحق.

ففناء العبد عن أفعاله الذميمة وأحواله الخسيسة بعدم هذه الأفعال، وفناؤه عن نفسه وعن الخلق بزوال إحساسه بنفسه وبهم، فإذا فنى عن الأفعال والأخلاق والأحوال، فلا يجوز أن يكون ما فنى عنه من ذلك موجودًا.

وإذا قيل : فنى عن نفسه وعن الخلق، فنفسه موجودة والخلق موجودون، ولكنه لا علم له بهم ولا به، ولا أساس له ولا خبر، فتكون نفسه موجودة والخلق موجودين، ولكنه غافل عن نفسه وعن الخلق أجمعين، غير محس بنفسه وبالخلق.

وقد ترى الرجل يدخل على ذى سلطان أو محتشم، فيذهل عن نفسه وعن أهل مجلسه هيبة، وربما يذهل عن ذلك المحتشم إذا سئل بعد خروجه من عنده عن أهل مجلسه، وهيآت ذلك الصدر، وهيآت نفسه لا يمكنه الإخبار عن شىء.

قال الله تعالى : {فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ } .
فلم يجدن عند لقاء يوسف - عليه السلام - على الوهلة ألم قطع الأيدى، وهن أضعف الناس، وقلن : ما هذا بشرًا، ولقد كان بشرًا، وقلن إن هذا إلا ملك كريم، ولم يكن ملكًا، فهذا تغافل مخلوق عن أحواله، فما بالك بمن يكاشفه الحق سبحانه وتعالى، فلو تغفل عن إحساسه بنفسه، وأبناء جنسه فأى أعجوبة ؟.
فمن فنى بجهله بقى بعلمه، ومن فنى عن شهوته بقى بإنابته، ومن فنى عن رغبته بقى بزهادته، ومن فنى عن منيته بقى بإراداته ، وكذلك القول فى جميع صفاته.

فإذا فنى العبد عن صفته بما جرى ذكره يرتقى عن ذلك بفنائه عن رؤية فنائه، فالأول فناء عن نفسه وصفاته ببقائه بصفات الحق سبحانه وتعالى، ثم فناؤه عن صفات الحق بشهوده للحق تعالى، ثم فناؤه عن شهوده فناؤه باستهلاكه فى وجود الحق سبحانه وتعالى، وإنما أمر بسلوكها لأن أول الفناء عمل.

إذا علمت ذلك، وجاهدت نفسك حتى أدركت هذه الدرجة :
{ تلقى المنى } وهو الوصول إلى الحق سبحانه وتعالى.
{ وتحتظى بالسر } أى : بالكشف عن علومه.

قال الإمام القشيرى :
ويحتمل أنها : أى : السر، لطيفة مودعة فى القالب كالأرواح، وأصولهم تقتضى أنها محل المشاهدة، كما أن الأرواح محل للمحبة، والقلوب محل للمعارف.

وقالوا : السر مالك عليه إشراف، وسر السر ما لا اطلاع عليه لغير الحق سبحانه وتعالى.
وعند القوم على موجب مواصفتهم ومقتضي أصولهم : أن السر ألطف من الروح، والروح أشرف من القلب.
ويقولون الأسرار معتقة عن رق الأغيار من الأطلال والآثار.

وقوله { أيضًا } أى : كما تلقى المنى {و} تحتظي كذلك ب { الهنا } وهو : كل نعمة أتتك بلا مشقة { فإنها } أى : طريقة الفناء المتقدمة { طريقة الأعيان } أى : السادة الأخيار الذين هم أولياء الله تعالى ، وخاصته من خلقه.

{ نعم } ما قلته من وصف هذه الطريقة حق { وفيها } ايضا { تسم } أي تعل و ترتفع { للعيان } أي المعاينة و الشهود الذي لا شك فيه و لا خفاء { و أجمع } أي حصل مقام الجمع { و فرق } كذلك .

قال الإمام السهروردى : قيل أصل الجمع والتفرقة قوله تعالى :
{ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ} : فهذا جمع.
ثم فرَّق فقال :{ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ } .
وقوله : { آمنا بالله } جمع، ثم فرَّق بقوله : {وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا} .
والجمع أصل، والتفرقة فرع، فكل جمع بلا تفرقة زندقة، وكل تفرقة بلا جمع تعطيل.

وقال الإمام القشيرى نقلًا عن الدقاق :
الفرق ما نسب إليك، والجمع ما سلب عنك.
ومعناه :
أن ما يكون كسبًا للعبد من إقامة العبودية، وما يليق بأحوال البشرية فرق .
وما يكون من فضل الحق سبحانه وتعالى، من إبداء معان، وإسداء لطف، وإحسان فهو جمع.

فهذا أدنى أحوالهم فى الجمع والفرق لأنه من شهود الأفعال :
فمن أشهده الحق سبحانه وتعالى أفعاله من طاعاته ومخالفاته، فهو عبد بوصف التفرقة.

ومن أشهده الحق سبحانه وتعالى ما يوليه من أفعال نفسه سبحانه، فهو عبد بشاهد الجمع.
فإثبات الخلق من باب التفرقة، وإثبات الحق سبحانه وتعالى من نعت الجمع، ولابد للعبد من الجمع والفرق ، فإن من لا تفرقة له لا عبودية له، ومن لا جمع له لا معرفة له.
فقوله تعالى :
{ إِيَّاكَ نَعْبُدُ } إشارة إلى الفرق.
وقوله{ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } إشارة إلى الجمع.

وإذا خاطب العبد الحق سبحانه وتعالى بلسان نجواه إما سائلًا، أو داعيًا، أو مثنيًا، إو شاكرًا، أو متنصلًا، أو مبتهلًا قام فى محل التفرقة.
وإذا أصغى بسره إلى ما يناجيه به مولاه ، واستمع بقلبه إلى ما يخاطبه به فيما ناداه، أو ناجاه، أو عرَّفه معناه، أو لوح لقلبه وأراه فهو بشاهد الجمع.
إلى أن قال - رضى الله عنه - : وجمع الجمع فوق هذا.

ويختلف الناس فى معنى هذه الجملة على حسب تباين أحوالهم وتفاوت درجاتهم ؛
فمن أثبت نفسه وأثبت الخلق ولكنه شاهد الكل قائمًا بالحق ؛ فهذا هو الجمع.

وإذا كان مختطفاً عن شهود الخلق، مصطلمًا عن نفسه، مأخوذا بالكلية عن الإحساس بكل غير بما ظهر واستولى من سلطان الحقيقة، فذلك جمع الجمع.

والتفرقة شهود الأغيار لله عز وجل، والجمع شهود الأغيار بالله تعالى، وجمع الجمع الاستهلاك بالكلية، وفناء الإحساس بما سوى الله عز وجل عند غلبات الحقيقة.

بعد هذا حالة عزيزة يسميها القوم الفرق الثانى :
وهو أن يرد إلى الصحو عند اوقات أداء الفرائض ليجرى عليه القيام بالفرائض فى أوقاتها، فيكون رجوعًا لله بالله تعالى لا للعبد بالعبد، فالعبد يطالع نفسه فى هذه الحالة فى تصريف الحق، يشهد مبدأ ذاته، وعينه بقدرته، ومجرى أفعاله وأحواله عليه بعلمه ومشيئته.

وأشار بعضهم بلفظ الجمع والفرق إلى تصريف الحق جميع الخلق ، فجمع الكل فى التقليب والتصريف، من حيث إنه منشىء ذواتهم، ومجرى صفاتهم.

ثم فرقهم فى التنويع ، ففريقًا أسعدهم واجتباهم، وفريقًا أبعدهم وأشقاهم، وفريقًا هداهم، وفريقًا أضلهم وأعماهم، وفريقًا حجبهم عنه، وفريقًا جذبهم إليه، وفريقاً آنسهم بوصلته، وفريقًا آيسهم من رحمته، وفريقا أكرمهم بتوفيقه، وفريقًا اصطلمهم عند رومهم لتحقيقه ،وفريقًا أصحاهم ، فريقًا محاهم، وفريقًا قرَّبهم، وفريقًا غيِّبهم، وفريقًا أدناهم وأحضرهم، ثم أسقاهم فأسكرهم، وفريقًا أشقاهم وأخرهم، ثم أقصاهم، وهجرهم.

وأنواع أفعاله سبحانه وتعالى لا يحيط بها حصر، ولا يأتى على تفصيلها شرح ولا ذكر.

إذا علمت المراد من هذه الحالات، وتحققت بتلك الإشارات فإنك لاشك { للكمال } الذي هو درجة الواصلين { ترقى } لأنه غاية ما ينتهى إليه سلوك السالكين، وسير السائرين، وفيه تخلص النفس من سجن الطبيعة إلى فضاء التخلق بأخلاق الله سبحانه وتعالى، وفيه تفاض عليه الأخلاق المحمدية بقدر المقسوم له، وفيه يتوج بتاج الخلافة العظمى.

{ وبكؤوس الوصل } الذى هو : تلذذ القلب بشهود الحق بعد كشف الحجب الظلمانية والنورانية.

قال شيخى، وأستاذى، وقدوتى، وملاذى سيدى عمر الشبراوى - رحمه الله تعالى- :
والوصل عند القوم : مكاشفة القلوب، ومشاهدة الأسرار، بأن يطلع الله سبحانه وتعالى من أراد من أهل العناية، على كونه تعالى معنا فى سائر الأحوال.
وسمى هذا الشهود وصلًا ؛ لاتصال العارف بشهود ما هو الأمر عليه فى الواقع.

قال الله تعالى : {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ }
أى : على أى حالة كنتم ، فمعيته لنا متحققة فى نفس الأمر.

والذى يحصل لأهل العناية : أن يكشف عن بصائرهم حتى يشهدوها، وإذا حصل لهم ذلك لا يزول عنهم، لأن الله - سبحانه وتعالى - ما تجلى لشيء ثم انحجب عنه، فضلًا منه عز وجل وكرمًا٠

{ منه } سبحانه وتعالى { تسقى } شبه تلك المشاهدات الواردة على المريد بالكؤوس، والورود بالسقى، وساغ له ذلك ؛ لكون الكؤوس المملوءة تورث بعد شربها أنسًا وسرورًا، ولا سرور أعظم من السرور بوصله تعالى٠

{ وَوَحِّد } أى : اعتقد وحدة الله { الواحد } المنفرد فى ذاته وصفاته وأفعاله ، فهو واحد فى ذاته فلا ينقسم ولا يتجزأ ، وفى صفاته فلا يشبه شيئاً ولا يشبهه شىء ، وفى أفعاله فلا شريك له فيها٠

{ فيما } أى : جميع ما { وحدا } أى ذاتاَ وصفاتاَ وأفعالًا٠
قال الجنيد : أشرف كلمة فى التوحيد ما قاله سيدنا أبو بكر الصديق -رضى الله تعالى عنه - :
" سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلًا إلى معرفته ، إلا بالعجز عن معرفته "٠

قال الستاذ أبو القاسم :
ليس يريد الصدِّيق - رضى الله تعالى عنه- أنه لا يعرف ، لأن عند المحققين العجز عجز عن الموجود دون المعدوم ، كالمقعد عاجز عن قعوده ، إذ ليس بكسب له، ولا فعل، والقعود موجود فيه ، كذلك العارف عاجز عن معرفته ، والمعرفة موجودة فيه لأنها ضرورية٠

وعند هذه الطائفة المعرفة به سبحانه وتعالى فى الانتهاء ضرورية ، فالمعرفة الكسبية فى الابتداء، وإن كانت معرفة على التحقيق لم يعدها الصديق - رضي الله تعالى عنه - شيئًا ، بالإضافة إلى المعرفة الضرورية ؛ كالسراج عند طلوع الشمس، وانبساط شعاعها عليه٠

وقال بعضهم : التوحيد هو إسقاط الوسائط عند الغلبة والرجوع إليها عند الأحكام، وأن الحسنات لا تغير الأقسام من الشقاوة والسعادة، إنما الشرط أن يكون توحيدك معتقدًا فيه أنه تعالى استحق التوحيد { لذاته } من غير موجبات كلها حادثة بعد ثبوت وحدانية ذاته بذاته فى قوله تعالى :
{ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ } ٠

واعتقاد العلل لذلك جهل محض، ومتى كان هذا اعتقادك فإنه { يحسن منك الاقتدا } بالسلف الصالح فى ذلك كالصدِّيق وكل الصحابة، والجنيد وكل أكابر الطريق٠

أو يحتمل المعنى من غير غرض بل خالصًا، كما أيده المنصف بقوله :
{ فمن يوحد ربه بربه } من غير شهود آثار { يخلص من عقال قرب } أى : مشاهدة { قربه } تعالى إليه ، فإن ذلك حجاب٠

قال أبو يعقوب السوسى : ما دام العبد بالقرب لم يكن قريبًا حتى يغيب عن رؤية القرب بالقرب، فإذا ذهب عن رؤية القرب بالقرب فذلك قرب٠
وهذا أعنى رؤية القرب : هو المعبر عنه بعقال القرب، فإنه مادام العبد فى هذا المقام فهو محجوب عن القرب، فإذا خلص من ذلك فهو القرب٠

قال الإمام القشيرى : ورؤية القرب حجاب عن القرب فمن شاهد لنفسه محلًا أو نفْسًا فهو ممكور به، ولهذا قالوا : أوحشك الله من قربه، أى : من شهودك لقربه، فإن الاستئناس بقربه من سمات الغرة به ، إذ الحق ـ سبحانه وتعالى ـ وراء كل أنس، وإن مواضع الحقيقة توجب الدهش والمحو٠

ورأى أبو الحسين النورى بعض أصحاب أبى حمزة فقال : أنت من أصحاب أبى حمزة الذى يشير إلى القرب ؟ إذا لقيته فقل له : إن أبا الحسين النورى يقرئك السلام، ويقول لك :
قرب القرب فيما نحن فيه بعد البعد٠

فمما تقدم جمعيه علم أن قرب القرب حجاب، وعقال يمنع من السير، وأن التوحيد الخالص موجب للفكاك منه، فانشط من هذا العقال تكن من الأبطال٠

{ وفقر فقر الفقر }
اعلم أن للفقر ثلاث درجات لكل واحدة أهل، وكل واحدة لب للتى قبلها، وقد أشار إليها الأشياخ بإشارات متفرقة :

الأولي : الفقر بمعنى قلة ذات اليد من المال والجاه، مع الرضى بذلك، والسكون فيه، وعدم السخط ، وهو أدناها، وهو فقر العامة٠

والثانية : فقر بمعنى تعلق القلب بالدنيا رغبة فيما عند الله تعالى من نعم الجنة٠
والثالثة : فقر بمعنى عدم تعلق القلب بشىء من الأكوان بل لوجهه تعالى وقربه، وهذه هى الأشرف لأنها لا تكون إلا بعد الفناء عن الدنيا والآخرة٠

ولذا قال المصنف ـ قدس الله تعالى سره ـ :
{ أن تدريه } أى : تعلمه حق العلم وتتحقق منه { يمم } أى : اقصد { له } أسبابه وطرقه حتى تصل إليه { كى } أى : لأجل أن { تدع بالنبيه } أى : الفطن الحاذق المتبصر فى الأمور٠

ثم أخذ المصنف فى الإشارة إلى مقام الإحسان فقال :

{ واسمع به } أى : بالله سبحانه وتعالى { منه } تعالى لا من غيره { وكن } بهذا الحال { ذا } أى : صاحب { سمع } حقيقى٠

{ وأبصر كذلك } أى : به منه { واجر ماء الدمع } وإذا كان سماعك، وإبصارك كذلك كان كل مسموع لك، وكل مبصر موعظة إذا هو خطاب ورد عليك منه تعالى، فما أرق قلبك حينئذ وأسجم عينيك٠

{ وأنطق به } فلا تخرج عن حد ما ناداك به فى سرك آمرًا بذلك٠
{ كى تدع ذا لسان } ناطق بالصدق عذب المقال مسموع الموعظة { أيضًا } أى : كما دعيت فى الاول ذا سمع، وفى الثانى ذا بصر٠

{ وتدخل } بالتسكين { جنة الأمان } من الوقوع فى الزلات من جهة اللسان، ومن جهة البصر، و من جهة السمع ، أو الامان من القطيعة فإنه ما رجع من رجع إلا من الطريق، ومتى وصل فالله أكرم من أن يمل جليسه٠
وتقدمت الاشارة اليه فى ذكر النفوس٠

{ والسر صنه } قال الإمام القشيرى :
ويطلق لفظ السر على ما يكون مصونًا مكتومًا بين العبد والحق سبحانه فى الأحوال، وعليه يحمل قول من قال : أسرارنا بكر لم يفتضها هم واهم، ويقولون أن صدور الأحرار قبور الأسرار، وقالوا : لو عرف زرى سرى لطرحته ، فكتمان السر فى هذا الطريق واجب٠

وإن صنته أيها المريد { تدع بالأمين } وإلا فلو علمت شفتاك بما فى صدرك، فقد جردت عن وصف الأمانة، ووصمت بالخيانة، واستحقيت الطرد والحرمان، لأن من أودعوه سرًا فباح به لم يأمنوه على الأسرار ما عاش أبدًا٠

ومستخبرعن سر ليلى رددته * بعمياء من ليلى بغير يقين
يقولون خبرنا فأت أمينها * وما أنا إن اخبرتهم بأمين٠

وفوق تسميتك أيها المريد بالأمين أن الله تعالى يمن عليك بما لا يدخل تحت حصر٠

{ وترقى للتلوين فى التمكين } التلوين صفة أرباب الاحوال، والتمكين صفة أهل الحقائق٠
فالتلوين لأرباب القلوب : لأنهم تحت حجب القلوب، وللقلوب تخلص إلى الصفات ، وللصفات تعدد بتعدد جهاتها ، فظهر لأرباب القلوب بحسب تعدد الصفات تلوينات، ولا تجاوز للقلوب وأربابها عن عالم الصفات٠

وأما أرباب التمكين : فخرجوا عن مشائم الأحوال، وخرقوا حجب القلوب، وباشرت أرواحهم سطوع نور الذات، فارتفع التلوين لعدم التغير فى الذات، إذ جلت ذاته عن حلول الحوادث والتغييرات٠
فلما خلصوا إلى مواطن القرب من أنصبة تجلى الذات ارتفع عنهم التلوين ، فالتلوين حينئذ يكون فى نفوسهم لأنها فى محل القلوب لموضع طهارتها وقدسها٠

والتلوين الواقع فى النفوس لا يخرج صاحبه عن حال التمكين، لأن جريان التلوين فى النفس لبقاء رسم الإنسانية، وثبوت القدم فى التمكين كشف حق الحقيقة ، وليس المعنى بالتمكين أن لا يكون للعبد تغير فإنه بشر، وإنما نعنى به : أن ما كوشف به من الحقيقة لا يتوارى عنه أبدًا، ولا يتناقص بل يزيد.

وصاحب التلوين قد يتناقص الشيء فى حقه عند ظهور صفات نفسه، وتغيب عنه الحقيقة فى بعض الأحوال، ويكون ثبوته على مستقر الإيمان، وتلوينه فى زوائد الأحوال.

قال الإمام القشيرى : والأولى أن يقال :
أن العبد ما دام فى الترقى فصاحب تلوين، يصح فى نعته الزيادة فى الأحوال والنقص منها، فإذا وصل إلى الحق بانخناس أحكام البشرية، مكَّنه الحق سبحانه بأن لا يرده إلى معلولات النفس، فهو متمكن فى حاله على حسب محله واستحقاقه.

ثم ما يتحفه به الحق سبحانه فى كل نفس، فلا حد لمقدوراته فهو فى الزيادات متلون بل ملون، وفى أصل حاله متمكن ، فأبدًا يتمكن فى حالة أعلى مما كان فيها قبلها ، ثم يترقى عنها إلى ما فوق ذلك، إذ لا غاية لمقدروات الحق سبحانه فى كل جنس.

فأما المصطلم عن شاهده المستوفى إحساسه بالكلية فللبشرية لا محالة حد، فإذا بطل عن جملته، ونفسه، وحسه، وكذلك عن المكونات بأسرها ، ثم دامت به هذه الغيبة فهو محو، فلا تمكين له إذًا ولا تلوين، ولا مقام، ولا حال، وما دام بهذا الوصف فلا تشريف، ولا تكليف اللهم إلا أن يزد بما يجرى عليه من غير شيء منه، فذلك متصرف فى ظنون الخلق، مصرّف فى التحقيق.
قال تعالى :
{ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ }

وهناك مثال يكشف عن ذلك قصة زليخا والنسوة مع يوسف - عليه الصلاة والسلام - :
فإنه بمجرد أن ظهر عليهن تغيرن، وغبن عن إحساسهن، وقطعن أيديهن من غير إحساس بألم القطع ، ذلك لعدم تمكنهن فى مشاهدته، ورؤيتهن له علي البديهة.
بخلاف زليخا فى ذلك اليوم فإنها لم تتغير منها شعرة واحدة لأنها كانت صاحبة تمكين فى حديث يوسف - عليه الصلاة والسلام -.

{ والشطح دع } لأنه رعونة، وهو كل كلمة خرجت وعليها شبه رعونة ؛ كقول الحلاج : أنا الله، أو ما فى الجبة إلا الله، وقول غيره أنا العرش أنا الكرسى إلى آخره.

{ والزم } أيها المريد { حمى السكون } أى : السكون الذى يحميك من الوقوع فى مهامة الشطح و غيره { واكشف به } أى : اطلب الكشف بسببه أى : السكون { عن سره } تعالى المقدس.
{ المصون } عن الابتذال بين أيدى الأنذال، وإنما كان مصونًا لأن الله تعالى يغار أن تبدو أسراره المصونة لقلوب بشهود الغير مفتونة.

ثم إن المصنف تكلم عن إشارة تلوح إلى هذا المقام يفهمها أولو الألباب، فقال :

{ فالظل ما مد للاستظلال } به من حر الشمس { بل } لحكمة أخرى، وسر غامض لا يفهمه القاصرون { هو سر } معمول مقدم لجالى.

و{ الانقباض } مضاف إليه و { جالى } خبر، أى : مبين بياناً جلياً واضًحا ، وذلك أن الظل ما كان أول النهار ، فكلما انقبض الظل اتسع نور الشمس، وهكذا حتى لا يكون ظل.

والمريد فى مقام القبض خير منه فى مقام البسط، فإنه وهو فى الأول دائمًا فى ترق إلى المقامات، مأمون من الوقوع فى الزلات.

{ ورؤية الابصار } التى ينالها العاملون عي سنن هذا الطريق المؤيد بالقرآن والسنة.
{ فهى أعلا } مقامات الوصول التى ينالها العارف فى الدنيا والآخرة، وهى الزيادة عن الحسنى.

وإنما كانت كما ذكر { لأنها قد خصصت } فى هذه الدار الدنيا { بالاجلا } اى : الحسن الوجه، وهو المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وفى الجنة يراه عموم المؤمنين كل على حسب مقامه فى مدة المشاهدة، وفيما بين المدتين، وحيث أن هذه المسئلة اختلف فيها بين أهل السنة وغيرهم، وأثبتها أهل السنة ومعهم الصوفية منهم بأدلة قاطعة قاصمة، وبعضهم أفردها بالتأليف فلا نطيل بذكرها.

{ ووحدة } عظيمة شريفة { من وصفها الإطلاق } عن التقييد بوقت أو زمن أو مكان أو نوع دون نوع حتى عن الإطلاق { ذق سرها } أيها المريد.

{ كى تمس ممن ذاقوا } حقًا فان الذوق خاص لا يذوقه إلا الخواص من عباده.
{ غنية } تلك الوحدة { حتى عن الأوصاف } وهذا إشارة إلى وحدة الإطلاق و { لا يدر } ويعلم لأحد { كنهها } أى : حقيقتها على التحقيق.

حتى قال بعضهم :
علامة حقيقة التوحيد نسيان التوحيد { بلا خلاف } بين أحد من المسلمين وعلماء الدين.
{ ومن يكن يدرك } ويحصل { ذا } المقام العظيم الشان الذى ليس له نظير من المقامات التى قبله فى السلوك فإنه { سعيد } سعادة عظيمة لا شقاوة بعدها ، يغبطه فيها المحبوبون والمخلصون.

{ نعم } هذا هو الحق الذى لاشك فيه { وإنه } فوق ذلك { هو الرشيد } أى : المهتدى إلى الحق المتشدد فيه.

ثم إن المصنف أتى بما هو كالتفريغ على مفهوم معنى الأبيات المتقدمة فقال :

{ فالحمد } الحقيقى المقبول الموصوف صاحبه بالحامد حقيقة { حمد الحمد } إظهار فى مقام الإضمار، أى إيقاع الحمد من صميم الفؤاد خالصًا { ل } وجه الله تعالى٠

{ الحميد } أى : المحمود المستحق للثناء لاتصافه بالصفات الكمالية التى لا يصح الحمد معها حقيقة لغيره سبحانه وتعالى٠

ولذا قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »٠

{ والمجد } أى : التعظيم الحقيقى كالحمد { مجد المجد } أى : تحصيل المجد٠
{ للمجيد } خاصة أى : الكريم، إذ هو الكريم على الإطلاق الذى الذى لا يبخل أبدًا، ولا يرد سائلًا ، فهو المستحق للتمجيد والتعظيم والثناء، لمجده وكرمه وعظمته ، فالحمد والمجد لا يكونان إلا له سبحانه وتعالى٠

{ على جميع فضله } راجع إلى الحمد { وجوده } أى : كرمه راجع إلى المجد٠

{ ما عابد قام إلى } عبادة { معبوده } أى : مدة قيام العابدين إلى معبودهم٠

والمراد : أن الانسان يجب عليه أن يكون حامدًا، وممجدًا لله تعالى وحده سرًا وعلانية، على جميع نعمائه صغيرة أو كبيرة مدة عمره من غير تخلل إعراض حسب إمكانه، وإلا فما معنى إقراره بعبوديته لله سبحانه وتعالى٠

فإن لم يكن كذلك فهو عبد آبق يند عن سيده ومولاه، ويقبل على من ليس له عليه فضل، يعترف للناس بالفضل، ويجحد نعم سيده، فما أشقاه من عبد، وأتعس عشيته، وأكسد تجارته، نسأل الله التوفيق للقيام بحقوق عبوديتنا له تعالى٠

وإلى هنا أنهى المصنف الكلام على القسم الثالث ؛ وهو أدب المريد فى نفسه، ولسابق الاقتداء لم نزد على شرح ما كتب، وبقى ما وعدنا به من ذكر جملة من آداب المريد مع عامة الخلق، وهاك جملة فى نهاية الإيجاز وفاء بالوعد٠

(وصل)
اعلم أن الناس بالنسبة إليك على ثلاثة أصناف :
إما أصدقاء، وإما معاريف، وإما مجاهيل ، فإن بليت بالقوم المجهولين فأدب مجالسة العامة ترك الخوض فى حديثهم، وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم، والتغافل عما يجرى من ألفاظهم، والاحتراز عن كثرة لقائهم والحاجة اليهم، والتنبيه على منكراتهم باللطف والنصح عند رجاء القبول منهم٠

أما الإخوان والأصدقاء فعليك فيهم وظيفتين :

إحداها : أن تطالب بشروط الصحبة والصداقة، فلا توآخى إلا من يصلح للأخوة والصداقة٠
قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل »٠

فإذا طلبت رفيقًا ليكون شريكك فى التعلم وصاحبك فى أمر دينك ودنياك، فراع فيه خمس خصال :
الأولى العقل : فلا خير فى صحبة الأحمق فإلى الوحشة والقطيعة يرجع آخرها، وأحسن أحواله أن يضرك وهو يريد أن ينفعك٠

الثانية حسن الخلق : فلا تصحب من ساء خلقه، وهو الذى لا يملك نفسه عند الغضب والشهوة٠

الثالثة الصلاح : فلا تصحب فاسقًا مصرًا على كبيرة، ومن لا يخاف الله تعالى لا تؤمن غوائله، بل يتغير بتغير الأعراض والأحوال٠

الرابعة عدم الحرص : فلا تصحب حريصًا على الدنيا، فصحبة عليها الحريص سم قاتل لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء٠

الخامسة الصدق : فلا تصاحب كاذبًا فإنك منه على غرور، لأنه مثل السراب يقرب منك البعيد، ويبعد عنك القريب٠

الوظيفة الثانية : حقوق الصحبة٠
قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « مثل الأخوين مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى »٠
وقال - صلى الله عليه وسلم - :
« ما من صاحب يصحب صاحبًا ولو ساعة من نهار إلا سئل عن صبحته، هل أقام فيها حق الله أو أضاعه »٠
وقال - صلى الله عليه وسلم - :
« ما اصطحب اثنان قط إلا وكان أحبهما إلى الله تعالى أرأفهما بصاحبه »٠

فأدب الصحبة :
الإيثار بالمال أو الفضل عند الحاجة ، والإعانة بالنفس، وكتمان السر، وستر العيوب، وحسن الإصغاء عند الحديث، وترك المماراة ، وأن يدعوه بأحب أسمائه إليه، وأن يثنى عليه بما يعرف من محاسنه، وأن يشكره على صنيعه فى وجهه، وأن يعفو عن زلته، وأن لا يكثر العتب، وأن يفرح بما يفرحه ،ويحزن لما يحزنه، وأن يبدأه بالسلام عند إقباله، وأن يوسع له فى المجلس، وأن يخرج له من مكانه، ويشيعه عند قيامه، وغير ذلك٠

وأما القسم الثالث وهم المعاريف :

فاحذرهم ما أمكن ؛ أما الصديق فيعينك، وأما الجهول فلا يتعرض لك٠
وإنما الشر كل الشر فى المعاريف، فأقلل منهم ولا تعادهم إن عادوك ، ولا تسكن إليهم عند إكرامهم إياك ، ولا تعجب إن ثلبوك فى غيبتك ولا تغضب، وإن قصروا فلا تعاتبهم، ولا تنصح أحدهم ما لم تتوسم فيه القبول، وإن أخطؤا فلا تعلمهم إذا كانوا يأنفون، وإذا رأيت منهم كرامة وخيرًا فاشكر الله تعالى، وإذا رأيت شرًا فكلهم إلى الله تعالى، وكن فيما بينهم سميعًا لحقهم، أصم عن باطلهم، نطوقًا بمحاسنهم، صموتًا عن مساويهم، ذا وقار من غير كبر، وتواضع من غير مذلة٠
وبالجملة : فكن فى جميع أمورك كلها فى أواسطها، وفى هذا القدر كفاية، والله سبحانه وتعالى أعلم٠

ثم أن المصنف نادى المريد لينصحه نصيحة إجمالية فقال :

{ فيا مريد القرب } وهو مراتب ، قال القشيرى - رضى الله تعالى عنه - :
أول رتبة فى القرب، القرب من طاعته، والاتصاف فى دوام الأوقات بعبادته٠

قال صلى الله عليه وسلم - مخبرًا عن الحق سبحانه وتعالى :
« ما تقرب المتقربون بمثل ما افترضت عليهم، ولازال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى يحبنى وأحبه، فإذا أحببته كنت له سمعًا وبصرًا فبى يسمع، وبى يبصر الخير »٠أو كما قال٠

فقرب العبد أولًا بإيمانه وتصديقه، ثم قرب بإحسانه وتحقيقه، وقرب الحق سبحانه وتعالى ما يخصه به في هذه الدار من العرفان ، وفى الآخرة ما يكرمه به من الشهود والعيان، وفيما بين ذلك بوجوه اللطف والامتنان، ولا يكون قرب العبد من الحق إلا ببعده عن الخلق، وهذه من صفات القلوب دون أحكام الظواهر، فقرب الحق سبحانه بالعلم والقدرة عام للكافة ، وباللطف و لنصرة خاص بالمؤمنين ، ثم بخصائص التأنيس مختص بالأولياء٠

قال الله تعالى : { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ }
وقال الله تعالى : { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ }
وقال الله تعالى : { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ }
وقال الله تعالى : { مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ }

ومن تحقق بقرب الحق سبحانه تعالى فأدونه دوام مراقبته إياه لأنه عليه رقيب التقوى، ثم رقيب الحفظ والوفاء، ثم رقيب الحياء.

وأنشدوا :
كأن رقيبًا منك يرعى خواطرى * وآخر يرعى ناظرى ولسانى
فما رمقت عيناى بعدك منظرًا * يسوءك إلا قلت قد رمقانى
ولا بدرت من فِيَّ دونك لفظة * لغيرك إلا قلت قد سمعانى
ولا خطرت فى السر بعدك خطرة * لغيرك إلا عَرجا بعنانى
وإخوان صدق قد سئمت حديثهم * وأسكت عنهم ناظرى ولسانى
وما الزهد أسلو عنهمو غير أننى * وجدتك مشهودى بكل مكان

قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - :
وإذا وصل العبد إلى دوام مراقبته لربه، و شتد لا يخرج الحق من قلبه ، حسن منه أن يقول هذه الأبيات المتقدمة.

{ والوصال } بمعنى الاتصال والوصول.

قال الإمام السهروردى - رحمه الله تعالى - :
اعلم أن الاتصال والمواصلة أشار اليه الشيوخ، وكل من وصل إلى صفو التعيين بطريق الذوق و الوجدان فهو فى رتبة من الوصول.
ثم يتفاوتون :
فهمنهم : من يجد الله بطرق الأفعال، وهو رتبة فى التجلى، فيفني عن فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله تعالى، ويخرج فى هذه الحالة من التدبير والاختيار، وهذه رتبة فى الوصول.

ومنهم : من يوقف فى مقام الهيبة والأنس بما يكاشف قلبه من مطالعة الجلال والجمال، وهذا تجلى بطريق الصفات، وهو رتبة فى الوصول

ومنهم : من ترقى لمقام الفناء مشتملًا على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة، مغيبًا فى شهوده عن وجوده، وهذا ضرب من تجلى الذات لخواص المقربين، وهذا المقام رتبة فى الوصول.

وفوق ذلك حق اليقين، ويكون من ذلك فى الدنيا للخواص لمح، وهو سريان نور المشاهدة فى كلية العبد حتى يحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قالبه ، وهذا من أعلى رتب الوصول.

فإذا تحققت الحقائق يعلم العبد مع هذه الأحوال الشريفة أنه بعد فى أول المنازل فأين الوصول، هيهات أن تنتهى منازل الطريق أبد الآباد فى عمر الآخرة الأبدى، فكيف بالعمر القصير الدنيوى؟

{ ووصل وصل الوصل } الأول تلذذ القلب بشهود الحق بعد زوال الحجب الظلمانية والنورانية ، ووصل الوصل دوام ذلك كقولهم سر السر ٠

واعلم أن هذه الألفاظ ليست راجعة إلى معنى واحد، بل هى نتائج يتوقف بعضها على بعض ؛ فالوصل الثانى متوقف على الوصل الأول، وهكذا إلى ما لا يتناهى، وهى بحسب أطوار السالكين ، فصاحب المقام الأول له مقام يدركه صاحب المقام الثانى، وكل له ذوق بعيد وقريب، وأقرب بحسب بدايته وتوسطه ونهايته، وهكذا دنيا وأخرى لا ينقطع ٠

{ ل } أجل ان تحظي برتبة { الكمال } التى فاز أهلها { دع } أى : اترك جميع ٠
{ الحظوظ } النفسانية دنيوية وأخروية { و } اترك أيضا جميع { الذى يرديكا } من المهلكات الشيطانية، والصفات النفسانية الذميمة { ثم تجرد } عن الدنيا والخلق بل عن جميع الأكوان، وتأهب بكل نشاط وهمة صادقة { يدنيكا } ويقرِّبك إلى ربك الذى خلقك لعبادته، وأسبغ عليك نعمته ٠

{ فإن تر التوفيق منه } تعالى فى التجرد عن الدنيا والتأهب للقرب { وافى } أى : أتاك من عنده تعالى { ومن ترم } أى : ترد { منه الصفا } بالقصر، أى : الخلوص فى المحبة، وهو سبحانه وتعالى ٠
{ قد صافى } أى : صافاك وأقبل بمحبته عليك { فاثن } بتسهيل الهمزة { عليه بالثناء } أى : التعظيم { اللائق } بعظمته تعالى ٠

{ وانف عن الأحشاء } أى : ما انضمت عليه الضلوع، والمراد : القلب ٠
{ كل عائق } من الخواطر الرديئة، والتخلق بالأوصاف الذميمة { و اشكر } مولاك الذى وفقك جل شأنه { إذا سلكت منهاج } أى : طريق { التقى على نقى } أى : خلوص من المكروه المردى { وفزت } أى : ظفرت { منه باللقا } بالقصر إذ ذاك غاية ما يتمنى المتمنون، وأعى شأو تتطاول إليه أعناق العارفين ٠

قال المصنف قدس الله سره :
{ وهذه } أى : ما تقدم من المنظومة { بعض من الآداب } التى تطلب ٠
{ لمن يروم منهج } أى : طريق { الأحباب } الذين شربوا الشراب ٠

والمراد بهم : الذين سلكوا الطريق حتى وصلوا إلى التحقيق، جعلنا الله تعالى، ومشايخنا، ومن نحب ، والإخوان منهم إنه قريب مجيب لا يرد سائلًا، ولا يخيب من دعاه، وأن يمن علَّى، وعلى إخوانى بسلوك هذه الطريقة الشريفة، ومن قال آمين ٠

{ ثم الصلاة والسلام }
اعلم وفقنا الله وإياك : أن الصلاة والسلام على نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مقبولتان لا تردان ؛ لأنهما من العمل الذى لا يدخله رياء.

وقد ختم المصنف ـ قدس الله سره ـ بهما كتابه كما افتتحه بهما، وكذلك بالحمد ؛ ليكون كتاباً مكتنفاً بين صلاتين، وسلامين، وحمدين ، فيكون أجدر بالقبول، لأن الله تعالى أكرم من أن يقبل الحمدين والصلاتين، ويرد ما بينهما، وأرجى لدوام النفع به.

وقوله { ما سرى نجم } أى : مدة سرايته، والمراد : التأبيد { على ما جاءنا } من عند الله سبحانه وتعالى بالشريعة الغراء السمحاء { مبشرًا } لنا بالجنة.
قال تعالى : { وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا } .

{ والآل والصحب كذا الأتباع } له إلى يوم القيامة، ولو عصاه لأن النعيم أرجى فى القبول، وهم أحق بالدعاء لهم.
{ وما دعا الله } من خلفائه وعلماء أمته { يومًا داعى } .
والمراد : التأبيد إذ الدعاة إلى الله تعالى لا انتهاء لهم ما دامت الدنيا.

{ وتمت الأرجوزة اللطيفة } أى : صغيرة الحجم ، وإن كانت غزيرة العلم.
{ والبلغة السنية المنيفة } أى : العالية القدر { جعلها } الله سبحانه وتعالى.

{ خالصة } من الرياء مقبولة { لديه } أى : عنده { بجاه طه المصطفى } صلى الله عليه وسلم.
{ عليه } توسل بجاهه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما طلب عملًا بقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « توسلوا إلى الله بجاهى فإن جاهى عند الله عظيم ».
والجاه : هو القدر والمنزلة.

{ ويغفر الله لعبد } هذا دعاء وطلب من الله تعالى لمن { قالها } أى : هذه الأرجوزة.
أى : نظمها، وأنشأها يريد نفسه.
لقوله ـصلي الله عليه و سلم ـ : « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول ».

{ ومن بها قام } بأن قرأها أو شرحها أو عمل بها { وعنها ما لها } أى : مال ولعب.
{ والحمد لله على التمام } فإنها من أعظم الحسنات الجارية بعد الموت، إذ هى من العلم النافع للمسلمين، وإتمامها على على يديه نعمة عظيمة منه تعالى يجب الحمد عليها والشكر، ولذلك حمد فى أخر المتن بعد الحمد فى أوله.

{ فى الابتدا أيضًا وفى الختام } أى : فى أوله وآخره.
والمراد بالابتدا : ما عدا الأخر، وبالآخر : ما عدا الأول، ليكون فى مقابلة جميع أجزائها، وفيه من براعة المقطع ما يزهو على الشمس حسنًا، والبدر تماماً.

وهذا آخر ما قصدته من شرح هذه المقامات، وتحقيق طريق أهل المجاهدات.

وإنى أختم هذا الكتاب بما ختم به صدر العارفين فى عصره، وتاج الواصلين فى دهره، سيدنا وقدوتنا، وملاذنا، وحجتنا سيدى عمر جعفر الشبراوى بعض كتبه، عسى أن يصح اقتداء تلميذ بأستاذ ، ويكون هذا الولد بآبائه قد لاذ.

فأقول :
إنى أستغفر الله تعالى من طريق لم أسلكه، وتجارتى برأس مال لم أملكه، ولكننى أقول كما قيل :

وكم حاد وليس له بعير * وكم راع و ليس له سوام
ومن يسقى وليس له شراب * ومن يدعو وليس له طعام

وشأن المحبة أن تدعو إلى الانكباب، وانسحبت الرحمة على كلب أهل الكهف لما تبع الأنجاب، فعسى بمدد أشياخنا السادات يحصل جمع الشمل والوصال، وإن تباين الحال وتباعدت الخصال، ربى الكريم الوهاب لا يرد من طرق الباب، وشأن الكرام لا يمنعون الطفيلى عن موائدهم، ولا يحرمون من قصد فيض مواهبهم.

وإنى أسأل الله الكريم المالك أن ينظمنا في هاتيك المسالك، وأن يلحقنا بأوليائه فى مقامات قربه، وأن يتحفنا فى الدنيا والآخرة ويجعلنا من حزبه، وأن ييسر لنا كل أمر عسير، كما يسر علينا باتمام هذا الشرح المنير الخالى عن وصمة اعترض وأجيب.

حتى صار تحفة حبيب لحبيب، وأن يمن علينا بصفات المعرفة، وأن يهب لنا صحيح المعاملة يوم القيامة، وأن يختم لنا بالسعادة الأزلية الأبدية، ويمنحنا النظر إلى وجهه الكريم، ويحشرنا تحت لوائه العظيم بحق وجاهة وجه النبى الكريم - صلى الله عليه وسلم - ، وعلى آله وصحبه وذريته وأهل بيته، وأتباعه وأحبابه وأحزابه، وإخوانه من الأنبياء والمرسلين، وشرف وعظم كلما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون.

وكان الفراغ من تبيضه وقت التمام وانتشار ريا مسك الختام، فى ظهر يوم الأحد المبارك الموافق خمسة وعشرين من شهر رمضان المعظم، عام أربعة عشر وثلاثمائة بعد الألف من هجرة من خلق على أكمل وصف صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وعظم وشرف وكرم ما ناح على الأغصان حمام أو فاح شذا مسك الختام.

آمين